

التراث العربي



مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

السنة 17 - العدد 65

التراث العربي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب - دمشق

المدد : ٦٥ - جمادى الأولى ١٤١٧ هـ - تشرين الأول «اكتوبر» ١٩٩٦ م - السنة السابعة عشرة

المدير المسؤول
د. علي عقلة عرسان

رئيس التحرير
نصر الدين البحرة

أمين التحرير
عبداللطيف الأزاوط

هيئة التحرير:

د. عدنان البيني د. عدنان درويش د. محمد زهير البابا
د. عمرو موسى باشا د. مسعود بويدو

ترسل المواد والمراسلات إلى العنوان التالي :
المدير المسؤول - اتحاد الكتاب العرب ، مجلة التراث العربي ، دمشق - ص.ب : ٢٢٢٠
هاتف: ٦٦١٧٢٤٢ - ٦٦١٧٢٤٣ - ٦٦١٧٢٤٤ - ٦٦١٧٢٤٥ - فاكس: ٦٦١٧٢٤٤



مكتبة لبنان العربي

تنويه :

- ١ - المواد الواردة إلى المجلة لا تتماد إلى أصحابها سواءً نشرت أم لم تنشر .
 - ٢ - يخضع ترتيب المواد لاعتبارات فنية وطبعاً .
 - ٣ - يرجى من كتاب المجلة التقيد بما يلي :
- أ - كتابة دراساتهم بخط واضح ومفروه ، أو طباعتها على الآلة الكاتبة .
 - ب - يجب ألا يتتجاوز البحث أو الموضوع عن ٢٠ / صفحة من صفحات المجلة .
 - ج - يجب أن يكون البحث أو الموضوع خاصاً بمجلة التراث العربي ..
وغير منشور في كتاب أو دورية أخرى .
 - د - كتابة تعريف وجيز بكتاب الدراسة ، يتضمن أبرز نشاطاته الأدبية والعلمية والمهنية .
 - ه - إرسال عنوان الباحث مع البحث أو الدراسة .

الاشتراك السنوي

دخل القطر	للأفراد	: ١٥٠ ل.من
في الأقطار العربية	د	: ٣٠٠ ل.من أو (١٥) دولار أمريكي
خارج الوطن العربي	د	: ٤٥٠ ل.من أو (٢٠) دولار أمريكي
الدواتير الرسمية داخل القطر	د	: ٣٠٠ ل.من
الدواتير الرسمية في الوطن العربي	: ٥٠٠ ل.من أو (٢٥) دولار أمريكي	
الدواتير الرسمية خارج الوطن العربي	: ٦٥٠ ل.من أو (٤٠) دولار أمريكي	
أعضاء اتحاد الكتاب	: ٧٥ ل.من	

■ الاشتراك يرسل حوالة بريدية أو شيئاً أو يدفع نقداً إلى : (محاسب مجلة التراث العربي) ■

المحتوى

ص

- دمشق .. في مطلع القرن العشرين نصراء بحرة ٧
- المؤلفات الطبيعية بلال الدين السيوطي د. محمد ذهير البابا ٢٠
- اللغة والمرفة في شعر كشاجم د. مسعود بوبيو ٦٠
- العرب .. يصنفون معارفهم بالشعر د. عادل الفريجات ٧٤
- العرب .. واحتراع البارود د. إحسان هندي ٩٤
- الخطابة السياسية في صدر الاسلام د. عدنان محمد احمد ١٠٩
- شينزار في التراث والتاريخ د. هاشم صالح منساع ١٣٦
- مصادر شعر عوف بن مطيبة بن الخزع د. إسلام بن السفي ١٤٨

دِمْشَق ..

فِي مَطْلَعِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ

نصر الدفين البحرة

هذا الكتاب « دمشق في مطلع القرن العشرين » الذي حققه على (في) جميل نعيسة ، يروي المؤلف أحمد حلمي العلاف هذا الخبر : « كان الطبيب الرسمي يستخدم لديه بعض الجنود ، فيمضي سنتين ، يخرج من بين يديه طبيباً أو جراحًا عند انتهاء مدة خدمته الإلزامية وعودته إلى وطنه وأهله . فكان في دمشق طبيب جراح مشهور يدعى « السر طبيب عثمان ياشا » فتخرج على يديه الكثيرون وتوزعوا في البلاد أطباء رسميون بآيديهم شهادة رسمية من يده ، يزاولون الطب والجراحة ويفتكون في الناس على غير هدى . »

هكذا اذن . إن الكاتب يعني في الصفحات التي خطها بتدوين التاريخ الاجتماعي للمدينة ، وكان المؤرخون « حتى القرن التاسع عشر يهتمون بالتاريخ السياسي فقط . ولكن منذ القرن الثامن عشر بدأ بعض المفكرين يوجهون انتظار الناس إلى نوع جديد من التاريخ هو التاريخ الاجتماعي الذي يهتم بعادات المجتمع وتقاليده ويهتم بالجماعة أكثر من اهتمامه بالأفراد . وهذا الكتاب يمثل التاريخ الاجتماعي لمدينة دمشق ، لكن مؤلفه لم يستطع إيهامه أو نشره لأسباب نجهلها » كما يقول الأستاذ نعيسة .

وكان الكتاب في الأصل مخطوطه بنسخة واحدة لا ثانية لها ، وجدتها المحق في مركز الوثائق التاريخية بدمشق ، وقد كتبها العلاف بخطه قبل وفاته

بفترة قصيرة . « ويبدو أن هذه المخطوطة كانت مسودة لكتاب لم يتح للمؤلف بإتمامه ، فقد جاء في آخر فصولها عنوان لفصل لم يتكلم عنه .

وصف كامل للدمشق وأهلها

هناك فصول كثيرة في هذا الكتاب تتناول وصف دمشق طبوبغرافياً وديموغرافياً وفولكلورياً . وهكذا فإن المؤلف وصف ثياب الناس في دمشق على اختلاف فئاتهم الاجتماعية ووسائل النقل والركوب التي استخدموها في مستهل هذا القرن ، وتناول بعديشه طقوسهم واحتفالاتهم ، من الأعياد والمناسبات الدينية ، إلى حفلات الختان والولادة والأعراس . وعقد فصولاً أضاف في الحديث خلالها عن الحياة الثقافية والنزهات والسهرات والملاهي . وفي الآن ذاته لم يحمل الشؤون السياسية ، فاستعرض واقع الصحافة في تلك الأيام وأنظمة الادارة في الدولة ، والقضية العربية .

وإن ما يجعل لهذا الكتاب أهمية استثنائية أن كثيراً من الصور التي يعرضها العلاف فيه « لم يبق منها اليوم سوى ظلال لا نكاد نلمعها إلا في بعض الأحياء القديمة ... سجلها المؤلف تسجيلاً حياً متعركاً يسمعني فيه الصوت والنسمة واللهمجة ، ويرينا الحركة واللون » كما يقول الأستاذ نعيسة في المقدمة التي وضعها لهذا الكتاب .

أربعة أطباء وكحّال !

لقد بدأنا هذا الحديث بالإشارة إلى واقع مهنة الطب كما كانت في مطلع القرن العشرين ، فلتتابعه اذن .

يقول العلاف : لم يكن في دمشق طبيب بالمعنى العلمي ، إنما كان أطباء نشووا على أساس التجربة الكسبية من رؤسائهم وملئيمهم ، غير مدربين لأية ثقافة علمية أو أية جامعة طبية ، فكان في دمشق جميها أربعة أطباء أو خمسة وكحّال واحد - أي : طبيب عيون - ولم يكن هناك طبيب جرّاح لأن الجراحية وطبابة الأسنان والعيون مجتمعة كانت داخلة في اختصاص الحلاقين ، فكانت تدخل دكان العلاق فتجد فيه أنواع المراهم والقناني الصغيرة ملائى بأنواع

الأدوية المراحية ، وإلى جانب ذلك ترى ساحبات الأسنان والأضراس معلقة في الجدار ، والماذل إلى جانبها . . .

ولم يكن في دمشق من المحامين الماذونين المختصين ما يتجاوز أصابع اليد الواحدة ، بل كان أكثرهم من أرباب العرف الأخرى ، تركوا مهنتهم الأولى نتيجة إفلاس أو كсад ، غالباً ما تكون لهم قضية مزمنة مرّت عليها مختلف الأدوار في المحاكم ، فانكسبهم ذلك المرونة الكافية ليصبحوا محامين أو وكلاء . . . وبقي الحال كذلك حتى عام ١٩٣٠ ، حين جرى التصنيف ، فخرج بعضهم وبقى بعضهم الآخر .

ويوضح الملاك أن القضاة أنفسهم في المحاكم لم يكونوا جميعاً أرباب اختصاص ، وكان يتخلل القضاة الماذونين من معهد الحقوق أعضاء آخرون يؤخذون بالانتخاب والانتقام . . .

صيدلية سليم فارس

ولكن ماذا عن المهنة العلمية الأخرى . . . الصيدلة ؟

يقول العلاف أن الصيدلة كانت معلومة تماماً في دمشق ومعصورة في حوانين العطارين ، وأقيم صيدلية عرفت في دمشق صيدلية سليم فارس في سوق البزورية ، ولم تكن « بشكل فني لأن الأطباء أنفسهم يطبوّبون » يعطون الدواء من عندهم، فإذا احتاجوا إلى دواء غريب أجنبي أمروا ذوي المريض أن يقترونه من صيدلية سليم فارس ، وأكثر الأدوية كانت تؤخذ من العطارين . . . « فكان المريض يشتري الدواء من العطارين ويركبه بنفسه في داره حسب تعريف العطار ، وكثيراً ما كان يخطئ بالمقادير فتسكب له أمراضاً مستعصية أو ازيداً في الأوجاع والأمراض . . . »

الناس جميعاً . . . مهندسون

الأطرف من هذا وذاك أمر الهندسة . . . الهندسة المعمارية ، فلا علم لأحد بها ، على حد تعبير المؤلف « لأن الناس جميعاً مهندسون بالفطرة . . . يستقل كل منهم بذوقه في إقامة داره أو دكانه مستعيناً بالبناء أو النجارة أو النحت ، وعلى الأسلوب الذي يختاره له ذوقه . . . »

وأما هندسة المياه والجسور والكهرباء والميكانيك والشعب الأخرى، فهذه لا تعلم دمشق لها وجوداً عندها .

والحكومة كانت أقل اهتماماً من الأهالي فيسائر المهن العلمية والفنية ، وما كانت تقيم لها وزناً ولا تفك في ناحية من نواحي الاصلاح المعلى أو العماني أو الثقافي في البلاد » .

كانت دمشق في مطلع القرن العشرين كما يقول أحمد حلمي العلاف تقسم إلى ثمانية أحياء ، كل واحد منها مقسم أيضاً إلى أحياء وحارات وأزقة، وهذه الأحياء هي : القنوات ، مئذنة الشعم ، القصاع ، العمارة ، سوق ساروجة ، حارة اليهود ، باب السريجة ، الميدان . ثم اتصلت الأبنية بقرية الصالحة أصبحت هذه من أقسامها الرئيسية .

ثلاثة أسواق كبرى

وكما يبدو فإنه لا يفصل دمشق الجديدة عن القديمة داخل السور . . . وإنما يعدها جميعاً كلاً واحداً يتم بعضه ببعض .

وفي المقابل ، فقد كان في دمشق ثلاثة أسواق كبرى تتفرع عنها أسواق أخرى ، وهذه الأسواق هي سوق الحميدية ، ومدحنة باشا ، والبزورية . . . وهي جميعاً منطقة بسوق مرتفعة لوقايتها من عوارض الشتاء والصيف .

وبعد أن يقدم حديثاً مفصلاً عن هذه الأسواق والأحياء ، يشير إلى المسألة السكانية في دمشق ، فيرى أن السجلات التي تركها الثمانيون ليست صحيحة نظراً لكثرة تلاعب الموظفين بها تحت « تأثيرات شتى » مما أدى إلىبقاء كثيرين من سكان دمشق مكتومين . إلا أنه مع ذلك يذهب إلى أن عدد سكان دمشق زهاء ثلاثة ألف نسمة ، بين فيهم المستوطنون كالآفغان والعمام والهنود والأرمن ووط والشركس الخ .

قنباز ٠٠ وعمائم مطرزة

ويصف العلاف ملابس الناس في مطلع هذا القرن فيقول إنهم يلبسون القنباز وعليه معطف رقيق ، ويلبسون عمائم مطرزة فوق الطرابيس . ويشرح

معقق الكتاب الأستاذ نعيسة معنى «القنباز» نقلًا عن د. حسن حمامي ، وهذا ينقل بدوره عن المؤرخ المצרי قائلًا : هو ثوب طوبل يصل إلى مشط القدم مفتوح بكليته من الأمام عريض من الأسفل ثم يضيق تدريجياً نحو الأعلى، ويُرْدَفُ الطرفُ الأيمن عادة فوق الطرف الأيسر ويفلق عند العنق بزر ظاهر .

ويوضح هذا الكاتب أن اختلاف وضع المامدة على الطريوش واختلاف القماش الذي صنعت منه يشيران إلى حالة لا يسبها الاجتماعية أو الدينية فقد يكون إماماً أو خطيباً لمسجد أو قاضياً أو مفتياً إلخ . وقد يكون تاجراً أو عاملًا حرفياً .

أما الناس العاديون فأنهم يضعون على رؤوسهم الطرابيش الممر . وفي الأغلب فأنهم يحرزون أو سلطهم بحزام عريض من الشال المقلم أو من القطن الأبيض أو الحرير . ويضعون بين الشال والقنباز الساعة المدللة من العنق بخط حريري أو قطني ، أو السواك ، وإلى جانب الظهر يعلقون البشكير . وقد يحتاجون لل موضوع أو لينتقل بعض الفواكه أو الخضر أو التفاح ، عند العودة إلى الدار .

أحذية مكشوفة وقباقيب خشبية

وكان معظم الناس يحتذون الأحذية المكشوفة إلا عند أصابع الرجل ، يحتذونها دون جوارب ، غالباً . ومنهم من كان يلبس القباقيب الخشبية في الشتاء . أما العمال وأصحاب المهن الشاقة فيلبّسون السروال الأسود الضخم يضيق عند كعبى الرجل . وكان المتوسطون والأغنياء ينتعلون الأحذية اللامعة ، وفي الشتاء كانوا جميعاً يلبّسون الجوارب الصوفية من صنع البلد .

وأما الصناع والعمال فيضعون على رؤوسهم الطاقية من نسيج ملون أو اللباده من الصوف أو الوبر المضغوط ، ويحرزون فوقها الكوفية أو المنديل أو قطعة قماش أخرى . ومن الناس من يختارون العقال الأسود فوق الكوفية ومعظم هؤلاء من الأرياف .

لباس الموظفين .. الفرنجي !

ويقدم العلاف صورة كاريكاتورية ساخرة للغاية عن لباس موظفي الدوائر الحكومية ، لكنها منتزعة من الواقع ، فقد كان «اللباس الأفرنجي» وهو جاكيت ، صدرية ، سروال ضيق وفوقه معطف في الشتاء . وكان الطربوش هو غطاء الرأس .. وكان هؤلاء يتباون في وضع بنود الساعات من جانب إلى آخر فوق الصدرية الضيقة في جيوبها ، ويضعون في أصافحهم الحواسم المختلفة ، وعلى أنوفهم أنواعاً مختلفة من النظارات الزجاجية «للدلالة على الانهك بالأعمال والأمور الرسمية الشاقة ، ووفرة المطالعة والدقة ، ولو كانوا في غنى عنها ، فيستوي في ذلك الشباب والشيوخ من ضعفاء البصر أو سليمي العيون .. »

« ويزيد على ذلك أنهم يتطيبون ويمشون في الأسواق في وقع خاص من خطواتهم ، وإذا تكلموا شمروا أنوفهم ، وتكلموا من جوانب أشداقهم بنبرات خاصة للدلالة على أنهم من الرسميين العظام .. »

أفندي .. وبك .. وخانم

« ويتميزون بكلمة : أفندي أو بيك غالباً ولا يرضون لنسائهم إلا الكلمة « خانم » مقرونة إلى الأسماء الحقيقة .. وكثيراً مايسخرون خادم الغرفة ليعمل لهم المتساع والخضر وحاجاتهم الأخرى إلى الدار ، أو يعمل صغارهم .. ويمشون أمام أو خلف السيدة في الأسواق ، ثم لا بد في غير الشتاء من أن يكون له عصا « باستون » ويكون رأسه مفضضاً أو مذهبًا حسب درجة مكانته في السرالي وكفأاته المالية .. »

وحين يسير هؤلاء في الأسواق « ينطرون يمنة ويسرة بكميراء كأنهم أغраб ويرمون الناس بجوابن أحداهم ، وإذا تكلموا فبرؤوس أنوفهم وكلمات متقطعة ونبرات ملؤها الكبارياء والصلف ويتحاشون غالباً كثرة الكلام لئلا يصبح بينهم وبين الناس نوع من التودد وعدم الكلفة .. »

في تلك الأيام لم يكن في دمشق من وسائل النقل سوى عربات تجرها الخيل ، وكان مقرها في ساحة المرجة « حيث تقف إلى جانب الشرقي تحت ظلال شجيرات الصفصاف حول حوض ماء مرتفع قليلاً .. » وكان بعض بيوت الشراء في دمشق عربات خاصة بهم « يمتطونها في روحاتهم وغدواتهم وسيرانهم .. »

والحمر البيض للنقل

وكانت هناك واسطة نقل أخرى يجدها الماء في سوق التيل حيث أعدت الحمر البيض للنقل « ومن علاماتها تلوين ذيلها باللون الأحمر لتعرف بأنها من المير المعدة للايجار » وكانت العادة أن يذهب وراءها أحد السعاة التابعين لأصحابها ، وببيده عصا أو سوط ، فيركض جرياً على قدميه ، حتى إذا بلغ الراكب ' المكان المقصود ، عاد الساعي بالحمار إلى صاحبه ٠٠ ويعود راكباً هذه المرة ٠

٠٠٠ وأما الأسفار خارج المدينة ، نحو المدن البعيدة ٠٠٠ فقد كانت واسطتها الدواب أيضاً ، لكنها كانت تجري في قواقل ٠٠ وعرف أيضاً المنتور وهو كما يذكر العلاف « بشكل سيارة او توبوس كبير نجره الدواب على مراحل بين دمشق وبيروت وسوها ، وفي كل مرحلة قصيرة تتغير الدواب إلى أن ينتهي المسافر إلى مقصوده » ٠ ويشير هذا المؤرخ إلى الخط المديدي المجازي الذي مد في أوائل هذا القرن ، لكنه لم يلبث أن حطمته معارك الحرب العالمية الأولى ٠

قصة الأمن المفقود

من جانب آخر فانه يقدم صورة في منتهى البؤس لرجال الأمن في ذلك الزمن ، ذاك أن الأمن كان مفقوداً إلى درجة أن السلطات الاجرائية الحكومية انتقلت إلى وجوه الأحياء وختاريها « دفماً للشروع ولحمل الناس على احترام الحقوق » ٠ وكانت تؤلف في كل حي هيئة من وجوهه والمتنددين فيه ، هي « بمثابة المجلس الاداري والقضائي والتنفيذي ، بالنسبة إلى أفراد الحي » ٠ « أما قوى الأمن الحكومية والسلطة الاجرائية الرسمية ، فمكلفة بصيانة نفسها وحفظ الأماكن التي تسكنها : تفتح أبوابها نهاراً لبعض المراجعين ، فإذا كان وقت الفروب أوصدوا أبواب المخافر وسكنوا إلى أسرتهم ومضاجعهم لا يبالون بما حدث وبما يحدث » ولا يجرؤون على الخروج من أماكنهم في الليل ، وخاصة في جوانب المدينة ٠ « وكان هؤلاء يعرفون باسم الضابطية » ولكن الصاد كانت تلفظ ظاء ، وبدهي أن هؤلاء هم رجال الشرطة ٠٠٠ يومذاك !

« وإذا كان للحكومة طلب من أفراد المي استعانت بالمحترف على استيفاء حقوقها من ضرائب أو تجنيد أو شكوك صادرة من إحدى المحاكم . »

عندما يتخاصم حيان

وكان الطابع العشاري يميز العلاقة بين الأحياء ، حتى إذا دخل فرد من حي حي آخر ، عرفوه على الفور و Mizroh ، فإن كانت بين المقيمين صداقه أكبر منه ، وإن كانت خصومة أوسعه ضرباً و طرده ٠٠٠ وهكذا حتى يكون صلح بين المقيمين ، على يد حي آخر محايده أو أكثر ٠٠٠ وعندئذ تقام المهرجانات وينزل المحيان المتخاصمان ضيوفاً ثلاثة أيام عند وجوه المي الذي فقد المصالحة .

أما الأعياد التي كان الناس يحتفلون بها في دمشق، كما يروي العلاف، فقد كانت محصورة في الأعياد الدينية: الفطر، الأضحى، المولد النبوى، وهلال نصف شعبان ٠ ويدهب الناس في هذه المناسبات إلى المساجد بأفخر ما لديهم من الثياب والزيينة ، وبعد الصلاة يصافح بعضهم بعضاً ويتبادلون التهيات والتلئيم بالعيد. وقبيل قدوم العيد بيومين كانت أحمال غصون « الأس » تصل إلى دمشق وتنشر في الشوارع والأسواق حزاماً صغيراً وكبيرة ، كما هو الحال الآن ، فيشتريها الناس صبيحة العيد ، حين يذهبون قبل بزوغ الشمس لزيارة قبور موتها ، فيضمنونها عليها .

الأولاد ٠٠ في العيد

ويقدم العلاف وصفاً لما يفعله الأولاد أيام الأعياد، نلاحظ خلاله أن حفاظ هؤلاء الصغار بهذه المناسبات لم تختلف في هذا الزمن ، عنها في مطلع القرن العشرين ، فان الأولاد كانوا يجوبون الأسواق بأفخر ثيابهم فيشترون ويفرخون ويطلقون المفرقات ، ويتناولون أطعمة خاصة على كراسٍ واطئة أيام المناضل ، كالفول المسلوق وكان يسمى « نابتًا » . وكان بعض الناس يحضر بعض الضياع أو الوحش الأخرى فيضمنونها في الحوانين ويقف من يضرب الطبل داعياً الفلمنان أن يدخلوا ليشاهدو عدو الإنسان .

٠٠٠ يركب الأولاد الآن بعض السيارات في الأعياد، ولا سيما الشاحنات الصغيرة المصنوعة في اليابان ٠٠٠ وفي مطلع القرن كانوا يركبون الممبير والمربات المجللة بالطنافس أو الخيول أو الهاوداج ٠٠٠ على الجمال .

الأراجيح ما زالت هي نفسها ، وإن اختللت أشكالها وتقنيات صنعتها .

وداع شهر رمضان

وكان المكورة المحلية في دمشق تطلق المدافع في اليوم الأخير من رمضان أيداناً بانقضاء الشهر ... ومنذ ذلك كانت تقوم في المساجد الاحتفالات بوداع رمضان ، مثلما يحدث في نهاية القرن العشرين ... هذه الأيام ، ويأخذ المؤذنون يلعنون عبارات الأسف والمزن على فراق رمضان .

... وما برح بعض المسرحيين يعملون في بعض أحياء دمشق في رمضان ... حتى الآن ، والمسحر هو الذي يطوف على البيوت في شهر الصوم قبل الفجر بساعتين وبيده طبلة صغيرة يضرب عليها ويقرع الأبواب . منادياً صاحب كل دار باسمه ، كي يصحوا من نومه ، ويتناول طعام السحور هو وعياله استعداداً لصيام نهار طويل . وكانت للمسحر جولة أخرى ، ولكل حي كان مسحر ، صبيحة العيد يتقبل خلالها أعطيات الناس الذين تطوعوا بايقاظهم بعد منتصف الليل طوال رمضان .

طقوس ٢٠٠ عيد الأضحى

ولم تكن احتفالات الناس بعيد الأضحى لتختلف عنها في عيد الفطر ، سوى أن الميسوريين كانوا يقدمون الأضاحي ، وهي من المزارات المذبحة على أن يوزعواها قبل صلاة العيد .

« ومن ظواهر هذا العيد أن يزحف أهالي دمشق إلى حي الصالحة ، ويصعدوا إلى البيل - أي قاسيون - بعد عصر يوم الوقفة ، ويلبون كما يلبون المجاج في جبل عرفات . » والخلاف يورداً قوله « مختلفة في تفسير الصمود إلى قاسيون ، على أن أجدرها بالاعتبار أن الصالحة بما تضمه من أضرحة قديمة ومزارات ومدارس ، كانت جديرة حقاً بالتقديس . »

وفي جمعة الشهر الهجري « رجب » كان الناس يقصدون حي الصالحة أيضاً ، قبل حلول صلاة الظهر ، فيزورون الكهف المشهور هناك ، والأربعين وضريح ذي الكفل عليه السلام وبقية الأضرحة .

... وفي اليوم السادس والعشرين من هذا الشهر ، أي رجب ، يجتمع الناس في المساجد والدور لسماع قمة المعراج الشريف

شعبان ٠٠ وليلة النصف

وإذ يقبل شهر شعبان ويقترب من منتصفه ، فإن الناس يأخذون بمراقبة ظهور هلاله لتحديد ليلة النصف منه . وكانوا يصومون غالباً سعاية نهار ذلك اليوم ، وبعد صلاة المغرب يجلسون في المساجد أو في البيوت ٠٠ مع عائلاتهم لقراءة دعاء نصف شعبان .

٠٠ وإذا دخل شهر محرم « عم المزن دور المسلمين كافة ، لأن هذا الشهر يحمل معه ذكرى فاجمة كربلاء » .

وكان الحسين بن علي بن أبي طالب قد استشهد في العاشر من شهر محرم

سنة ٦٠ للهجرة ٠٠ ☆ ☆ ☆

بين المناوين الكثيرة التي وضعها المؤلف في هذا الكتاب ، هناك عنوان كبير بارز هو « المراسيم » وتحت هذا العنوان تحدث عن كثير من المظاهر الاجتماعية والدينية والثقافية في دمشق ، فهناك سوى المراسم الرسمية والدينية السالفة مراسم أخرى ، كالختان والجنديبة والأعراس والولادة والأذكار إلخ .

وفي مراسم الجنديبة ما هو جدير بالتوقف عنده ، ذلك أنه يشير إلى الفساد الإداري الذي تقضي في المؤسسات الحكومية في تلك المرحلة من تاريخ السلطة العثمانية . ويوضح الجانب الطبيعي في مسألة سوق المجندين إلى القناعة .

يقول العلاف : « إذا بلغ الشاب العشرين من عمره ، فقد دخل في سن الجنديبة الازامية ، فتعمد الحكومات المعلية إلى اصدار جداول للأحياء تعوي أسماء من تشملهم الخدمة الازامية ، فتعلقها في الساحات العامة أو مكان المجتمع العام عادة ، وإلى جانب أبواب مساجد المدينة ، ويقوم كل مختار باستدعاء الطبال ليطوف الأزقة والماراثن ضارباً على الطبل ، ليسهّل عليه تبليغ أوامر الحكومة لأفراد حيته » .

من قصة البدال

ويعرف المختار جيداً تلك الأمر التي تستطيع دفع الأموال لتنسلخ من أبناءها من السوق ، فيتفق معهم على مبلغ معين ، ويدفع عوضاً عن ابنهم المدلل شخصاً مسكيناً ليس له من يدافنه عنه .

ويفصل الكاتب ما يجري وقت معاينة الجنديين طبياً ، ذلك أن الأطباء العثمانيين كانوا « يتربون من يشترون أنفسهم بمبالغ معينة » أما الآخرون

فانهم يدخلون الجنديه حاملين آلامهم وأوجاعهم . « ولذلك كنت ترى أبناء الأغنياء وهم أقوىء الأبدان يسرحون ويرحون ، ولا يذهب غالباً إلى الجنديه سوى المرضى والمعيلين وأرباب العاهات من ليس لهم شافع » .

البحث عن زوجة صالحه

وتجيء الأعراس في جملة المراسم التي يحدثنا عنها العلاف . فمئنداً يبلغ الشاب الثامنة عشرة ، ويكون من أسرة تستطيع أن تدفع بدل الجنديه ، أو يكون قد أتمَ خدمته الالزامية ، يبدأ أبواه بيعثان له عن زوجة صالحه . فيتذاكران في من يعرفانه من الأقارب ، فإذا لم يوفقا .. ذهباً أبعد .. وعندئذ تبدأ رحلة البحث عن الخطيبة ، فتدبر أم الشاب وبعض قريباتها الى دار معينة ، كنْ قد علمن أن فيها صبية يمكن أن تعجبهن .

وفي الدار المقصودة تدير المرأة الأكبر لعبة امتحان الفتاة ، على نحو علني ، فتطلب اليها أن تأتيها بكأس ماء ، وإذا تجاء الصبية بها ، تشاهد الخطيبة مشيتها وطولها وصحتها .. وسلوكها .. وقد تربت على كتف الفتاة إذا أعجبتها وتقبل فمها تقبيلاً حاراً « لتفحص نفسيتها » ولتعلم إن كانت تدخن .. أم لا ! وحين يكون شيء من القبول ، يبدأ الطرفان يسأل كل منها عن الآخر .. فإذا كان القبول تاماً .. دخلت الخطيبة مرحلة جديدة .. وذهب والد الخطيب مع بعض ذوي الزيارة والد المخطوبة .. فيجتمعون ويتبادلون الأخاديث .. ثم يقتربون من المناسبة ، ويتفقون على المهر وترتيبات الزفاف .

المهر .. وعقد القران

إن نفقات العرس كاملة يدفعها العريس وأهله عبر المهر الذي يدفع بعضه مقدماً استعداداً لاجراء حفلة العقد .. والانفاق عليها ..

لقد كان نظام ارسال بطاقات الدعوة معروفاً منذ تلك الأيام .. وثمة بطاقات لحفل عقد القران ، وبطاقات لحفل العرس الكبير .. على أن تتم المهر تدفع الى أهل العروس عقب عقد القران مباشرة ، فيخرج والد الزوج « من

جيبي كيساً فيه المهر ويعده أمام الحضور، فيتسلمه والد الزوجة أو وكيلها بحضور مشاهدة الجميع ». « وقد يصادف أن يحضر العريس العقد ولكن ذلك كان نادراً ، كما أن إلباس خاتم الخطبة ، كما هي العادة اليوم ، والاجتماع إلى الزوجة كان ممنوعاً منها باتفاقه ويعذر لذويهم من المعيقات والكبار ، إذ لا يجوز له أن يرها إلا ليلة الزفاف » .

من تقاليد ٠٠ العرس

٠٠٠ وهنا يأخذ أهل العروس في تجهيز ابنتهن ، فـ«أها» تشتري لها ملابس العرس وتبادر بخياطتها ، ووالدها يعرض الأمر على أحد المتجمدين ٠٠ من أجل إعداد الجهاز الذي سيملأ منزل العروس ٠٠ وهو ما نسميه اليوم غرف النوم والضيوف والمعيشة ٠٠ من المخدات والمرآة والستائر إلى البيرو أو «الصندوقي» وأنواع الغرز ٠٠ الخ ٠٠ وقبيل حفل العرس يكون حفل «الختاء» فتعتني العروس يديها وقدميها هي وصديقاتها ٠ ثم تذهب النسوة من قريبات العريس والعروس إلى العمام بدعوة من أم العروس ٠٠٠ وفي هذا اليوم يعجز العمام كله لهذه المناسبة فلا يدخله إلا المدعوون ٠

ومن جانب آخر يستعمل العريس أيضاً مع بعض أصدقائه في حمام السوق ثم يلحق حلقة العرس ٠٠٠ ثم يقصد دار أحد الأقرباء لإجراء «التلبيسة» وهنا يرتدي العريس ثيابه الجديدة ٠٠ ويخرج في موكب كبير منظم اصطف فيه الرجال في عراضة منتظمة تضيء الفوانيس فيها الطريق ، وتلوي هتافات وأهازيج الرجال ٠٠٠ واذ يصلون إلى دار العريس يودعونه بالأهازيج ويمضون ٠

« حق الشعر » ٠٠ ليلة الزفاف

هناك سلسلة من مراسيم العرس يعرض لها العلاف بالتفصيل ، منها مثلاً « حق الشعر » وهو مبلغ من المال يقدمه العريس لعروسه ليلة الزفاف ٠٠ بعد أن يخلو إليها فهو يبادرها بكلمات مألوفة « وتبقى هي صامتة خجلاً ثم يداعبها قليلاً حتى تنفرج أساريرها ، فيقدم لها بعض النقود أو قطعة مجوهرات . وتبقى هذه الأفراح أسبوعاً كاملاً » .

وعند الصباح « يخرج العريس والده إلى السوق ويستبعض بعض حاجيات

نسائية من جوارب ومعارم وعطور وأشباهها وتسمى هذه «الصرّة» فيعود بها إلى الدار مع قطعة من المجوهرات . . فيسلم ذلك إلى العروس . .

.. ولكن قبل ذلك . . وحين يصل موكب العروس إلى البيت الذي سيصبح منزلها يبدأ احتفال خاص كانوا يسمونه «التفتيلة» تنفرد فيه إحدى المغنيات فنقول بصوتها المنذب كلاماً تردد النساء المدعوات ، وهن يطفن ببطء حول باحة الدار . . . من ذلك مثلاً قولها :

يسعد صاحك يا فلتة افرينجية .
يا ورد على أمه يا خلقة إلهية .
ما أهوى بدارك ولالي من أحد نيتة .
لو قدموا لي بدارك من الألف للمية .



يقدمُ أحمد حلمي العلاف ، في هذا الكتاب ، لمحَّة عامة سريعة ، عن الكيفية التي كان الناس يضون فيها ليالي رمضان بعد الافطار . .

في ليالي رمضان

والواقع أن الكثرين منهم كانوا يقصدون المقاهي بعد الافطار ، وكانت منتشرة في دمشق انتشاراً واسعاً ، فكان في الحي الواحد مقهيان أو ثلاثة على الأقل . يجلسون فيها يشربون القهوة والشاي ويدخنون النargile ويلعبون الضومنة . . أو الورق أو الشطرنج ، ويستمرون في الوقت ذاته إلى العحواتي أو المغایل ، وهو نفسه لاعب خيال الظل أو الكركوكاتي . . كما كان يدعى في الأغلب . . .

ولم يكن ضروريًا أن يكون في كل مقهى حكواتي أو كركوكاتي . . إلا أن بعض المقاهي كانت تسمى لأن تستدعي أحدهما في شهر رمضان . . خاصة أن الرواد يكثرون بعد الافطار . .

خيال الظل . . في الذاكرة

المرة الأولى التي شاهدت فيها كركوز . . تعود إلى سنوات الطفولة الأولى . وكان ذلك في شهر رمضان أيضاً . كما مقيمين يومذاك في أعلى حي المهاجرين،

وقد شاء أحد الفتياً أن يجرّب حظه في هذا المجال ، فنصب الخيمة المعروفة في ساحة كانت مكشوفة في العي . . . ولاؤذكر إن كان قدّم عروضاً أخرى بعد تلك الليلة من رمضان . . لكن العادث بقي في الذاكرة . . لأنه كان جديداً وطريفاً في عيني طفل لم يتجاوز عمره خمس سنوات .

. وبعد أن انتقلنا للإقامة في بيتنا القديم في دمشق القديمة ، أذكر أنني كنت أذهب في رمضان ، مع أخي الأصغر ، لشاهد عروض كركوز بعد الافطار في مقهى حي العمارة . وكان موقنه في جوار الباب التاريخي المشهور والمعروف باسم « باب الفراديس » .

ولم تمضِ عدة سنوات حتى كان أحد أقربائنا في العي « متذنة الشعم » قد استاجر مقهى ، وفي شهر رمضان استدعي واحداً من لاعبي خيال طفل اسمه أبو عزة الكركوزاتي . وفي الحقيقة فإن هذا كان آخر عهدي بخيال الطفل . وفي ما ذكر فإنه كان عام ١٩٤٨ .

كره كوز ، عواطف . . في الخيمة

على أن العلاف إذ يتعدّث عن الملاهي في دمشق يقدّم وصفاً كاماً لما يسميه « حفلات كره كوز » ، ولنسمعه يقول :

« يجعل اللاعب خلف ستارة وأمامه منضدة وهذه الستارة تسمى خيمة كره كوز . ويضرب المثل بوهنها لأنها تربط عادة بالخيطان . يجعل اللاعب خلف المنضدة وبهذه علة قضبان رفيعة وطويلة ، ينتهي رأس كل قضيب بقطعة من الكارتون الملون بشكل رجل ، ولباسه وهندام خاص ، له مفاصل ليديه ورجليه ، أو بشكل امرأة أو طفل . وأمام اللاعب بعض الشموع مرصوفة إلى جانب بعض . فإذا مدد القضبان المتهية باشكال الأشخاص والنعيم المذكورة ، أنشأت خيالاً على الستارة بالشكل المثبت على رأس القضيب .

ومن أسماء تلك الدمى الشهيرة : كره كوز ، عواطف ، مدلل ، ضابطية . . فإذا أراد اللعب يبدأ أولاً بأنفاس خاصة ، والسامعون كلهم في المقهى ينظرون ويسمعون . وهو وخيمته إلى زاوية من جوانب باحة المقهى . ينظرون إلى الخيالات المرتسمة على ستائر . وبعد النفاء يقص قصة ويزرع الأشخاص كائناً هم يتكلمون ويتنقلون ، فهو بذلكأشبه بالسينما الناطقة .

وينتقل الكاتب إلى الحديث عن فن اللاعب وقدرته على تعريikh الأشخاص المتعددين وتقليل أصواتهم ، واحداً واحداً ، بحيث يوهم المترجين بوجود حياة كاملة وراء ستاره ، فيقول :

ومن براعة اللاعب مهارته في تغيير لهجاته وصوته على حسب القصة التي تدور بين أشخاصها ، فيبرز كرمه كوزمتكلما عنه ، ويغاطب عواطف ويغاطب أشخاصاً خيالية كثيرة ببراعة ممتازة ، بينما هو يستغل وحده بمفرده ، ويعرك الدمي بمهارة فائقة ، فيكون من نتيجة تلك الخيالات التفصصية بعض الماعظ والحكم ... والناس ينظرون ويضعون .

الحكواتي .. والتسليه في رمضان

وكان للحكواتي دور كبير في التسلية في ليالي رمضان .. في مطلع هذا القرن، وقت كانت الأمية متفشية ، ولم يكن الكتاب منتشرأ .. ولا كانت وسائل الثقافة والتسلية العديدة كالاذاعة والتلفزيون .. قد دخلت البيوت .. فان كثيراً من الدور ظلت في دمشق نفسها حتى الخمسينات عرومة من نعمتي الماء والكهرباء .. فكان الناس يتجمعون في ليالي رمضان ، في منزل وصلت إليه الكهرباء .. فكان فيه راديو .. وما زلت أذكر تنقلات الناس ، في حينها في رمضان .. من منزل إلى آخر .. وكانت السهرات تتواصل وتستمر حتى يقترب موعد السحور .. وخلال ذلك فقد كانت تقوم ألساب ، ويشترك فيها الساهرون جيئاً .. لعل أشهرها لعبة «عروستك» ..

يقول العلاف في وصف هذه اللعبة : ينفرد أحدهم إلى جانب ، ويتفق الجميع خفية على شيء معين بينهم ، وعندما يعود يسألونه واحداً واحداً ملتفزيـن ، عن الشيء المقرر بينهم حتى يدركه ويعرفه تماماً .. فمثلاً لو كان المقرر بينهم «المقص» فيسألـه أحدهم قائلاً : عروستك بتقطع وبتلعش ، فيقول بيـدورة مثلاً : «سـكـين» .. يقولـون له : لا .. يـسـأـلهـ الثانيـ ويـقـرـبـ للـفـهـمـ: عروستك لها نـابـان طـوـيلـانـ ، أوـ : عـروـسـتكـ أـذـنـاـهاـ مـلـتصـقـتـانـ بـفـكـيهـ .. أوـ عـروـسـتكـ صـلـبةـ مـثـلـ الـحـدـيدـ .. أوـ : عـروـسـتكـ .. لـسانـهاـ بـشـطـلـينـ .. فـاـذاـ عـرـفـهـاـ قـامـ مـقـامـ الـمـسـؤـولـ الشـخـصـيـ الـذـيـ أـوـضـعـ لـهـ فـرـفـ .. وهـكـذاـ .. ثـمـ يـقـومـ

٠٠ ويظل اللعب دائراً ، وربما انتقل الساهرون من لعبة إلى أخرى ، حتى يدوي في الفضاء ٠٠ صوت المدفع الأول ٠٠ معلنًا اقتراب موعد الامساك ٠

مراسم استقبال رمضان

ربما تغيرت مراسم استقبال شهر رمضان المبارك الآن عنها في مطلع هذا القرن ، ولكن العلاف يتناول هذا الموضوع في صفحات تناولت بين جنبات الكتاب ٠ و تستطيع الذاكرة أن تضيف إليها ، بعض ما استطعنا أن ندركه ، ونحن أطفال في سنوات الأربعينات ٠ ويمكن القول إن بعض الفئات الاجتماعية الميسورة ، إضافة إلى كثيرون قاطنوا الأحياء الشعبية في دمشق وسواها من مدن سورية ، ما يزالون يعيشون مراسيم هذا الشهر الذي تنزلَ فيه القرآن الكريم ، مثلما وصفها مؤلف هذا الكتاب ٠

إنه لا يشير إلى التقليد القديم المتبع في أكثر الأقطار الإسلامية ، إذ يتمنى الراديون هلال رمضان ، بل يكتفي بالتنويه بأن الناس يحافظون على بداء شهر الصوم لدى سماعهم أصوات المدافع ، وهذا ما يسميه الناس : الآيات ٠

يوم عشا صائم

يقول حلمي العلاف : عندما يتحقق انتهاء شعبان المبارك ، يقوم الناس عشاء ذلك اليوم بصلة التراويح في المساجد ، ويهيئون طعام السحور من غروب شمس ذلك اليوم بعد أن يسمعوا أصوات المدافع بإيداتها بحلول شهر رمضان ٠ ويسمى الناس آخر غروب نهار من شعبان « يوم عشا صائم » فتختلف أوقات العمل بالنسبة إلى الصائمين ، فإذا كان وقت العصر انتهت الأعمال الرسمية بالنسبة إلى الموظفين ، وكذلك بعض التجار وأرباب الصناعات الأخرى ، والشاقة منها ٠ وبعد صلاة العصر يصنفون إلى تدريس فقهاء المساجد ويستعملون عمّا يفسد الصيام ، وعمّا ينبغي عمله من الغير والاحسان ٠

ثم يتابع وصفه لما يفعله الناس في أول يوم من رمضان ، مما سيكررونه باستمرار طوال أيام هذا الشهر فيقول إنهم بعد صلاة العصر « ينفضتون إلى السوق فيهيئون طعام الإفطار ، وما يتخلله من بهارج بالنسبة

لواسم السنة من فواكه وأكول مختلفة . وكثير من الرجال يشرفون على إعداد طعام الافطار بأنفسهم ، أو يزازرون نسائهم قصد المعاونة والتسليمة » .

« فإذا سمعوا طلقة المدفع جلسوا حول المائدة وقرأوا أكبיהם أو رب الدار الدعاء الآتي :

اللهم لك صمت وبك آمنت وعليك توكلت . اللهم انك اعنتني فصمت ورزقني فافطرت . نهبت القلما وابتلت العروق ، وحصل الأجر باذن الله » .

... ثم يباشرون الطعام ، فإذا انتهوا قاموا إلى صلاة المغرب في دورهم أو في المساجد القريبة . وظلوا كذلك إلى ما بعد أداء صلاة العشاء والتراويح . ويعودون إلى بيوتهم الخاصة وسهراتهم وسمرهم مع ذويهم أو أصحابهم » .

المسحر قبل الافطار وبعده

ويبين التقاليد الاجتماعية التي كانت سائدة في رمضان وأدركتها جيلنا طواف المسحر على الدور قبل الافطار بساعة، يضرب على طبلة فيخرجون إليه مختلف الأطعمة فيضمها في زنبيل ، أي وعاء طويل ، ولديه صحف فارغة أخرى يملؤها طعاما ، ويعود بها إلى داره ، فيتناول منها كفايته ، ويوزع البقية على جيرانه الموزين .

ويتعدد جمال الدين القاسمي عن المسحر في قاموس الصناعات الشامية فيقول : هو من يوقظ الناس لتناول السحور في شهر رمضان . يدور على البيوت قبل الفجر بساعتين وبيده طبلة يضرب عليها بجلدة ، ويتنفس بأقوال مختلفة ، فينبه أصحاب البيوت ، وكل محلة لها مسحر مخصوص بها حين دخول وقت السحور ، فينبه أصحابها ، ويدور عند الفروض على أصحاب تلك الدور فيعطيونه من فضل طعامهم .

ويذكر العلاف أن هذا المسحر ، يطرق الأبواب ، منادياً صاحب كل دار باسمه ، كي يستيقظ ويوقظ أفراد أسرته لتناول طعام السحور ، وخلال ذلك يقول : يا نايم وحد الدائم . أو : يا نايم وحد الله . قل لا إله إلا الله .

على أن شهر رمضان المبارك ، ليس هو الشهر الوحيد الذي يصومه الناس في

دمشق ، فان بعضهم كان يصوم شهرين قبله : رجب وشعبان وهذه متالية هي الأشهر الثلاثة التي تسبق عيد الفطر .

ولكل شهر طعام خاص

على أن الأكثرين يحتفلون بالسابع والعشرين من رجب ، وبنصف شعبان وبليلة السابع والعشرين من رمضان . ولكل يوم عندهم من هذه الأيام دعاء مأثور ، ولكل شهر طعام خاص .

أما السعور ، فان الناس يقومون له قبل أذان الصبح ، فيتناولون المفيف من الطعام وهو نفسه ما يسمى : السعور . وينتهي وقته قبيل أذان الصبح ، اذ يسمى : وقت الامساك ، فيمسك الجميع عن كل ما يدخل الفم من غذاء أو ما يسبب افساد الصيام . او الافطار . كما أنهما يمسكون عن اخراج فواحش الالفاظ . ويبقون كذلك الى غروب اليوم التالي .

في كتابه الجميل « حديث دمشقي » ، وفيما كان يتعدّث عن احتفالات الناس في دمشق بالأعياد ، وأساليبهم المختلفة في المعايدة ، أي تقديم التحيّة والتنهئة بقدوم العيد ، يتناول الأستاذ نجاة قصاب حسن أسلوب إرسال بطاقات المعايدة ، وخلال ذلك يروي العكاية التالية ، فان أحد الوجاهـ قال لمرافقه : هات « الكروت » لنعايد . ثم ذهبـا . وكان يوعز للمرافق أن يصعد إلى كل منزل من منازل أصحابـه فيدق الباب ويناولـهم « كرتـا » . وهكذا فلم تمر بضع ساعات ، حتى سـأـل الـوجـيـهـ مرـافقـهـ أـخـيـراـ : كـمـ كـرـتـاـ بـقـيـ معـكـ ؟ فـقالـ : الأـصـ السـبـاتـيـ . وـنـظـرـ الـوـجـيـهـ فـوـجـدـ مرـافقـهـ لمـ يـفـهـمـ عـلـيـهـ المـصـودـ وإـنـاـ أـخـدـ « كـروـتـ الشـدـةـ » أـيـ : وـرـقـ اللـعـبـ . وـكـلـمـاـ دقـ علىـ بـابـ أـعـطـاهـمـ كـرـتـاـ مـنـهاـ ، عـلـىـ حـسـبـ حـظـهـمـ . وـتـرـكـ « الأـصـ السـبـاتـيـ » لـلـآـخـرـ .

آخر عشرة أيام ٢٠٠ من رمضان

وعلى الرغم من أن أسلوب المعايدة هذا ، هو في غاية اللطف والابتناء عن الكلفة ، فان الأستاذ قصاب حسن يلاحظ أن اللجوء إليه قد حفـ في الوقت العـاـضـرـ ، وكـادـ العـيـدـ يـتـحـولـ إـلـىـ آـيـامـ رـاحـةـ فـقـطـ وـ«ـسـيـارـيـنـ»ـ خـارـجـ المـدـيـنـةـ . عـلـىـ حـينـ كـانـ النـاسـ يـسـتـعـدـونـ لـأـيـامـ الـعـيـدـ فـيـ الـأـيـامـ الـعـشـرـةـ الـأـخـيـرـةـ مـنـ رـمـضـانـ .

البارك . وكانوا قد قسموا هذه الأيام في ثلاثة أقسام : عشر المرق . وفيه يهبون لأسرهم وقت الافطار صنوف الطعام . وعشر الغرّق ، وهو الأيام العشرة التالية من رمضان ، وفيها يجهرون الألبسة الجديدة . أما العشر الثالث ، فكان يدعى : عشر الورق . وخلاله يأخذ الناس بتحضير حلوى العيد بأنواعها المختلفة .

إن أحمد حلمي العلاف يفصل الحديث كثيراً عن أصناف الحلوي التي كانت تعضر في البيوت وتخبز فيها أيضاً .. أو ترسل إلى الأفران لخبزها هناك ..

على أن الفئات الفنية كما يقول كانت تستحضر العلوى حاضرة جاهزة للأكل ، من ذلك مثلاً : كلّ واشكـر . بقلـوة ، كنـافة مبرـومة . أصـابـع قشـدة . صـرـر . شـعـبـيـات .. الخ ..

الدعوة إلى طعام العيد

ومن العادات المألوفة ، ما لاحظه العلاف من أن المترفين يدعون لطعام العيد الذي يكون بعد أداء صلاة العيد . فهم يدعون بعض ذويهم من المسررين فيتناولون طعام العيد على سفرة واحدة . كذلك رؤساء العرفة ، يدعون صناعهم وأجراءهم إلى طعام العيد ، ويعطونهم فوق ذلك بعض المال ويسمونه : « عيدية » وكانوا يفرحون بها .

وهناك تقليد ما زال متبعاً حتى الآن ، مما ذكره الكاتب ، فإذا عاد أحد الأصحاب أو الأقارب أصحابه أو أقاربه ، كانوا يقدمون له العلوى أو الملبيس . وعند خروجه يعطي صنار صاحب البيت قليلاً من المال ، يكون قد هيأه في جيده لهذه النهاية قبل زيارته .

من طقوس العيد

على أن للعيد وجهاً اجتماعياً آخر في دمشق ، يتمثل في زيارة قبور الأقرباء الذين مضوا للقاء وجه ربّهم ، يقول العلاف :

« فإذا كان قبل العيد بيومين ، تَفِيدُ حمَالٍ غصون « الآس » إلى المدينة

وتنشر في الشوارع والأسواق حزمًا صغيرة وكبيرة ، فيقبل الناس على شرائها ويهبئونها لزيارة موتها م صباح أول يوم العيد ٠٠ قبل بزوغ الشمس ٠٠٠ ويوم الوقفة كنت ترى « كل حانوت إلى جانبيه أكياس الأرز والسكر وصحف السمن الفاخر ، وعليها شتى الزهور الملونة » . كما يهبيء الباعة « شتى أنواع السكاكر وأدوات التسلية » : وخلال أيام العيد ، يقبل الأولاد بأغلى ملابسهم وي gio بون الأسواق ، فيشترون ويفرحون ، ويطلقون المفرقعات ويركبون العمير المعدة للتنقل في مسافات قصيرة ، والعربات المجلّلات بالطنافس أو الحيوان أو الهوادج . . . أو يركبون القلابة ذات الأسرة الأربعة فتدور بهم دورات عورية ، أو الدوينات ذات الأسرة المتنوعة الأشكال والخيول المطهمة المصنوعة من الخشب . . .

وكان الأولاد ينقدون أصحاب هذه الألعاب قطع الدر衙م الصغيرة كالنحاسة أو أم الغمسة أو المليك . . . وهي أنواع من النقود العثمانية التي كانت تستخدم في أوائل هذا القرن . . .

تمديد أيام العيد

ويفصل العال夫 العديث ، حول كيفية احتفال الأولاد في الشوارع والساحات في العيد . . . ويستعرض أنواع الطعام والحلوى التي كانوا يقبلون عليها . . . وهي مظاهر بدأت تختفي ، بتسارع من حياة الناس ، لا . . . في دمشق وحدها ، بل في مختلف المدن الأخرى . . .

وهو يذكرنا ، بأن الناس كانوا يستمتعون بأيام العيد ، حتى إنهم يريدونها إلا تنتهي ، وإنذ ، فانهم كانوا يمددونها يوماً آخر ، يطلقون عليه هذا الاسم الطريف : جعش العيد . . . فإذا انقضى انصرف الأولاد إلى مدارسهم والناس إلى أعمالهم وشأنهم كالمعتاد . . . متأسفين لسرعة انقضاء فترة العيد والسرور . . .

يوم كانوا يبعثون عن قارئه

لم أدهش كثيراً وأنا أقرأ في هذا الكتاب أن بعض الناس كان ينتقل من قرية إلى أخرى أو من حي إلى حي باحثاً عن يقرأ أو يكتب له رسالة . . . ذاك الذي ادركت أو اختر هذه المحبة في بدايات الأربعينيات . . . كنت وقتها في الصف الثالث أو الرابع الابتدائي ، وقد

حدث أن بعض أقريائنا تطوع للخدمة في أحد الجيوش الأجنبية ، ثم استقر زمناً في القاهرة، حيث بعث اليهم بأولى رسائله . لقد ناداني هؤلاء وكانوا جميعاً كباراً في السن ، وليس في دارهم إنسان واحد يعرف القراءة أو الكتابة . فكان أن قرأت أمامهم الرسالة ، وجلست أكتب جوابها .

إن أحمد حلمي العلاف لا يقدّم كشفاً إحصائياً عن مدارس دمشق في مطلع هذا القرن لكنه يحاول أن يعددوها في حين يتصور أن ما يذكره هو كل المدارس التي كانت قائمة . ونحن لا نملك بالطبع أن نناقش في ذلك ، وإذا كنا أقرب إلى تصديق روایته ، حول المدارس المشهورة آنذاك ، فلا شك في أن ثمة مدارس أخرى ... غير مشهورة ... غابت عن قلمه .

يومذاك ، أو قبيل العرب العالمية الأولى ، لم يكن في دمشق مدارس ثانوية بالمعنى الذي نعرفه اليوم . ربما كانت المدارس الأجنبية التي افتتحتها البعثات التبشيرية في دمشق حينئذ ، تقدم لطلابها مناهج للدراسة الثانوية ... غير أن المؤلف لا يقدم إيضاحاً حول هذه المسألة .

مدارس دمشق ..

كان هناك عدد من المدارس الابتدائية الرسمية لا يتجاوز ثلاثة مدارس وكان الانتساب إليها منوطاً بموافقة لجنة تدعى « الجمعية التيرية » برئاسة العلامة الشيخ طاهر المزاري . الأولى كانت في القimirية . والثانية قرب الجامع الأموي وتدعى « المعمقة » . أما الثالثة فكانت في الصالحية وعرفت باسم « الجامع الجديد » ... وبعد اعلان المستور العثماني عام ١٩٠٨هـ انشئت المدرسة الابتدائية الرسمية الرابعة باسم: مدرسة الملك الظاهر ... وقد ظلت قائمة حتى أواخر السنتين ... غير بعيد عن سوق الحميدية وفي موقع قريب منها ، في زقاق « المرستان » ... كانت المدرسة الوحيدة لللأناث ...

... ويبدو أن معظم المدارس التي أنشأتها البعثات التبشيرية ما زالت قائمة هي نفسها حتى اليوم . وإذا كان العلاف لم يذكر « الليبيك » وهي التي تدعى الآن « معهد العربية » فإنه ذكر « الفريير »: « الاخوة » و « العازارية »: المنصور . و « الأليانس » التي ما زال مبنائهما وحده قائمًا فحسب قرب سور دمشق الجنوبي . إضافة إلى مدرسة « الانكليز » . وقد لاحظ أن الطلاب الذين يتلقون الدروس في هذه المعاهدة هم من أبناء الشراء واليسير والفنى » .

ومدارس أخرى ٠٠ خاصة

و كانت هنالك مدارس أخرى خاصة أنشأها أهل دمشق أنفسهم ، ولكن لا ندرى شيئاً ، من سويتها التعليمية ، أهي ابتدائية فحسب ، أم ابتدائية وإعدادية ، فالعلاف لا يوضح هذه النقطة .

ويعد من هذه المدارس «الأمينية» ، وهي قديمة جداً ، وما يزال مبناتها قائمة في سوق العرير قرب المسجد الأموي . والثمانية ، وهي الأخرى تحتل مبنياً قدماً جداً في مطلع هذا القرن على يدي منشئها كامل القصاب . ولكن العلاف لا يذكر ذلك . أما المدرسة التجارية ، فقد كانت شمال المسجد الأموي تقاد تلاصقاً . وثمة أيضاً المدرسة العلمية الوطنية والريحانية والบาลين ، ومدرسة جمعية الاسعاف الخيري . وما برحت في موقعها نفسه غرب مبني مجلس الشعب ، وهي خاصة ببناء القراء .

علمون ٠٠ من وجوه سورية

ومن طريف ما يذكره العلاف حول مدرسة الشيخ كامل القصاب ، الذي كان من وجوه دمشق الثقافية والوطنية أنهاضمت بين أساتذتها نخبة من زعماء سورية وأدبائها وعلمائها ، فقد كان الدكتور عبد الرحمن الشهبندر يعلم طلابها الخطابة . والدكتور أسعد الحكيم يلقنهم أصول التمثيل . والأمير عارف الشهابي كان أستاذ التاريخ العربي فيها ، وعبد الوهاب الانكليزي ، وهو أحد شهداء أيار ١٩١٦ كان أستاذ الجغرافيا . وكان الشاعر الكاتب الشائر المعروف خير الدين الزركلي أستاذ الانشاء في هذه المدرسة ، أما عالم اللغة سليم الجندي ، فقد كان يدرّس التعلو فيها .

مدارس تعليم القرآن

و من جانب آخر ، تناشرت في أطراف دمشق مدارس كثيرة كانت مهمتها الأولى تعليم القرآن الكريم . وبعضها كان الشيوخ يتولون التعليم فيها ، وبعضها الآخر كانت تتبعدها امرأة تسمى « خجا » وهذه الكلمة ، كما يوضح معقق الكتاب الأستاذ علي نعيسة تركية معناها معلم ، وتطلق على المعلمات في مدارس دمشق القرائية .

على أنها كانت تعلم التلاميذ أيضاً القراءة والكتابة ومبادئ الحساب . . .

ولكن أسلوب التدريس فيها كان متخلّفاً جداً ، فالآلف (١) مثلًا هي هذا الشيء الذي لا نقطة عليه ، والباء لها نقطة من تحتها .. وللتاء اثنتان من فوقها وهكذا .. وكان المعلمون الشيوخ قسّاً في تعاملهم مع الأولاد الصغار، يضرّبونهم بقضبان من شجر السفرجل ، أو يضعنونهم على « الفلقة » التي تضم القدمين معاً .. ثم يضرّبونهم بالقضبان، وكان هذا العقاب من نصيب المقصرين أو المتخلّفين عن الحضور أو من يشكّوهم أهلهم لهذا السبب أو ذاك .. ولعلّ هذا هو الذي جعل تلميذًا كالدكتور كاظم الداغستاني يهرب من مدرسة الشيخ .. إلى مدرسة الخجا، كما يحدثنا في كتابه « عاشها كلها » ..

كان في دمشق كلها مدرسة إعدادية واحدة هي التي عرفت باسم « مكتب عنبر » وغدت ثانوية بعد الحرب العالمية الأولى .. حتى الثلاثينيات .. ثم أصبحت في الأربعينيات إعدادية للفنون التسوية .. وهي الآن في سبيلها لأن تكون أحد متاحف دمشق ..

وينقل الأستاذ نعيسة محقق الكتاب عن العلامة محمد كرد علي أن « عنبر » في الأصل دار خاصة لشري يحمل الاسم نفسه ، ثم وضعت الحكومة العثمانية يدها عليها الدين كان لها على صاحبها .. فجعلتها مدرسة إعدادية عام ١٣٠٤ هـ ١٨٨٦ م .. وكان معظم أساتذتها من الأتراك ما عدا معلمي اللغة العربية والعلوم الدينية وبعض المعيدين .. وكان يتقارّب إليها التلاميذ من مختلف أرجاء الأمبراطورية العثمانية ، فبيّن لهم الدمشقي والعلبي والأناضولي والبلقاني والشركي والألباني .. الخ .. ولعلّ هذا هو الذي جعل هذه المدرسة تخصص قسماً منها لمبيت الطلاب ونومهم وطعامهم .. ولم يكن يقدر على ذلك سوى أبناء المنعمين ..

اما الاعدادية الأخرى التي كانت في دمشق ، فكانت تدعى « المدرسة الرشيدية العسكرية » وكانت سنوات الدراسة فيها ستة هي الأخرى ، وكان فيها قسم داخلٍ أيضاً .. ومن يتعرّج منها يقبل في المدرسة العسكرية العسكرية في استانبول .. وكان معظم طلاب هذه المدرسة من أبناء العسكريين العاملين في الجيش العثماني ..

ويغيل إلى ، استنتاجاً ، أن موقع هذه المدرسة كان هو نفسه الذي قامت فيه مدرسة معاوية .. عند مدخل البصّرة قرب ساحة المراجة .. حيث يعاد الآن بناء مسجد « يليغاً » .. ولما كانت في طفوّتي قد زرت مدرسة معاوية عدة مرات ، فأنني أعتقد أنها ورثة المدرسة العسكرية .. بكل تقسيماتها العرمانية ..

المؤلفات الطبعية

بِحَلَالِ الدِّينِ السِّيُوْطِيِّ

د. محمد زهير البابا

ملحة موجزة عن سيرته الذاتية :

جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن الكمال أبي بكر بن محمد...
هو التفسيري السيوطي الشافعى^(*).

كانت ولادته في مستهل رجب عام ٨٤٩ هـ / تشرين الأول ١٤٤٥ م في القاهرة
حيث كان أبوه يدرس الفقه في المدرسة الشيخونية .
نشأ يتيمًا ، فقد توفي والده وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر . وأستندت
وصايته إلى أحد مشايخ الصوفية من أصدقاء أبيه ، وقد حفظ القرآن وله
من العمر ثمانى سنوات .

شرع الاشتغال بالعلم عام ٨٦٤ هـ فقرأ على الشمس السيرافي صحيح مسلم ،
ومنهج النووي ، ومنهاج البيضاوي ، والشفاء والفيه ابن مالك ، كما قرأ
على غيره كثيراً من المؤلفات الدينية في أصول الفقه وشرح العقائد .

أما العلوم المتصلة بأمور الدنيا والتي اهتم بها السيوطي فكان منها علم
الفرائض والحساب ،قرأها على العلامة الشهاب الشارماجي ، وقرأ علم التوقيت
على محمد الميقاتي ، والطب على محمد بن إبراهيم الدوايني .

(*) ذكر السيوطي في مقدمة كتابه (حسن المعاشرة في تاريخ مصر والقاهرة) ترجمة كاملة لسيرته الذاتية .

وروى الشعراوي في طبقاته الصفرى أن أستاذه السيوطي قد أخذ العلم على ستمائة شيخ . كما ذكر تلميذ آخر للسيوطى وهو الداودى ترجمة أسماء شيخوخ أستاذه ، إجازة وقراءة وسماعاً، مرتبين على حروف المعجم ، فبلغت عدتهم إحدى وخمسين نفساً .

كان السيوطي من مريدي المصوفية، وقد دافع عنها وعن أصحابها في مؤلفاته . ولكنه كان لا يدافع إلا عن المطعون في عقائدهم وسلوكهم ، من الذين أجمعوا أهل العلم على كفرهم وزندقتهم ، كابن عربى وابن الفارض . ويقول السيوطي أنه بعد التضليل من علوم المظاهر اشتغل بتحصيل علوم الباطن ، والاستفادة من أهلها ، بالصحبة والخدمة والسلوك ، وحسن الاعتقاد والأخلاق والتخلية من الرذائل والتعلية بالفضائل .

ومن اعتقاده الذى ألبَّ عليه العلماء في عصره أنه ادعى رؤية الرسول في الميقظة والنام ، ولمه رسالة في ذلك . وهذا أمر لم يحصل لصحابة الرسول(ﷺ) وهم أفضل الخلق ، حتى يحصل لهن هؤدونهم . وإنما هي تخيلات طرأت على كثير من المتصوفين والزهداد في عصر الانحطاط العلمي .

بدأ السيوطي دراسته في القاهرة، وأتقها متنقلًا بين بلدان مصر، وحاجا إلى مكة المكرمة سنة ٨٦٩ هـ . ثم عاد إلى القاهرة واشتغل ببذل المشورة في المسائل الفقهية . وتولى بعدها منصب التدريس في المدرسة الشيفونية عام ١٤٧٢ هـ / ١٨٧٢ م . ولما بلغ الأربعين من عمره أعيى من التدريس ، فاعتزل الناس ، واعتكف في دار للعبادة (خانقاہ) في جزيرة بالنيل ، حيث انصرف للتتأليف والتصنيف .

كان السيوطي عفيفاً كريماً غنى النفس ، متبعاً عن ذوي الجاه والسلطان، لا يقف بباب أمير ولا وزير، قانعاً ببرزق ضئيل . وكان بعض الأمراء والوزراء والأغنياء يزورونه ، ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها . وروى أن السلطان النوري أرسل له مرةً خصيّاً وألف دينار . فرد الدنانير وأخذ الخصي ثم أعتقه . وقال لرسول السلطان : لا تعد تأثينا بهدية ، فإن الله أغنانا عن ذلك .

الصفات المميزة لمؤلفات السيوطي :

لقد نُسب إلى العالم السيوطي عدّة كبرٌ من المؤلفات، ملأت عنوانها صفحات عديدة من فهارس المكتبات . وكتبه من الكثرة والتنوع بحيث يتعذر على الإنسان أن يصدق أنها من تصنيف عالم واحد .

ولكن حينما يقوم الباحث بتدقيق تلك المؤلفات ، يجد أن أكثرها رسائل قصيرة لا يتجاوز عدد أوراقها أحياناً أصابع اليد . ولكن مما يلفت النظر في مواضيعها أنها تدل على نشاط عقلي كبير ، عند رجل يُحب أن يطرق مواضيع ترتبط بحياة العامة والخاصة ، كما أنها تحمل عنوانين غريبة ومسجّمة ، نذكر منها ما يلي :

الأسفار عن قائم الأقطار – بلوغ المأرب في قص الشارب – الوديك (الدهن) في فضل الديك – بلوغ المأرب في أخبار العقارب – ما رواه الواعون في أخبار الطاعون – كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة – حصول الرفق باصول الرزق – في مقر الروح بعد الموت – مشتهي العقول في منتهى النقول – الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف – جر الذيل في علم الحيل

وإلى جانب هذه الرسائل الصغيرة يوجد للسيوطى مؤلفات ضخمة ، يبلغ عدد صفحات كل منها عدة آلاف أحياناً منها :

حسن المعاشرة في أخبار مصر والقاهرة (تاريخ) – الأشباه والنظائر (في الفقه)
الأشباه والنظائر (في النوع) – المزهر في علوم اللغة – الجامع الكبير والجامع الصغير
(في الحديث)

نشأ الإمام السيوطي في عائلة اشتهرت بالعلم . ولما توفي والده باكرأ رعاه أحد مشايخ الصوفية . وحينما شبَّ ونضج كانت إقامته في مؤسسة علمية دينية خيرية تدعى الشيخوخية . وكان فيها مكتبة عامرة ، يرتادها كثير من العلماء وطلبة العلم . تأثر السيوطي كثيراً بهذا المعیط العلمي المتدين ، وجعله من المریدين والمدافعين عن المتصوفين . وحينما أتتهم ، من قبل أهل العلم ، بالكفر والزندة ، بعض أعلام التصوف ، كابن عربى وابن الفارض ، وقف

السيوطى يدافع عنهم فى رسالتين وهما «تنبیه الغبی إلى تبرئة ابن عربی» و «قمع المعارض في نصرة ابن الفارض» .

عدد السيوطى ، في أحد مؤلفاته ، أسماء العلوم الدينية واللغوية والانسانية ، التي رزق نعمة التبحر بها . وصرّح بعجزه عن إدراك قضايا الحساب ، وكراهيته لعلم النطق ، بعد أن قرأ بعضًا مما ألف فيه ، وخاصة المقدمة في النطق (لفورفوريوس الصورى) .

ومن مزايا السيوطى أنه ذكر أسماء جميع الأساتذة العلماء ، الذين أخذ منهم بعض العلوم الأساسية والتطبيقية، في العلوم المتعلقة بالحساب قبل الميلاد أيضاً على الشيخ مجد الدين اسماعيل بن السباع . وقرأ الطب على محمد بن إبراهيم الدواني ، وكان طبيباً قدم إلى القاهرة من بلاد الروم .

مؤلفات السيوطى الطبية :

لقد جرت العادة في البلاد العربية والإسلامية ، وخاصة أوائل الحكم العباسي ، أن يكون الطبيب ملماً بالفلسفة والعلوم الطبيعية والرياضيات، قبل أن يتفرّغ لدراسة الطب ومارسته أو التأليف به .

ولكن في أواخر العصر العباسي ، وخاصة بعد المصائب التي حلّت بالبلاد العربية بتوالي المروءات الصليبية ، وغزوّات المغول والترن ، فقد انصرف رجال العلم إلى التعمق بالفقه الإسلامي ، ودراسة علوم اللغة العربية والتاريخ، بصورة عامة . ونظراً لأن الموسوعات الطبية ، التي ظهرت بين القرنين الرابع والخامس للهجرة ، كالمحاوي والمنصوري لأبي بكر السرازي ، وكامل الصناعة لعلي بن البياس الاهوازي ، والقانون لابن سينا ، قد بلغت الذروة والاحاطة والكمال في علوم الطب ، لذلك وقف طلاب العلم عاجزين عن الاتيان بمثلها ، واكتفوا بتلخيص بعضها ، مثل ذلك كتاب (موجز القانون) ، أو اجزاء واختصار بعض أقسامها ، مثل كتاب (شرح تشریع القانون) ، وكلها من مؤلفات ابن النفيس .

إن العمل بالطب التقليدي ، المقتبس عن الطب اليوناني والهندي ، قد تراجع العمل به في البلاد العربية ، خلال القرون المظلمة التي سادت شرق العالم



العربي ، وذلك بسبب فقدان العقاقير المستوردة من الصين والهند وفارس ، أو لفلاء أثاثها . لهذا كان على الأطباء ، وأكثرهم من الفقهاء وعلماء الدين ، أن يكتفوا بوصف العقاقير المحلية . أما ماجمهم فكان أهمها كتب الطب النبوي ، ورسالة براءة ساعة ، وكتاب من لا يحضره طبيب وكلاهما للرازي ، وكتاب طب المقراء والمساكن لأحمد بن إبراهيم بن الجزار القبرواني ، وكتاب تسهيل المنافع لابراهيم الأزرق .

من المعلوم أن المريض المؤمن ، حينما يعجز الأطباء عن شفائه ، يلجأ إلى الوسيلة الوحيدة التي تمنعه المهدوءة وراحة النفس ، وتهبه القدرة على تحمل آلام المرض ، وهي التوسل إلى القدرة الالهية التي تخفف عنه الألم والمعذاب .

إن أول مؤلفات عربية ، ظهرت في البلاد الإسلامية ، وجمعت بين الطب المادي والطب الروحاني والنفسي ، تلك التي عرفت باسم الطب النبوي . ويعود الفضل في تأليف أول كتاب حمل هذا الاسم إلى الشيخ الفقيه المتغطب أبي مروان عبد الملك بن حبيب السلمي المرداسي الألبيري القرطبي ، المتوفى عام (٢٣٩هـ / ٨٥٤م) . ويضم هذا الكتاب بعض الأحاديث الشريفة التي رویت عن رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، والتي نهى فيها عن الإيمان بالتمائم والسعر . وأوصى باستعمال الماء البارد في علاج الحمى ، كما أوصى باستعمال بعض النباتات الطبية ، مما ينمو في الجزيرة العربية ، كالمرمل والحبة السوداء والملبة والمحنة والعمل ونهى عن استعمال الكي والقصد إلا عند الضرورة .

أما في شرق العالم العربي والإسلامي فقد ظهرت عدة مؤلفات في الطب النبوي ، كان من أوائلها كتاب منسوب للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني ، المتوفى عام (٤٢٢هـ / ٩٤١م) ، ومن أواخرها كتاب المنهل السوي في الطب النبوي للعالم جلال الدين السيوطي المتوفى عام (٩١١هـ / ١٥٠٥م) .

لم يعرف عن السيوطي أنه مارس الطب ، ولكن شففه بالمطالعة والتأليف والتلخيص شجعه على وضع بعض المؤلفات الطبية ، وشبه الطبية . كما نسب إليه كتاب مشهور جمع بين الطب التقليدي والطب النبوي ، بالإضافة إلى طب المرافقين والمشعوذين . وفيما يلي أسماء أهم تلك المؤلفات :

- أ - المنهج السوي والمنهل الروي في الطب النبوي .
 ب - غاية الاحسان في خلق الانسان .
 ج - الرحمة في الطب والحكمة (المنسوب اليه) .
 د - ما رواه الواقعون في اخبار الطاعون .
 ه - اتمام الدراسة لقراء النقایة .

١ - كتاب المنهج السوي والمنهل الروي في الطب النبوي :

لهذا الكتاب مخطوط جيد وفريد ، كان محفوظاً في المكتبة الظاهرية ، ونقل إلى مكتبة الأسد بدمشق ، حيث حفظت تحت رقم (٣١٢٧ طب) . وهو من أوقاف الوزير محمد باشا والي الشام سنة ١١٩٠ هـ . عدد الأوراق (٩٩) ، القياس ١٥×٢١ سم - المسطرة (٢١) سطراً ، الخط نسخ معتاد ، المتن بمداد أسود والعنوانين بمداد أحمر . وجاء في آخره « نجز الكتاب المسمى بالطب النبوي على يد أحمد بن عبدالحي بن علي الحسيني القديسي ، وذلك في محرم سنة (١٠٩٥ هـ / ١٦٨٤ م) . وقد ترجم للفرنسية من قبل N. Berron (1860) وإلى الانكليزية من قبل C. Elgood (1962) ، وطبع في القاهرة سنة ١٨٧٠ ثم سنة ١٨٨٧ (فهرس حمارنة) .

مقدمة النص المحقق :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

« الحمد لله حمد الشاكرين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،
 خير الغافرين

وبعد فهذا كتاب جمعت فيه الأحاديث الواردة في الطب ، مرتبة على الأبواب . وأوردت فيه جميع ما ورد ، صحيحاً وحسناً وضعيماً ، لينتفع به أولو الأنلباب . وتركت كثيراً مما أورده المصنفون في هذا الفن ، لاشتهاره بتفرد وضياع كذاب . ووضمنت إليه من الآثار الموقوفة والمقاطع ما يستجد ويستطاب . وعقبت كل حديث بكلمة شارحة لمقصده ، لتتم فائدته للطلاب .

ورتبته ترتيب الموجز في الماصل والأبواب . وسميتها المنهج السوي والمنهل الروي في الطب النبوي . والله ربى لا إله إلا هو ، عليه توكلت وإليه متاب » .

يتناول كتاب المنهج السوي من عدد من الأبواب ، غير المرقمة ، ولم يشر إليها بفهرس ، ولكن دوّنت عناوينها بالأحمر ، وهي ضمن المتن . وكعادة السيوطي في مؤلفاته فإنه يذكر اسم كل من اقتبس شيئاً من مؤلفاته ، كما يذكر الأسناد ، عندما يورد حديثاً شريفاً ، وفيما يلي أمثلة على ما جاء في تلك الأبواب :

١ - تقسيم الطب :

قال الخطابي « أعلم أن الطب على نوعين : الطب القياسي ، وهو طب اليونان الذي يستعمل في أكثر البلدان ، وطب العرب والمهد وهو طب التجارب . وأكثر ما وضعه النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إنما هو على مذهب العرب ، إلا ما خص به العلم النبوي من طريق الوحي ، فإن ذلك يخرق كل ما تدركه الأطباء وترعرعه الحكماء . وكل ما فعله أو قاله في أعلى درجات الصواب ، عصمه الله أن يقول إلا صدقاً ، وأن يفعل إلا حقاً » .

وقال ابن القيم « كان علاجه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) للمرضى ثلاثة أنواع : أحدها بالأدوية الطبيعية ، والثاني بالأدوية الإلهية ، والثالث بالمركب من الأمرين » .

٢ - ذكر ابتداء الطب :

أخرج البزار في سنته ، والطبراني في الكبير ، وأبي السندي وأبو نعيم ، كلامهما في الطب النبوي ، عن النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، أن نبي الله سليمان عليه السلام كان إذا قام يصلّي رأى شجرة نابتة بين يديه فيقول لها : ما اسمك ؟ فتقول كذا ، فيقول لأي شيء أنت ؟ .. فتقول لكذا . فإذا كانت لدواء كتبت ، وإن كانت لغرس غرست » .

وعدد السيوطي بعد ذلك عدة روايات ، مختلفة الاستناد ، لم تخرج عن هذا المعنى .

٣ - ذكر أن لكل داء دواء ، وضرورة اللجوء إلى المداواة عند حلوث المرض :

« أخرج البيخاري والنسائي وابن ماجة وأبو نعيم ٠٠٠ قال رسول الله (ص) ما أنزل الله داء إلا وأنزل له شفاء »

وهناك أحاديث كثيرة ، ذكرها السيوطي ، رویت عنه (ص) منها أن بعض المسلمين جاؤوا إليه وقالوا : « يا رسول الله هل علينا من جناح أن لا نتداوي ؟ » فقال « تداووا عباد الله ، فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء ، غير داء واحد الهرم » . وذكر بعضهم هذا الحديث بشكل آخر : قال (ص) « تداووا فإن الله لم يخلق داء إلا خلق له شفاء إلا السأم ، وهو الموت ». ويقال أن هذا الحديث روأه أبو هريرة فقال : أصيب رجل من الأنصار يوم أحد ، فدعاه له الرسول (ص) طيبين كانوا بالمدينة ، فقال عاليه . فقلالا : يا رسول الله إنما كنا نعالج ونحتال في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام فما هو إلا التوكل . فقال « إن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ثم جعل فيه شفاء » فعالياه فبرئه .

٤ - ذكر الأركان الأربع والأخلط الأربع :

وفي رواية عن وهب بن منبه قال :

« وجدت في التوراة أنه قال (تعالى) : حين خلقت آدم ركبت جسده من أربعة أشياء ، ثم جعلتها وراثة في ولده ، تتنمى في أجسامهم إلى يوم القيمة : رطب ويسخن وبارد ، وذلك لأنني خلقته من تراب وماء ، ثم جعلت فيه نفساً وروحاً ، فيبوسة كل جسد من قبل التراب ، ورطوبته من قبل الماء ، وحرارته من قبل النَّفْس وبرودته من قبل الروح » .

٥ - ذكر الأعضاء :

يقول السيوطي : « قال الأطباء الفداء جسم من شأنه أن يصير جزءاً من بدن الإنسان . وفي (كتاب) القانون الأعضاء أجسام متولدة من أول مزاج

الاختلط . كما أن الأخلاط أجسام متولدة من أول مزاج الأركان .
والأعضاء قسمان : مفردة ومركبة ، فالمفردة هي التي يستوي فيها اسم الكل
والجزء ، كاللحم وال心思 ، وتسمى متشابهة الأجزاء .

والمركبة بخلافها كالوجه واليد . وأول الأعضاء المتشابهة الأجزاء العظم ،
وقد خلق صلبًا لأنه أساس البدن ودعامة المركبات . ثم العصب - الرباطات
- الشريانات - الأوردة - الأغشية - اللحم ، وقد تكلم على كل منها على
انفراد .

٦ - ذكر تكوّن الأعضاء عن المنى :

أخرج البخاري ومسلم . . قال رسول الله (ص) « إن خلق أحدكم يجمع في
بطن أمه أربعين يوماً ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضافة مثل ذلك ، ثم
ينفخ فيه الروح » . وفي هذا الباب أحاديث كثيرة منسوبة للرسول (ص) ، وفيه
أقوال أخرى منسوبة باليينوس أو ابن سينا .

٧ - وفي هذه الأبواب ذكر السيوطي تشكيلاً وصفات : المظام - المفاصل
- العصب - العضل - المروق - الضوارب أو الشرايين - وغير
الضوارب أي الأوردة .

١١ - ١٢ ذكر الأعضاء الرئيسة والأعضاء الخادمة أو المرؤوسة - كما ذكر
الحواس الخمس وأقسامها .

١٣ - ذكر الأسباب الضرورية :

أورد السيوطي في هذا الباب بعض الأحاديث المتعلقة بحفظ الصحة ،
والمرتبطة بحياة الإنسان وهي : المسكن والهواء - المأكول والمشروب - الحركة
والسكون (في الجسد والنفس) - تسيير النوم واليقظة - الحمام - الجماع -
تدبير الفصول - في الفصد والاستفراغ - في الحمية والتدبير بالغذاء - الحجامة -
الفصد - الاسهال - القيء - الكي - المحقنة .

١٤ - في الأدوية والأغذية المفردة :

وردت في بعض أحاديث الرسول (ص) أسماء عقاقير ونباتات تستعمل كفداه أو دواء ، وقد جمعها السيوطي وأضاف إليها أسماء نباتات ومنتجات حيوانية بما يستعمل في الطب الشعبي . ثم قام بترتيبها حسب الحرف الأول من أسمائها، وتتكلم على تأثيراتها الدوائية بصورة موجزة . وفيما يلي أسماؤها :

أترج^(١) - إثمد^(٢) - آس - إهيليج^(٣) - أرز - بنفسج - حبة سوداء - حناء - خل - خمر - رمان - زبيب - زيت - سفرجل - سكر - سنا - سنوت^(٤) - سمم - سمن - سواك^(٥) - شحم - صبر - عسل - فاغية^(٦) - فستق - لوز - قسط^(٧) بعرى - قصب السكر - كبات^(٨) - كمة - لبن .

١٥ - في الأدوية المركبة :

روى السيوطي عن ابن قيم الجوزية أنه قال : « كان من هديه (ص) فعل التداوي في نفسه ، والأمر به من أصحابه مرض من أهله وأصحابه . ولكن لم يكن من هديه ولا هدي أصحابه (ر) فعل هذه الأدوية المركبة التي تسمى أقر باذين ، بل كان غالب أدويتهم بالمفردات . وربما أضافوا إلى المفرد ما يعاونه أو يكسر سُورته . وهذا غالب طب الأئم على اختلاف أجناسها ، من العرب والترك ، وأهل البوادي قاطبة . وإنما اعنى بالمركبات الروم واليونان . وقد اتفق الأطباء على أنه متى أمكن التداوي بالفناء فلا يعدل إلى الدواء . ومتى أمكن (المداواة) بالبساط فلا يُعدل إلى المركب » .

سعى السيوطي في كتابه المنهج السوي أن يوفّق بين ما كتبه بعض الأطباء المشهورين ، أمثال أرسطو وجاليتوس من اليونانيين ، وابن سينا وابن النفيس وعبد اللطيف البغدادي من المسلمين ، وبين ما كتبه بعض المؤلفين في الطب النبوي وخاصة أبا الحسن علي بن عبد الكريم طرخان الحموي (٦٥٠ - ٧٢٠) هـ - وشمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعبي الدمشقي ، المعروف بابن قيم الجوزية (ت - ٧٥٠ هـ) . لكنه عند بعثه في المداواة اقتصر كلامه على استعمال الأدوية البسيطة دون المركبة .

١٦ - القول في الأمراض المختصة بعضو عضو :

تتكلم السيبويطي عن أسباب وأعراض ومداواة بعض الأمراض المعروفة والمنتشرة في زمانه ، بصورة مختصرة وهي : الصداع بأنواعه – الدوار – العشق – النسيان – الفالج – الرمد – ضعف البصر – النزلة والرذاك – وجع الأسنان والأضراس – وجع الصدر ذات الجانب – الاستسقاء – وجع البطن – الإسهال – التولنج – دود البطن – عرق النساء – عرق الكلية – الباسور – الباء ٠

١٧ - الأمراض التي لا تختص ببعضها دون عضو :

وهي الحمى بأنواعها – السل – بطاخراج – القرح – البثور – الجذام ٠

١٨ - القول في الكسر والوثي والخلع والسقطة والصدمة – القول في (الاصابة ب) العين والنظر ٠

١٩ - التطبيب بالمسك والقسطنطيني والريحان – استعمال التوكرة ٠

٢٠ - في التداوي في السموم – في علاج لدغ العقرب ٠

ب - كتاب غاية الاحسان في خلق الانسان :

لقد أثّر في موضوع خلق الإنسان، ووصف جميع أعضائه ، عدد كبير من علماء اللغة العربية ، منذ أوائل القرن الثالث للهجرة ٠ وكانت مؤلفاتهم على شكل رسائل صغيرة ، ذكروها فيها مختلف أسماء تلك الأعضاء ٠ ثم ظهر بعد ذلك معجمات المانلي ، والتي خصمت بعض الأبواب فيها للكلام على تلك الأعضاء بصورة أكثر تفصيلاً ٠

ويعد النضر بن شميل (تـ ٢٠٨ هـ) ، وأبو عبيدة (تـ ٢١٠ هـ) والأصمعي (تـ ٢١٣ هـ) من أوائل من وضع الرسائل في خلق الإنسان ٠ أما العالم جلال الدين السيبويطي فيعد آخر اللغوين الذين ألفوا في هذا الموضوع وحفظ مؤلفات من سبقه ٠ وقد ذهب إلى ذلك الدكتور ابراهيم السامرائي ، في مقدمة تحقيقه لكتاب خلق الإنسان للزجاج (تـ ٣١٠ هـ) ، فقال :

« لقد سلك السيوطي ، عند تأليفه كتاب *غاية الاحسان* في خلق الانسان ، طريقته المنهجية التي سار عليها عن دراسة مؤلفاته العديدة في مختلف العلوم والأدب والتاريخ ، وهي جمع وتصنيف وتنقيح مختلف الأبحاث الواردة في مؤلفات من سبقه ، مع ذكر أسماء تلك المراجع وأسماء مؤلفيها غالباً . وكان له بذلك فضل حفظ كثير من الكتب والرسائل المفقودة . ومن جملة المؤلفات التي اعتمدتها السيوطي في كتابه *خلق الانسان* ، والتي تعتبر بحكم المفقودة ، كتاب *خلق الانسان* لمحمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ) ، وكتاب *خلق الانسان* لأبي جعفر التخاس (ت - ٣٣٨ هـ) وغيرهما » .

لقد ذكر السيوطي ، في مقدمة كتابه « *غاية الاحسان* في خلق الانسان » الأسباب التي دعته لتأليفه ، فقال : « من المهم للمتسميين بسمة العلم أن يعيطوا بأسماء أعضاء الانسان ، وأبعاضه وأجزائه وعوارضه ، ويحتווوا على اللغات الواردة في ذلك » . ثم يقول بعد ذلك : « كان علماء الصدر الأول شديدي العناية به ، والتأليف فيه ، وقد انقرض (ذلك) منذ دهر مديد . وأآل أمر الناس اليوم الى الجهل المغض ، حتى ترى أعيان الناس اليوم ، المشار اليهم بالعلم ، لا يعرفون من (أسماء) أعضاء الانسان إلا ما تعرفه النساء والأطفال ، من الأسماء المشهورة : كالرأس والعين واليد والرجل ، وما شاكل ذلك . ولو سئل الواحد منهم عن تمييز كوعه من بوعه لم يعرف ذلك . ولقد سُئلت مرة عن الورك والفخذ هل هما اسماً لشيء واحد ، أو مسمى هذا غير مسمى هذا؟ »

فحذاني ذلك على الاهتمام بالاحتاطة بخلق الانسان ، والتتبع له من كتب اللغة والتاليف فيه . فاني على كثرة تصانيفي ، البالغة أربعينات مؤلف ، لم أضع في اللغة شيئاً . فأحببت أن يكون لي فيه كتاب .

ومن عاداتي أن لا أؤلف إلا فيما لم أسبق إلى مثله ، وأن استوعب فيما أَلْفَ فيه . وهذا الشرط قد تغدر في فن اللغة ، إذ لا كتاب فيها بعد كتاب القاموس^(٩) ، ولا تأليف أو عب وأجل منه » .

ثم ذكر السيوطي بعد ذلك أسماء بعض المراجع الأخرى التي اعتمدتها ،
عند تأليفه كتاب غاية الاحسان وهي :

- كتاب خلق الانسان لمحمد بن حبيب (ت - ٢٤٥ هـ) .
- كتاب خلق الانسان لأبي اسحق ابراهيم بن سريي الزجاج (ت - ٣١١ هـ) .
- كتاب خلق الانسان لأبي القاسم عمر بن محمد بن الهيثم العصافي .

لقد عدَ السيوطي تأليفه لهذا الكتاب نوعاً من الاحسان ، يقدمه للمسلمين ليزدادوا إيماناً على إيمانهم بعظمة الخالق ، وشدة إتقانه تعالى لما خلق ، وشرحأ لما ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى « ولقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم » (سورة التين / ٩٥) . كما حقق فيه معجته للفة العربية ، وذلك باحياء وإشاعة مصطلحات طبية كاد أن يدركها النسيان .

يتتألف كتاب غاية الاحسان في خلق الانسان للسيوطى من مقدمة وثلاثة وعشرين باباً . يتكلم مؤلفه في مقدمته عن الأسباب التي دعته لتأليفه ، وقد من ذكرها . وفيما يلي العناوين الرئيسية لأبواب الكتاب :

- | | | |
|---------------------------------|--------------------------------|---------------------------------|
| ١ - أسماء جملة الانسان (في ..) | ٥ - العين: القسامها وصفاتها .. | ١٤ - المنكب والكتف .. |
| ١٥ - مختلف مراحل نموه .. | ٦ - الاذن .. | ١٥ - العضد والذراع .. |
| ١٦ - الظهر .. | ٧ - الانف .. | ١٦ - الظهر .. |
| ١٧ - الصدر والبطن .. | ٨ - الشفة .. | ١٧ - الصدر والبطن .. |
| ١٨ - الجنبين .. | ٩ - الفم .. | ١٨ - الجنبين .. |
| ١٩ - العوف .. | ١٠ - اللسان .. | ١٩ - العوف .. |
| ٢٠ - الذكر والفرج وما حولهما .. | ١١ - الاسنان والاظنان .. | ٢٠ - الذكر والفرج وما حولهما .. |
| ٢١ - الاست والمعجز .. | ١٢ - المعنية .. | ٢١ - الاست والمعجز .. |
| ٢٢ - الوركين والفخذ .. | ١٣ - العنق وما حوله .. | ٢٢ - الوركين والفخذ .. |
| ٤ - الوجه: القسامه وصفاته .. | | ٤ - الوجه: القسامه وصفاته .. |

قام بتحقيق هذا الكتاب السيد مرتضى علي ابراهيم، ونشرته دار الفضيلة
بالمقاهرة سنة ١٩٩١ .

ج - كتاب الرحمة في الطب والحكمة ، المنسوب لجلال الدين السيوطي :

لهذا الكتاب عدة طبعات جرت في مصر ، الأولى في المطبعة الشرقية سنة ١٣١١ هـ ، والثانية في المطبعة اليمنية سنة ١٣٢٢ هـ ، والثالثة في دار الكتب العربية الكبرى سنة ١٣٢٩ هـ ، والرابعة في مطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٣٥٧ هـ . وفي سوريا قامت مكتبة محمد الحلبي بتصوير الطبعة الأخيرة ، ونشرتها بدون تاريخ ، كما قامت مطبعة صبيح بالقاهرة بالعمل نفسه .

اطلعت على نسخة من هذا الكتاب ، الذي نشرته مكتبة الحلبي ، وهي تحمل في نهايتها ختماً باسم مطبعة عيسى البابي وشركاه بمصر ، وهذا يدل على الأصل المصورة منه .

يقول مؤلف هذا الكتاب في مقدمته : قال الإمام العالم شيخ الإسلام جلال الدين السيوطي ، التقطت هذا الكتاب من كلام أبي الطيب ، ومن كلام الأشياخ رحمهم الله تعالى ، ومن كتب شتى ، مبتغيان بذلك الأجر والثواب من الله تعالى ، وبه أستعين في جميع الحركات والسكنات ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

« الحمد لله الذي اخترع من العدم الموجودات ، وأظهر (من الموجودات) ^(١٠) الكائنات ، وأبدع بحكمته ^(١١) في الطبائع الفاعلات والمنفعات ، وأقام الأجسام المتألفات على أربع طبائع مختلفات ، وقدر المنافع والمضرات ^(١٢) ، والأقسام والصفات ، والحياة والمات . (وصلى الله على سيدنا وموانا محمد عدد السكون والحركات) ^(١٣) . »

(أما بعد) ^(١٤) فهذا كتاب مختصر وضعته في علم الطب ، و (هذبت أغراضه) ^(١٥) ، وجعلته جاماً في حال الاختصار ، لتروق ^(١٦) بايجازه القلوب والأبصار ، ويسهل تناوله للطالب ، ودرسه وحفظه للراغب ، وذلك بعد أن أمعنت النظر في أصول ^(١٧) دقائقه ، وخلصت الصافي ^(١٨) من زبد حقاته . فلما تجلّى بالحق القاطع ^(١٩) ، والبرهان الساطع أغرب بالنتهي جميع أصول المناهج العتيدة ، وأعرب (نحو ^(٢٠) المبتدئ فصول) الموارج المفيدة . وسميتها : كتاب الرحمة في الطب والحكمة ، وقصدت بذلك وجه الله الكريم ، وعظيم

ثوابه البسيم ، وقرنت ذلك بحسن الرجاء^(٢١) أن ينفع بما فيه . (وجعلت جملة الكتاب مائة وخمسة وتسعين باباً)^(٢٢)

لا يوجد لهذا الكتاب خاتمة ، كما لا يوجد ذكر للمخطوط الأصلي الذي أخذ منه ، ولا اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ أو الطبع . وما يلفت النظر في هذا الكتاب ، بالإضافة لما سبق ، الأمور الآتية :

١ - لغة المؤلف عربية فصحى ، وسالمة من الأخطاء التحوية غالباً .

٢ - ورد في مقدمة الكتاب أنه يتألف من (١٩٥) باباً ، ولكن عدد الأبواب الفعلية (١٩٦) .

٣ - أسلوب المؤلف يدل على أنه فقيه ، يحسن الاستشهاد بالأيات القرآنية والأحاديث الشرفية .

٤ - تضم أبواب الكتاب مواضيع متنوعة ، تهم الطبيب المتعلم كما تهم الدجال المشعوذ .

٥ - في هذا الكتاب مزيج من الطب التقليدي والطب الشعبي ، بالإضافة إلى طرق مداواة تستند إلى استعمال السحر والتعاويذ والمحجب والرُّقى ..

٦ - من الممكن قسم هذا الكتاب إلى قسمين وأوضاعين :

- القسم الأول ويضم (١٠٥) أبواب ، وتمتاز كلها بأنها تحوي طرق مداواة تقليدية ، وقد وردت في هذا القسم أحاديث نسبت إلى الرسول (ﷺ) دون ذكر الأسناد .

- القسم الثاني ويضم (٩٠) باباً، يبتدئ بعلاج الطحال بالكتابة ، وفيه كثير من أشكال المداواة الروحية، التي تعتمد على كتابة المحجب والأوقاف والطلاسم، وتعاويذ ورقى تتالف من كلمات مبهمة يحرّم الإسلام استعمالها.

٧ - يوجد في الأبواب الأخيرة من الكتاب (١٧٧ - ١٩٠) وصفات لا علاقة لها بعلم الطب والمداواة البشرية ، فهناك وصفات لعلاج جدرى الننم ، ومكافحة الحشرات والحيوانات الضارة ، وصيد الطير والأسماك ، وصنع

سوائل حل الذهب والمعادن الأخرى ، وصنع المداد بألوان مختلفة ، وعمل الليق والصباغ - ودواء يجنب الثوب عن الحريق ، ودبغ الجلد ..

د - كتاب الرحمة في الطب والحكمة :

وهو من تأليف محمد مهدي بن علي الصُّنْبُري ، اليمني المcriء ، المتوفي (٨١٥ هـ / ١٤١٢ م) وتنسب خطأً للسيوطى .

ورد ذكر هذا الكتاب في الجزء الأول من كتاب كشف الظنون ، (ص ٨٣٦) وقال عنه مؤلف الكتاب الأخير :

« وهو مختصر لطيف مفيد ، ذكره ابن الجوزي في (طبقات القراء) ، وابراهيم الأزرق في (كتاب تسهيل المنافع) . كما ورد في (معجم الأطباء) للدكتور أحمد عيسى (ص ٤٩٦) ، بعض المعلومات الإضافية ، عن مؤلف كتاب الرحمة في الطب والحكمة ، مقتبسه من كتاب (النهاية في طبقات القراء) ، جاء فيه « وهو مقرئ فاضل ، وطبيب حاذق ، الت كتاب الرحمة في الطب والحكمة . قرأ على أصحاب ابن شداد ، توفي سنة خمس عشر وثمانين مائة ، ببلدة المهججم من بيت حسين باليمن » .

ولمعرفة المؤلف الحقيقي لكتاب الرحمة في الطب والحكمة رجعت إلى فهارس المكتبة الظاهرية ، والتي تضم أسماء مخطوطات الطب والصيدلة ، فوجدت في فهرس الدكتور سامي حمارنة ثلاثة مخطوطات أرقامها : (٥٥٥١ - ٥٦٢٠ - ٦٦٢٣) . وووجدت في فهرس الأستاذ صلاح الخيمي مخطوطتين أرقامهما : (٤٣٥٨ - ١٠٩٨٦) .

كما وجدت في فهرس مخطوطات الطب والصيدلة ، للدكتور سلمان قطاعية ، نسخة من كتاب الرحمة في الطب والحكمة ، كانت محفوظة في المكتبة الشرقية - الوقفية بحلب ، تحت رقم (١٧٩٩) . وبما أن جميع هذه المخطوطات محفوظة حالياً في مكتبة الأسد بدمشق ، فقد قمت بدراستها، فووجدت ما يلي ب بصورة موجزة :

١ - المخطوط رقم (٥٥٥١) :

وهو بشكل مجموع ، عدد أوراقه (٨٦) ق - قياس (٢١×١٤) سم - المسطرة (١٧ - ١٩) س - الخط نسخ عادي جميل ، المتن بالمبر الأسود والعنوانين بالأحمر . يضم هذا المخطوط كتابين :

أ - مختصر أقربازين ابن سينا ، مجهول المؤلف ، رقم الأوراق (١ - ٣٥) - الناسخ خليل بن الأختانى ، تاريخ النسخ شهر رجب سنة ١٠٦٣ هـ .

ب - كتاب الرحمة في الطب والحكمة ، مؤلفه محمد المهداوي بن علي بن ابراهيم العنبري اليمني الهندي المتوفى سنة ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م الكتاب في الورقة (٣٧) وينتهي بالورقة رقم ٨٦ - تم نقله على يد عبد السلام بن علي بن علي بن محمد الدهنة سنة ٨١٥ هـ مقدمة الكتاب « الحمد لله الذي اخترع من السدم الموجودات ، وأظهر إلى الوجود الكائنات » ، وبعد فهذا كتاب مختصر وضعته في علم الطب ، وهذبت أعراضه وقررت أغراضه ، وجعلته جاماً في حالة الاختصار ليروق بایجازه القلوب . وهو في خمسة أبواب : - في علم الطبيعة وما أودع الله فيها من الحكمة - في طبائع ومنافع الأدوية والأغذية - فيما يصلح البدن في حالة الصحة - أو في المرض - ومعالجتها » .

٢ - المخطوط رقم (٥٦٢٠) :

وهو من تأليف مهدي بن علي بن ابراهيم الصنوبرى (العنبرى) اليمني الهندي المقرى (محمد المهداوي) المتوفى سنة ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) .

مقدمة هذا المخطوط تنطبق على مقدمة الكتاب المنسوب للسيوطى . يقع هذا المخطوط في (٢٥) ورقة ، قياس (٢٤×١٨) سم - المسطرة ٢١ سطرأ - الخط نسخ حديث ، ويضم المتن النص الصحيح وال الكامل لكتاب الرحمة للعنبرى . ولا يوجد في الخاتمة اسم للناسخ ولا تاريخ النسخ ، آخره : الصفة الثالثة لقطع جميع العلل البلغية ثم العلل السوداوية .

٢ - المخطوط رقم (٦٦٢٣) :

وهو مجموع يقع في (١٠٣) ورقات - قياس (١١,٥×١٨,٥) سم - المسطرة (١٩ - ٢٢) س . الخط نسخي واضحة فيه أخطاء لغوية وإملائية كثيرة . يضم هذا المخطوط كتاب الرحمة في الطب والحكمة لمهدى بن علي العنبرى اليمنى، وذلك من الورقة (٢ - ٢٥) . ويوجد بعده فصل عنوانه (فصل شريف في الجبل) . أوله أن سليمان بن داود جمع أبناء وكلمهم عن مواطن الجبل . وفي هذا المخطوط مقططفات من مؤلفات عديدة لم يذكر عنوان كل منها ولا اسم مؤلفه .

٤ - المخطوط رقم (١٠٩٨٦) :

تأليف المحقق المدقق ، كنز الحكمة والمعرفة ، وممدن اللطائف ، المتصوف الجهيد المعروف بالأزرق الشیخ الیمانی . مقدمة الكتاب تنطبق مع مقدمة الكتاب المطبوع مع بعض التصرف ، وقد أشرت إليه بالحاشية . يعود المخطوط إلى القرن الماضی . الخط عادي ومستعجل ، فيه كثير من الأخطاء النحوية والإملائية .

عدد الأوراق (٣١) - القياس (١٦×٢٢) سم - المسطرة (٢٢) سطراً . سقطت منه الورقة الأخيرة، لذلك لا يوجد فيه اسم الناشر ولا تاريخ النسخ . وهذا المخطوط كتب بنفس المقلم والزمان الذي كتب به المخطوط (٥٦٢٠) .

٥ - المخطوط رقم (٤٣٥٨) :

وهو مجموع مخروم الوسط والأخر . عدد أوراقه الباقية (٦٨) ورقة ، قياس (١٢×١٢) سم . المسطرة (١٩) سطراً . يضم هذا المخطوط كتابين الأول (جامع المنافع البدنية للجويين) لم يذكر اسم مؤلفه ، أوراقه (١ - ٣٦) ويليهما فهرس في الورقتين (٣٧ - ٣٨) . أما الثاني فهو (كتاب الرحمة في الطب والحكمة) ، من الورقة (٣٩ - ٦٧) وبعدها يوجد فوائد من غير الكتاب ، ويليهما وصفة سحرية تتعلق بالباء . والخطوط نسخة أصلية قديمة وهو بحالة سيئة بتاثير الأرض . وهو مخروم الوسط بعد الورقة (٤٥) ، وغروم الآخر ، لذلك

لا يحمل اسم الناشر ولا تاريخ النسخ · والخط سيء مستعجل نسخي والمداد الأسود ، وبعض العناوين بالأحمر · وبعد فحص الفهرس العام ، والموجود في الورقتين (٣٧ و ٣٨) من هذا المخطوط، تبين أنه كان بالأصل يضم ستة مؤلفات وهي :

- ١ - كتاب مفقود، لم يذكر اسمه، وضاعت فهرسته ، كما جاء في اسفل الورقة رقم (٣٧) ·
- ٢ - كتاب الرحمة في الطب والحكمة ، بيدها من الورقة ٣٩ ، وقد دون على أحد وجهيها بخط حديث وحرف كبيرة (كتبه أبوحنيفة الكوفي) · ولم يرد في الفهرس رقم الورقة الأخيرة من هذا الكتاب ·
- ٣ - كتاب براء ساعدة لأبي بكر الرازي ·
- ٤ - كتاب دستور الطب (يتالف من اثنى عشر بابا) وهو مجهول المؤلف ·
- ٥ - رسالة الفوائد (يتالف من اثنى عشر بابا) مجهولة المؤلف أيضاً · · ·
- ٦ - كتاب جامع المنافع البدنية (وفيه عشرون بابا) لم يذكر اسم مؤلفه ·

مقدمة كتاب الرحمة في هذا المخطوط تماثل تقريباً مقدمة كتاب الصنيري ، وفيها أنه اختصر جملة الكتاب أيضاً في خمسة أبواب، عدّها فجاءت كما وردت في المخطوط (١٠٩٨٦) · ولكن ما ورد بعد ذلك في المخطوط يختلف تماماً مما ورد في كتاب الرحمة في الطب والحكمة للصنيري · وأول ما يلفت النظر في المخطوط (٤٣٥٨) وجود طلاسم وأوقاف وتماويد تماثل ما ورد في الكتاب المطبوع والمنسوب للسيوطى · وإذا كانت بعض العناوين في الكتاب المذكور تتفق مع ما ورد في المخطوط إلا أن الكتاب المطبوع فيه كثير من التفصيل والترتيب · وعلى كل يمكن أن يعد كتاب الرحمة ، الوارد في هذا المخطوط، مرجعاً لمن قام بتصنيف الكتاب المطبوع ودمجه مع كتاب الصنيري ، مع كثير من الإضافات ·

وفيما يلي فهرس كتاب الرحمة كما جاء في المخطوط :

الباب الأول : في علم الطبيعة ، وما أودع الله فيها من حكمة – فصل في الأخلاط الأربعية – فصل في الأمزجة ·

الباب الثاني : فصل في الأغذية التي هي الطعام والادام والفاكه وغيرها – فصل في مفردات الأدوية التي يعالج بها المرض ·

الباب الثالث : فيما يصلح للبدن في حال الصحة : في الأكل والشرب ، تدبير الحركة ، تدبير السكون ، تدبير النوم ، تدبير اليقظة ، تدبير الجماع ، تدبير الأهوية ، العوارض النفسية ، تدبير أعضاء البدن الصالحة ، تدبير جملة البدن ، تدبير العين ، الأسنان ، تقليم الأظفار ، المعدة ، البول ، تنفسية الرأس .

الباب الرابع : تدبير الأمراض الخاصة بكل عضو من الرأس الى القدم : داء الثعلب - صلاح الشعر - خفة الرأس ، الكلف ، الصداع ، وجع الأذن ، العين ، الزكام ، الرعاف ، وجع الأضراس والأسنان ، نفع الفم ، البغر ، بحة الصوت ، السعال ، نفث الدم ، وجع الفؤاد ، القولنج ، أمراض المعدة ، الفوّاق ، وجع السرة ، الطحال ، الاستسقاء ، الوباء ، اطلاق البطن ، الزحير ، الموبدان ، سلس البول ، حصر البول ، الحصاة ، الباه ، خروج المقعدة ، البواسير ، التواسي ، عرق النساء ، الملحق ، داء الفيل ، الداحس .

الباب الخامس : في الأمراض العامة المتعلقة بالبدن : العيادات ، النافض ، الشبوان ، الدبوران ، الماليخوليما ، الصرع ، العشق ، السكتة ، الفالج ، البرص ، الجذام ، العرب ، العزاز ، الكف السوداء ، الثليل ، البرد ، المنازير ، الدنامل ، القرود ، الجروح ، ضرب السياط ، العرق المديني ، حرق النار ، عض الكلاب ، عضة الكلب الكلب ، السموم ، لدع الأفاعي ، وجع المفاصل والظهر ، البرقان .

فصل في ذكر أصول كلها نافعة ، وفيه أربع صفات لقطع الملل من الطبائع الأربع : الصفراوية ، الدموية ، البلغمية ، السوداوية .

هـ - رسالة (ما رواه الوعون في أخبار الطاعون) :

في مكتبة التكية الصديقية بحلب كان يوجد نسخة مخطوطة من هذه الرسالة رقمها (١٢٨) ، وقد نقلت الى مكتبة الأسد ، وأصبح رقمها (١٧٣٦٥). وقد جاء في أولها :

« هذه رسالة في الطاعون (لجلال الدين) السيوطي ، المتوفى سنة ٩١١ هـ »

(١٥٠٥ م) ، اختصرها من كتاب (بندل الماعون) لابن حجر عليهما رحمة الله » .
عدد أوراق الرسالة (١٢) ورقة، القياس (٢٢×١٦) سم، المسطرة (٢٤) سطراً .
الخط نسخي حديث . لا يوجد تاريخ نسخ ولا اسم للناسخ . وقد جاء في
مقدمة الرسالة ما يلي :

« بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين . قال الشيخ العالم العلامة
جمال الدين ابن الشیخ الإمام العالم العلامة كمال الدين السیوطی الشافعی
رحمه الله : الحمد لله مقدر الأرزاق والأجال ، والصلة والسلام على سيدنا
محمد والصحب والآل . هذا جزء انتسبت فيه ما ورد في أخبار الطاعون ،
اختصرته من (كتاب) بندل الماعون ، لشیخ الاسلام ابن حجر . فاتیت
بالمقصود وحذفت الأسانید ، وما وقع على سبيل الاستطراد » .

لقد جاء في كتاب كشف الظنون (ج ١ - ص ١٥٧٤) :

« ما رواه الواعون في أخبار الطاعون ، لجلال الدين السیوطی ، المتوفى سنة
٩١١ هـ . أوله الحمد لله يقدر الأرزاق والأجال ٠٠٠) اختصر فيه كتاب بندل
الماعون لابن حجر ، وأورد فيه مقامة ابن الوردي والصفدي والمقامة الدرية ٠٠٠
وهذا يدل على أن ناسخ الرسالة قد أخطأ بكتابه اسم مؤلفه ، فجعله
جلال الدين بدل جلال الدين ، كما أخطأ باسم الكتاب فقال بندل الواعون بدلًا
من بندل الماعون .

تكلم السیوطی بعد المقدمة عن مبدأ الطاعون فقال : « أخرج الشیخان ،
واللفظ لمسلم ، عن أسامة بن زید ، أن رسول الله (ص) قال : إن هذا الطاعون
رجز ، وبقية عذاب عذب به قوم ، وفي لفظ لها قبلكم ، وفي لفظ له ، رجز
أهلک الله به بعض الأمم . وقد بقي في الأرض منه شيء يجيء أحياناً . ثم أورد
السیوطی ذكر الطاعون الذي أصاب قوم فرعون في مصر فأهلک منهم سبعين ألفاً .
اما فيما يتعلق بتعريف الطاعون فقد اعتمد السیوطی على حديث أخرجه
الطبراني في الأوسط عن ابن عمر قال : « قال رسول الله (ص) فناء أمتي في الطعن
والطاعون ، قلنا قد عرفنا الطعن فما (هو) الطاعون ؟ - قال وخر أعدائكم
من الجن » .

– وعلى حديث آخر أخرجه أبو علی عن عائشة (ر) أن النبي (ﷺ) قال : « وخذة تصيب أمتی من أعدائهم من الجن ، غدة كفدة الايل ، من أقام عليها كان مراطعا ، ومن أصيب به كان شهيدا ، ومن فر منه كان كالفار من الزحف » .

– وأخرج البزار عنها قالت : « قال رسول الله (ﷺ) الطاعون يشبه الدمل ، يخرج في الآباط والمراق ، وفيه تزكية أعمالهم ، وهو لكل مسلم شهادة » .
ويقول السيوطي إن هذه الأحاديث تبطل قول الأطباء « أن الطاعون مادة سمية تحدث ورماً قتالاً ، وأن سببه فساد جوهر الهواء » . وقد أبطل ابن القيم في الهدي قول الأطباء هذا بوجوه منها :

- ١ - وقوع الطاعون في أعدل الفصول .
- ٢ - وقوعه في أصح البلاد هواءً وأطيبها ماءً .
- ٣ - ومنها لو كان من الهواء لعم الناس والحيوان .
- ٤ - قد يأخذ الطاعون أهل البيت باجمعهم ولا يدخل بيته يجاورهم .
- ٥ - يدخل الطاعون بيته فلا يصاب منه إلا البعض .

لقد عدد السيوطي الطواعين التي وقعت في بلاد المسلمين فقال :

– كان أولها طاعون عمّواس (أو عمّواس) . وهو موضع في بلاد الشام ، وكان في خلافة عمر (ر) .

– وفي كتاب ابن أبي حجلة : أول طاعون وقع في الاسلام على عهد النبي (ﷺ) ، في السنة السادسة للهجرة بالمدائن ، ولم يمتد فيه على الأغلب أحد من المسلمين . ثم وقع بالكوفة في حياة ابن مسعود ، ثم في حياة أبي موسى الأشعري ، ثم وقع بها في إماراة المغيرة بن شعبة .

– وفي مدينة البصرة وقع طاعون الجارف ، وسمي بذلك لأنّه جرف الناس كما يجرف السيل الأرض . وقيل كان في سنة ٦٩ وقيل سنة ٧٠ وقيل سنة ٧٦ هـ . ومات فيه لأنس بن مالك (٨٣) ولدأ . قال سبط بن الجوزي : ولم يمتد فيه من أهل الشام إلا يسير منهم .

- ثم وقع الطاعون بمصر سنة ٦٦ ثم سنة ٨٥ ووقع بالبصرة سنة ٨٧ ، وهو طاعون الفتى .

لقد عدد السيوطي عدداً كبيراً من الطواعين التي حلت بالبلاد العربية إلى أن قال : ثم كان الطاعون العام سنة ٧٤٩ هـ ، ولم يعهد له نظير في الدنيا ، فانه طبق الأرض شرقاً وغرباً ، ودخل مكة المشرفة، ووقع في بعض الحيوانات أيضاً ، وعمل فيه ابن الوردي مقامته المشهورة، وسماها (النبا عن الوباء) ، وتوفي مصاباً به .

- لقد أسلب السيوطي بالكلام عن عدم دخول الطاعون للمدينة المنورة ومكة المشرفة ، كما جاء في عدد من الروايات ، لكنه قال ان مكة دخلها طاعون سنة ٧٤٩ ، وعلل ذلك بأن حُرمتها انتهكت بسكنى الكفار فيها .

- وتكلم السيوطي عن الوباء الذي انتشر في بلاد الشام ، عندما خرج إليها الخليفة عمر بن الخطاب (ر) لفتح بيت المقدس ، وكيف اختلف الصحابة بين مؤيد لدخول البلاد أو الابتعاد عنها . فجاء عبد الرحمن بن عوف (ر) وكان متغرياً ، فقال : « إن عندي من هذا لعلماً - سمعت رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) يقول « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه . وإذا وقع وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه . وقد روى أسامة بن زيد حديثاً بهذا المعنى . »

- سال بعضهم السيوطي عن الأسباب الحقيقة لمرض الطاعون ، أهوا ناجم عن فساد الأمزجة والهواء ، أم عن اختلاف النذاء ؟ - فأجابه شرعاً :

بحمد الله يحسن الابتداء وللمختار سيدنا الشفاء
سالتَ فتَخَذْ جوابك عن يقينِ فما أوردتَ عندهم هباء
فما الطاعون أفالك ولا أن مزاج ساء أو فسد الهواء
رسول الله أخبر أن هذا بوخز الجن يطعننا العداء
يسلطهم إله الحق لما بهم تفشوا المعاishi والزناء
يكون شهادة في أهل خير ورجساً لللاؤلى بالشر ياموا
أتانا كل هذا في حديث صحيح ما به ضعف وداء

- ثم اتهم السيوطي كل من يخالف هذا الاعتقاد فقال :

ومن يترك حديثاً عن النبي لما قال الفلسفه المفاه
فذلك ماله في العقل حظ ومن دين النبي هو البراء

– يقول ابن الوردي في مقامته (النبا عن الوبا) ، والتي مطلعها « الله لي بعدة من كل شدة » ، حسبي الله وحده ، أليس الله بكاف عبده ٠٠٠ طاعون روع وأمات ، وابتداً خبره في الظلمات . ياله من زائر من خمس عشرة سنة داير « ثم ذكر كيف أن الطاعون جاء من الصين إلى مصر ، ثم إلى فلسطين فدمشق ، ثم طلب حلب ولكنه ما غالب . فهو والله الممدوالمنة أخف وطأة ٠٠ » ثم وصف ابن الوردي أعيان حلب ، وهم يطالعون من كتب الطب الفوامض ، ويكترون في علاجه من أكل النواشف والمواضع . وقد تنفص عيشهم الهني ، بمحلاحة التقطين بالطين الأرمني . وقد لاطف كل منهم مزاجه وعدآل ، وبخروا بيوبتهم بالعنبر والكافور والمسعد والصندل ، وتختموا باليواقيت ، وجعلوا البصل والخل من جملة الأدام ، وأتوا بالأمراء والفاكهه ، وقد مموا للمرضى الأترج والتوت وما شابهما .

ويؤكد السيوطي في رسالته أن أفضل وسيلة لعلاج الطاعون هي الدعاء والصلوة على النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، مع استعمال أزهار البنفسج . وختم رسالته بدعاء مطلعه : هلم بنا نستغث بـ الله في رفعه فهو خير مغيث .

و – كتاب إتمام الدرایة لقراء النقایة :

وهو كتاب مدرسي ، ألفه جلال الدين السيوطي ، وجعله على نمط كتاب مفاتيح العلوم للعالم محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي المتوفى عام (٧٨٣ - ٩٩٧ م) .

يوجد من هذا الكتاب ، في مكتبة الأسد بدمشق ، خمس نسخ مخطوطه وكتاب مطبوع على الحجر ، وفيما يلي أرقامها وأوصافها :

١ – المخطوطة رقم (٣٢٣٨) :

نسخة نفيسة ، على غلافها إطار نقوش مزخرفة . وهو من أوقياف أسعد باشا العظم والي دمشق ، على مدرسة والده الحاج اسماعيل باشا . على غلافها

الداخلي يوجد قيد تملك باسم علي العمري سنة ١٠٣٧ هـ ، وأخر باسم محمد بن عثمان الهوس سنة ١٠٦٤ هـ والمخطوط بحالة جيدة ، كتب بخط نسخي جميل بالمداد الأسود ، وكتب العناوين ورءوس الفقر بالمداد الأحمر .

عدد الأوراق (١٠٣) ق - القياس (١٥×٢٠,٥) سم - المسطرة (٢١) سطراً . نسخت في التاسع والشرين من ربيع الأول سنة ١٠٠٣ هـ .

٢ - المخطوطة رقم (٣٢٣٩) :

سجل على غلافها الداخلي أنها وقف للوزير محمد باشا والي الشام بتاريخ سنة ١١٩٠هـ . وعليها قيدها بقلم اسماعيل بن الجراح العجلوني ، المدرس تحت القبة في الجامع الأموي سنة ١١٣٠هـ .

هذا المخطوط يقع ضمن مجموع ، ويشكل القسم الأول منه . لا يوجد في نهايته اسم للناسخ ولا تاريخ النسخ . وهو من مكتوبات القرن الحادى عشر للهجرة . الخط نسخي وبالمداد الأسود والأحمر ، وعلى هامشه بعض التعليقات . المدد (٧٠) ورقة - القياس (٢١×١٤,٥) سم - المسطرة (٢٥) سطراً .

٣ - المخطوطة رقم (٣٢٤٠) :

وهو من أوقاف المدرسة المرادية (بدمشق) ، وعلى الورقة الأولى قيد تملك باسم عبده محمد بن الحسين الكوراني سنة ١١٢٩ هـ . الكتاب مفروظ الأوراق ويحتاج لترميم . الخط نسخي بمداد أسود والعنوانين بالأحمر ، وعلى الهامش كثير من التعليقات والفوائد ، وكتب في نهايته : كان الفراغ من كتابة هذه النسخة المباركة يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٩٩٦هـ ، على يد علاء الدين البابلي الغمري الشافعي - عدد الأوراق (٨٩) ورقة - القياس (٢١×١٥) سم المسطرة (٢٥-٢١) سطراً .

٤ - المخطوطة رقم (٣٢٤١) :

وهي المخطوطة الأول ، في مجموع يضم كتاباً آخر للسيوطى عنوانه (مفحمات القرآن في مبهمات القرآن) . والمجموع مفروظ الأوراق ، ويحتاج

لصيانته ، وعلى هامشه تصويبات وتعليقات ، وعلى الورقة الأولى منه كتب أنه وقف باسم الحاج مصطفى بن درويش العلبي ، على من ينتفع به من طلبة العلم في ١٥ شوال سنة ١٢٤٥ هـ . عدد الأوراق (٥٤ - ١٥) - القياس (٢٠ × ٢٧) سم - المسطرة (٢٦) سطراً .

٥ - المخطوطة رقم (٣٢٤٢) :

وهي بحالة جيدة ، كتب على الورقة الأولى منها : وقف عثمان الكردي على أرحامه ، وعلى طلبة العلم من المسلمين . وعلى الورقة الثانية ، وتحت عنوان الكتاب وفوقه ، كثير من الفوائد ، وكذلك على هامشه وعلى الورقة الأخيرة والغلاف . نسخ هذا المخطوط سنة ١١٧٥ هـ ، الخط نسخي جيد ، وبالمدادين الأسود والأحمر . عدد الأوراق (٩٦) ورقة - القياس (١٦ × ٢١) سم - المسطرة (١٧) سطراً .

٦ - كتاب إتمام الدرية لقراء النقاية :

وهو مطبوع على الحجر عام ١٣٠٩ هـ ، وقد جاء على غلافه : إن السبب في طبعه ، لتعيم نفعه ، الأجل الأمجاد ، الكامل المكرم ، محمد الشيرازي ، الملقب بملك الكتاب ، لازال لكل خير عام .

مقدمة الكتاب ، بعد بسم الله الرحمن الرحيم :

« الحمد لله على نعمه السابقة الشاملة . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . شهادة بالنجاة من الأهوال كافية ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ذو الأوصاف الجميلة الكاملة ٠٠٠ وبعد .

فلما ظهر لي تصويب الملحقين على في وضع شرح على الكراسة التي سميتها بالنقایة ، وضمنتها خلاصة أربعة عشر علماً ، وراعيت فيها غاية الإيجاز والاختصار . وأودعت في طي الفاقعها ما نشره الناس في الكتب الكبار . بحيث لا يحتاج الطالب معها إلى غيرها ، ولا يُحرم الفطن التأمل لدقائقها من خيرها ، بادرت إلى ذلك ، قصداً لعموم العائدة و تمام الفائدة ، وأبرأنا لما انا باستغرابه أخرى، إذ صاحب البيت بما فيها أندى» .

كان كتاب (إتمام الدرية لقراء النقاية) كتاباً تعليمياً مرغوباً من قبل العلماء وطلاب العلم ، وذلك خلال الفترة المتقدمة بين القرنين العاشر والرابع

عشر للهجرة ، بدليل أن أكثر مخطوطاته كانت موقوفة للتدريس، ومنسوبة خلال تلك الفترة . كما أن املاء هواش تلك المخطوطات بالتعليقات والفوائد دليل أيضاً على كثرة استعمالها من قبل الأساتذة والطلاب .

مقارنة بين كتاب إتمام الدرایة وكتاب مفاتيح العلوم :

إن كلاً من هذين الكتابين يعتبر جاماً مختصرًا لمتون العلوم العربية ، الدينية والدنوية . وقد قسم أبو عبد الله محمد بن أحمد الحوارزمي كتابه مفاتيح العلوم إلى مقاطتين :

المقالة الأولى : خصصها لعلوم الشريعة ، وما يقترن بها من العلوم العربية ، وهي تضم ما يلي :

- ١ - الفقه (١١) فصل . ٢ - الكلام (٧) فصول . ٣ - النحو (١٢) فصلان .
- ٤ - الكتاب (٨) فصول . ٥ - الشعر والعروض (٥) ٦ - الاخبار (٩) فصول .
فصول .

المقالة الثانية : خصصها كما يقول لعلوم العجم ، من اليونانيين وغيرهم من الأمم . وتضم ما يلي :

- ١ - الفلسفة (٣) فصول . ٢ - المنطق (٩) فصول . ٣ - الطب (٨) فصول .
- ٤ - الارتماطيقي (٥) فصول . ٥ - الهندسة (٤) فصول . ٦ - علم النجوم (٤) فصول .

- أما كتاب إتمام الدرایة لقراء النقاية ، فيضم العلوم الآتية ، وإلى جانبها عدد صفحات كل منها :

- ١ - أصول الدين (٣-٢١) . ٢ - علم التفسير (٢٢-٥٣) . ٣ - علم الحديث (٥٦-٧٩) .
- ٤ - علم أصول الفقه (٣-٨٠) . ٥ - علم الفرائض (٩٤-٩٦) . ٦ - علم النحو (١٠٦-١٢٥) .
- ٧ - علم التصريف (١٢٤-١٢٦) . ٨ - علم الخطب (١٣٥-١٣٩) . ٩ - علم المعاني (١٤٠-١٥٩) .
- ١٠ - علم البيان (١٦٠-١٦٨) . ١١ - علم البديع (١٦٩-١٨٠) . ١٢ - علم التشريع (١٨١-١٩٠) .
- ١٣ - علم الطب (١٩١-٢٠٢) . ١٤ - علم التصوف (٢٠٣-٢٢٢) .

يقول السيوطي : إن هذه العلوم يحتاج إليها الطالب ، ويتوقف كل علم ديني عليها . إذ منها ما هو فرض عين : وهي أصول الدين والتتصوف . ومنها ما هو فرض كفاية ، إما لذاته وهو التفسير والحديث والفرائض ، أو لتوقف غيره عليه ، وهو الأصول والنحو وما يبعدهما . ومنه الطلب الذي يُعرف به حفظ الصحة ، المطلوبة للقيام بالمبادرات والقيام بالماش ..

و سنكتفي فيما يلي ببيان ما تكلم عنه السيوطي في علم التشريح والطب : يقول السيوطي لقد قدّمت التشريح على الطب لأنّه منه كنسبة التصريف للنحو . لأن التشريح يبحث عن ذات البدن وتركيبها ، أما الطب فيبحث عن الأمور العارض لها . ولما كان الطب لمعالجة الأمراض الظاهرة الدنيوية ، لذلك (يستحسن) أن يعقبه التصوّف الذي تعالج به الأمراض الباطنة الأخرىوية .

لقد وصف السيوطي في مبحث التشريح عظام جسم الإنسان والأعصاب والأوتار والمضلات والثرياء والأوردة والدماغ والعين .. وهو وصف سطحي يراد فيه تعداد ومعرفة أسماء مختلف أقسام الجسم وأجهزته .

لم يذكر السيوطي ، خلافاً لعادته ، المرجع العلمي الذي استقى منه هذا الوصف ، ولكنه أورد ذكر جالينوس عن وصفه للقلب ، ثم تابع وصفه لبقية الأعضاء الداخلية من كبد وطحال وكليتين ومثانة وحالبين وأعضاء تناسل .

وختم كلامه في التشريح بحديث منقول عن مسلم ، عن عائشة (ر) قالت « قال رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) : إن الله خلق كل انسان منبني آدم على (٣٦٠) مفصلاً . فمن كبر الله وحد الله ، وهلّ وسبّح واستغفر ، وعزل حبراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظماً ، وأمر بمعرفة أونهى عن منكر ، عدد الستين والثلاثين ، فإنه يمشي يومئذ وقد ذحر نفسه عن النار » .

اما علم الطب فقد عرّفه السيوطي كما عرّفه ابن سينا بأنه حفظ صحة وبرء مرض . ثم قام السيوطي بتعريف بعض المصطلحات التي كانت متداولة في علم الطب ، ثم بيّن وظائف بعض الأعضاء فقال : الأركان : نار وهواء وماء وتراب – الغذا : جسم من شأنه أن يصير جزءاً شبّهها بالمفتشي – الخلط :

جسم رطب سيال يستحيل إليه الفداء أولاً - الأخلاط هي : دم وبغم وصفراء وسوداء - إذا استقر الفداء في المعدة . انهضم فيصير كيلوساً ، أي جوهراً سيالاً يشبه ماء الكشك الشخين . ثم ينجدب لطيفه فيجري في عروق متصلة بالأمعاء ، فيصل إلى العرق المسمى بباب الكبد . . . الخ . إن هذا الشرح يدل على أن السيوطي كان على اطلاع لا باس به على علم وظائف الأعضاء وأسباب الأمراض . وقد ورد في هذا البعث بعض الأحاديث الشريفة التي كان قد ذكرها السيوطي في كتابه « المنهج السوي في الطب النبوى » .

لقد اقتبس السيوطي بعض أقوال موفق الدين البغدادي ، دون أن يذكر اسم كتابه ، فقال : قال موفق الدين البغدادي « الداء خروج البدن أو المضبو عن اعتداله ، بأحدى الدرجات الأربع ولا شيء منها إلاّ له ضد ، وشفاء الضد بضده . وإنما يتعدّر استعماله (أي الدواء الشافي) للجهل به أو فقده ، أو موانع أخرى . أما الهرم فهو أضمحلال طبيعي ، وطريق إلى الفداء ضروري ، فلم يوضع له شفاء ، والموت أجل مكتوب ، لا يزيد ولا ينقص ، وفي كل شيء دواء إلاّ الخمر » .

ولدى ذكر الخبر استطرد السيوطي فروى عن مسلم أن طارق بن سويد سأله النبي (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) عن الخبر فنهاه ، فقال: إنما أصفها للدواء، فقال الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): إنها ليست بدواء ولكنها داء . وفي لفظ آخر: إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليها . وروي عن السبكي في قوله تعالى « ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس » قال كل ذلك قبل التعرير، فلما حرمت سلبت المنافع كل مصحح أو مرض .

وختم السيوطي بعثه في علم الطب بجملة من الفوائد قال :

- قال ابن جماعة ينبغي أن يكون الطبيب صدوقاً عدلاً ، صاحب ذكاء وحذق ومهارة وصبر ونصيحة .

- ومعلم الطب ينبغي أن يكون كذلك، بعد استكماله في صناعته ، والمتعلم ينبغي أن يكون خيراً ذكياً .

- يجوز أن يطيب الرجل امرأة بالعكس ، بشرط حضور معمر أو
 نحوه . - يسن (للمريض) التداوى ، فان تركه توكلًا ففضيلة - إطعام
 المريض ما يشتهيه (مستحسن) . - يكره الدعاء بالضرر وتنبي الموت لأجله .
 - ليس يصيب المؤمن وصب ولا تعب ، حتى الشوكة يشاكلها ، إلا
 كفر بها من خطایاه ، أو رفع بها درجات ، كما صح بذلك الأحاديث .
 من ذلك يتبيّن لنا أن السيوطى كان فقيهًا ، وأدبه لغويًا أكثر منه طبیبا .
 بينما كان الغوارزمي عالماً رياضياً فيلسوفاً متكلماً ، ولم يشتهر بالفقه
 ولا الطب ، وإن كتب فيما .



المواثي :

- | | |
|---|--|
| ١١- حكمته .
١٢- المشارّات .
١٣- جملة غير موجودة في المخطوط المذكور .
١٤- وبعد .
١٥- وهدب به اعراضه وقربت اعراضه في المخطوط المذكور .
١٦- لبروق .
١٧- احوال .
١٨- المصانى .
١٩- ونوضخ بالبرهان .
٢٠- (لعمى ثم متنى وصول) .
٢١- الرجاء فيه (هذه التصويبات من المخطوط المذكور أيضاً) .
٢٢- بدل هذه الجملة (واختصرت جملة الكتاب في خمسة أبواب) . | ١- اترجم : كياد .
٢- إلصد : الكلل الأسود .
٣- إهليخ : ثغر نبات هندي له عدة أنواع .
٤- سوتون : شمرة .
٥- سوانك : أعاد الاراك .
٦- فاغية : ذهر العنان .
٧- قسط : نبات له عدة أنواع يستعمل جذرها .
٨- كبات : ثغر الاراك .
٩- القاموس المعيط للغينوزيادي ، مؤلفه مجد الدين محمد
ابن يعقوب (ت ٨١٢ هـ) .
١٠- بدل هذه الجملة (إلى الوجود) في مخطوطه كتاب الصنبرى
(رقم ١٠٩٨٦) . |
|---|--|



اللغة وأحرفه في شعركشاجم

د. مسعود بُو بُو

- ١ -

كشاجم هو أبو الفتح محمود بن حسين الرملي المتوفى سنة ٣٥٠ هـ . ووُجِدَت ترجمته على ظهر ديوانه على الوجه التالي^(١) :

هو محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك الكاتب المعروف بكشاجم . هو من أهل الرملة من نواحي فلسطين ، كان رئيساً في الكتابة ، ومقدماً في الفصاحة والخطابة ، له تحقيق يتميز به على نظرائه ، وتدقيق يربو به على أكتفائه ، وتحديق في علوم التجميم أضمر فيه شعلة ذكائه ، فهو الشاعر المفلق ، والأديب المدقق ، لقب نفسه بكشاجم ، فسئل عن ذلك فقال : الكاف من كاتب ، والشين من شاعر ، والألف من أديب ، والجيم من جواد ، والميم من منجم . وكان طبّاخ سيف الدولة (المُهَمَّدَانِي) له كتاب المصايد ، وأدب النديم . نشر ديوانه بيروت سنة ١٣١٣ هـ . قال فيه بعضهم :

يا بُؤسَّ من يُمني بِلمع ساجمٍ يَهْمِي على حُبِّ الفؤاد الواجب
لولا تَعَالَّلَه بِكَاسِ مَدَامَةٍ وَرَسَائِلِ الصَّابِيِّ وَشِعْرِ كَشاجمٍ

- ٢ -

و قبل النظر في طبيعة لغته العبرية وخصائصها يستحسن أن نقف عند مفهوم العرفة وصلتها باللغة عند علماء اللغة المحدثين .

أما مفهوم المعرفة فيطلق اليوم على العمل الذي يؤديه الإنسان ليتحقق به دخلاً، أو على المهنة التي يزاولها ليكسب منها عيشه، أو ليرضي بها ميله و هو اهتماته أو لينفذ أوامر أذرمه بهذه الشاطئ الإنساني أو ذاك . وتدرج المعرفة عند العرب في جملة الصنائع التي عرفوها في تراثهم وحضارتهم . وقد كانت حرفهم قد يبدأ بسيطة معدونة توافق طبيعة حياتهم وحاجاتهم التي يستدعيها السكن والكساء والطعام وما يتفرع عن ذلك من آلية الحياة . ولعل ابن خلدون من هنا قرر أن «العرب أبعد الناس عن الصنائع ، والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري»^(٢) .

ولأن المعرفة لم تنتشر في المجتمع البدوي فقد أنف العرب الاشتغال بها وتركوا أمور خدماتهم للعبيد أو الأسرى أو الاماء^(٣) ، فضلاً عن أن حياة العمل والترحال والغزو والاغارة والصيد لم تكن تتيح لهم التروي في العمل اليدوي الذي تتطلب حرفهم البسيطة . لكن المرب ، عندما اختطوا العواصي والمدن وعرفوا مجتمعات الاستقرار والتحضر ، اتسعت بهم الحاجة إلى المعرفة والصنائع ، وفرزت طبقة من العرفيين الذين صار لهم أسلوافهم ومعالمهم الخاصة ، وانتظم كثير منهم في ما يشبه النقابات التي كانت تسمى «الأصناف» ، مما دفع بالسلطات الإدارية في الدولة إلى الاهتمام بهذه الطبقة : رعاية ، وتنظيم ، ورقابة ، وفق ضوابط أو قوانين تتفق مع طبيعة المصلحة والبيئة ونوعية المعرفة . وتطور نظام الإدارة في الدولة العربية حتى عرف نظام النقابات والعسبة والمحاسب^(٤) .

وليس في النية الافتراضية في الحديث عن اتساع دائرة المعرفة والصنائع وما يتصل بذلك من أنظمة وتصنيف للعرف ومراتبها ونظرية المجتمع إليها وإلى أصحابها ، فلذلك موضع آخر^(٥) ، إنما يريدربط لغة المعرفة هنا بالدراسات اللغوية الحديثة لنصل إلى غرضنا الأساسي .

- ٣ -

ففي علم اللغة الحديث Linguistics شاع مصطلح يسمى : «علم اللغة النظمي INSTITUTIONAL LINGUISTICS» وهو علم يدرس لغة لدى جماعة

ذات طبيعة عمل واحدة ، أو ممَّن يمكن أن تضمهم نقابة أو حرفه واحدة ، وبتعبير آخر : هم من ذوي اختصاص واحد ..

وفي ميدان علم اللغة الاجتماعي يجري الحديث عن هذا الجانب عند رصد لغة المواقف الاجتماعية، إذ يتناول علماء اللغة المحدثون مستويات الأداء اللغوي بالتحليل ويصنفون نوعية اللغة الموافقة لكل موقف ، مما سُمِّيَّهُ علماء البلاغة العرب « لكل مقام مقال »؛ فالحديث مع الطفل يتطلّب تغيير لغة موافقة للخطاب والمحاورة والتواصل ، وقل مثل ذلك عن الحديث مع العجوز ، أو الم الدين ، أو المرأة ، أو العرفي ، أو المفكّر .. وإذا ما تفهمّنا مثل هذه الحالة كان بمقدورنا أن نتصوّر اللغة الخاصة التي يمكن أن يستخدمها أصحاب العرف للتواصل والحديث والتعبير عن مكتنوات النفس والمنازع الداخلية ، والتفسير النفسي ، أو « المونولوج » الداخلي الذي يسمّيه بعضهم تيار الوعي .

ولا ينفي أن تؤخذ في رصد ذلك بظواهر الأداء أو المحاكاة اللغوية ، فكثيراً ما يتکلف الشاعر أو الناشر (الروائي أو المسرحي) محاكاة طائفة من الجماعة الكلامية ذاتها إلى إتقان التصوير الواقعي ، ولكنَّ بعض مفرداته قد تكشفه وتدلّل على انتماهه إلى جماعة أخرى لم يستطع أن يتخلص كلياً من موروثاتها اللغوية أو عاداتها الكلامية ، فيبدو شبيهاً ببعض الشراء في تصرّفاتهم المرتبكة أو المضطجعة ، أو يبدو غير متقن لاصطلاحات الجماعة ولا ممسك بمقاييس أسرارهم .. وأحياناً يكون لأصحاب العرف رموزهم اللغوية التي يتتفقون عليها وتشيع في دائرة وحدها ، كما في المجتمعات الضيّقة للمهربين أو المشتغلين بالنشاطات السرية والسلع الممنوعة ..

ولأصحاب العرف من الشعراء بوعائهم ودواعيمهم الخاصة في اصطفاء الفاظ وثيقة الصلة بطبيعة عملهم . فقد يكون ذلك تطرفاً ، أو تقرّباً من الكبار ، أو لاضحاكم ونيل عطاياهم ، وقد يكون للشكوى أو للتسريحة عن النفس أو لا يراز براعتهم في أعمالهم .. أيّما حال ، تظل تعبيرهم ولهجاتهم تنم على نوعية مشاغلهم ، وترشح باللون الذي تلوّن به حياتهم الخاصة وما

يعطيه بها من بيئته ومخالطين ، وهذا ما يسمى في علم اللغة الحديث بالعقل الدلالي SEMANTIC FIELD .

وشاورنا كشاجم كان من شعراء العرف ، وفي مرأة شعره تتعكس الفاظ حرفة الطبخ والكتابة على نحو يلفت نظر المتأمل المدقق ، من مثل ذلك قوله في الطبخ^(٦) :

بالمحرص في الرزق يذل الفتى والصبر في الشرف الشامخ
ومستزيد في طلب الفنى يجمع لحما ماله طابع
يضيع ما نال بما يرتجى والنار قد يطفئها النافع

يريد كشاجم هنا أن يحلّي شعره بالحكمة مستقيعاً التقير الذي قد يعيّل صاحبه مُعْدَّاً خسراً ، ولكنه لا يستطيع أن يتخلص داخلياً من أثر حرفة الطبخ ، بل يُبقي رائحته ترشع من الفاظ لا تخرج بعيداً عن العقل الدلالي لعرفته . فالرزق والحرص والذل والصبر والتضيبيع كلمات لا فراها غريبة أو نائية عن حرفة الطباخ ، فضلاً عن أن الشاعر يكشف النقاب عن ملامح حرفةه بالفاظ اللحم والطبخ والنار والنفخ والاطفاء ، يريد أن يزيّن الصبر ويزري بالبغل فيصوغ هذا بلغة الحسن ، وباللفاظ ذات الدلالات المادية ، على حين أن ميدان الحكمة الاقناع وتحريض الذهن على المحاكمة وتدبر منطق القول ..

ومن مظاهر إلحاده على توظيف حرفة الطبخ أو الافاده منها لغويًا واستثمار صورها وتأثيراتها في نفسه قوله^(٧) :

ولعمان مما امسكته كلابنا علينا وما صيد بال شبكات
طعم اذا ما شئت باشرت طبغه علم، كثرة من غلتمي وطهاتي

فهذا الصيد وفَرَ له ولن معه طعاماً كان بمقدوره أن يصفه فيقول : شهياً، أو لذيناً ، أو كثيراً ٠٠ كما ألفنا عند نظرائه من الشعراء ، ولكنه يعدل عن ذلك ويميل إلى الحديث عن حرفة في الطبخ ، وكأنه يتلذذ بذكر الطبخ والطهاء ، أو لأن للعرفة عليه حقاً لا معدى عن أدائه .

ويتكرر ذكر المطبخ على نحو آخر يوحى للمتأمل بأن هناك سبباً خفياً
لما واده ترداد هذه اللفظة ، كما يُلحظ في هذه الأبيات التي كتب بها إلى صديق
بعد رحلة صيد أخرى وفيرة المصيلة ، يقول^(٨) :

واحوزنا من الدنرا ج ما الرحل به ضاقا
فاطعمت وأهديت إلى المطبخ أوساكا
وخير اللعم ما ألقه الجارح اقلاما
فكل من شاك الله مشويا وامراقا

ومع المطبخ تحتشد دلالات وثيقة الصلة بعالم هذه الحرفة، كطائر الدُّراج
والاطعام واللعم والجراح والأوساك (جمع وَسْقٌ : مكيلة معلومة وهي ستون
صاعاً أو حمل البعير أو العربة والسفينة^(٩)) والشفاء والشواء
والامراق^(١٠) . وكرم الطابع الذي يبدو مُحملاً بالفخر والبساطة
وتتلون اللغة بالوان الطعام ، ويصطفيها الشاعر على وفق صناعته في الطبخ ،
كما في قوله يصف صناعة القطائف (نوع من الحلوي)^(١١) :

عندي لاضيافي اذا اشتدرت السُّقُب
قطائف مثل قراتيس الكتب
كانه اذا تبدى عن كتب
كواثر النمل بياضا وثقب^(١٢)
قد مج دهن اللوز مما قند شرب
وابتل ممَا عَمَّ فيه ورسب
وجاء ماء الورد فيه وذهب
وغاب في السكر عينا واحتجب

هذا المزج في التشبيه بين القطائف والقراطيس شاهد على ما يقبل في غبطة
الشاعر من صور حرفتي الطبخ والكتابة وأدواتهما ومستلزماتها التي تتناقلها
يداه وتتابعها عيناه . ويتبدى اللون القرطاسي الأبيض في البيت الثاني
تشبيهاً بكواثر النمل الصغيرة البيضاء . ثم يعشد من الفاظ مادة صناعته : دهن
اللوز ، وماء الورد ، والسكر . . . ويزجها بالفاظ الابتلاء ، والعلوم ، والشرب ،
والمج (الامتصاص) . . . التي يستحضرها لتكون عَذْته ، فهي من لوازم الأكل
أو الأضياف الذين دعاهم .

وتتسع دائرة هذا الاهتمام المركي لتعاود الظهور في كثير من طرديات ورحلات صيده الجماعية ، ولكنها تبقى دوائر تحت سيطرة اللغة التي لا تخفيها أقنعة الشعر أو أثوابه المبدلة ، كما يمكن أن يلحظ المتأمل من قراءة هذه الطردية التي يصف فيها كلام الصيد ، حيث يقول^(١٢) :

توسعنا صيداً فمطبوخٌ ومشويٌ خليطٌ
وباشق نبي نخوة على الطيور ذا سخطٍ
يهبط بالطير معًا اذا علا ثم انهبطٍ
غداً فارئي حَجَلاً منها وزرّاجاً وبطٍ
وفائقاً من الاوزِ والحمامِ والمبسطٍ

وهذه الوليمة التي مسئولتها با الصيد تفوح منها لغة مشبعة برائحة الطيور ، الطيور باسمها العام الصريح ، وبأنواعها الصائدة والمصيّدة : الباشق ، والجل ، والدراج ، والبط ، والاذْوَز ، والحمام ، والبطة .. ولكن الشاعر - قبل أن يحتسب مادة صناعته - يعالجنا بغيرات من صميم مهنته كالطبع والخلط والشواء ، وربما كان الأوفق إرجاءها لتعقب ذكر الطير والطيور !

ويعاوده ذكر الطبع في موضع آخر وكأنه ظل يلاحقه ، أو لفظ استعدبه فلا يمل " ترديده ، يقول^(١٤) :

لَا شرائح من ظبي قنصناه وعند طباخنا جلي قرضناه

ولا يخفى على المتبع أن يستحسن نزوع الشاعر التبيء إلى استحضار المفردات التي تضلّ ضمن إطار العقل الدلالي لعرفة الطبع : كالشرائح ، والقنص ، والظبي ، والطباخ ، والبطة ، والبجي ، والقرض ، أي القطع بالقراضين .. فما الذي يبقى من ألفاظ البيت ؟!

ويقول في بيت آخر^(١٥) :

أغثتنا فاتنا قد فلتمنا ورَوْنَا من الرائق المطبوخ وليك ممسولاً

ولا نجد كبير عناء في تلمس الذائقـة المسـيـة المـنـدـسـة فيـ الـفـاظـ : الـقطـاـ ،

والري ، والرائق ، والمطبوخ ، والمسوول . وما شيء منها يبعيد عن دائرة اهتمام محترف الطبخ ..

وتريك تعابيره اللغوية أنه ذو بصر طيب بتفاصيل أداء حرفه ، وذو شغف ملحوظ بقص أخبارها وأسرارها كما يمكن أن يستخلص القارئ من تأمل هذه الأبيات التي يصف فيها دجاجة ، أو طبخ دجاجة ، يقول^(١٦) :

دجاجة في سِمَنِ السَّمَنْدِ
عقِيمَةُ الزَّورِ كصلبِ نَهَدِ
مُرْهَفَةُ ذاتِ شَبَّاً وَهَدِ
بل رغبة فيها شبيه الزهد
لفرق بين ريشها والجلد
حتى اذا انفعها بالوقد
وغلبت بعد بماء الورد
نبيلة وفخرها بالهنـدـ

والسـمـنـدـ : كلمة فارسية الأصل تعني الفرس المائل لونه إلى الصـفـرـةـ ، والمقصود بالمرهفة ذات الشـبـاـ : المدية ذات الشـفـرةـ أو المـدـ الشـدـيدـ القطـعـ ، ومفرد الشـبـاـ : شـبـاءـ ، وتقـالـ للستـانـ والعـقـربـ . والذـحـلـ : الضـغـينةـ والـمـقدـ الدـفـينـ^(١٧) . وهذا الاستعراض التـفصـيليـ من شـاعـرـنا يـكـادـ يـنـطـقـ بـسـرـ المـهـنةـ ، إـذـ يـتـدرـجـ الشـاعـرـ مـنـ وـصـفـ الدـدـاجـاجـ بـالـسـمـنـ إـلـىـ ذـبـحـهاـ فـتـفـقـهـاـ فـتـفـصـيلـ أـعـصـائـهاـ حتـىـ إـنـضـاجـهاـ بـالـثـارـ ، ثـمـ يـصـبـ عـلـيـهاـ دـهـنـ اللـوزـ وـيـنـلـيـهاـ بـمـاءـ الـوـرـدـ . ولا يتـرـددـ المـرـءـ كـثـيرـاـ فـيـ القـوـلـ: إـنـ شـعـرـاـ كـهـذاـ يـنـبـيـغـيـ أـنـ يـكـونـ قـدـ صـدـرـ عـنـ صـاحـبـ حرـفةـ وـلـوـ لـمـ يـغـبـرـ بـذـلـكـ إـذـ لـاـ يـتـصـوـرـ أـنـ شـاعـرـاـ اـتـبـاعـيـاـ أـوـ روـمـانـسـيـاـ أـوـ عـادـيـاـ يـكـنـ أـنـ يـتـقـصـيـ مـثـلـ هـذـهـ التـفـصـيلـاتـ أـوـ يـشـغـلـ نـفـسـهـ بـتـقيـيدـ خطـوـاتـ عـمـلـ لـاـ يـعـضـيـ بـغـرـ اـهـتـمـامـ الطـهـةـ فـيـ الـأـعـمـ الأـغـلـبـ . إـنـ مـوـضـوـعـاـ يـعـجـ بـالـفـاظـ : السـمـنـ ، والـزـورـ ، والـصـدرـ ، والـسـكـنـ ، والـرـيشـ ، والـبـلـدـ ، والـأـعـضـاءـ ، والـنـفـسـ أوـ الـانـضـاجـ ، وـصـبـ اللـوزـ ، وـالـزـبـدـ ، وـالـغـلـيـ بـمـاءـ الـوـرـدـ .. يـفـضـيـ بـالـقـارـيـءـ أـوـ يـخـرـجـ بـهـ مـنـ مـطـبـخـ تـلاـحـقـهـ الرـوـاـيـعـ وـالـدـهـونـ فـيـوـشـكـ عـلـىـ مـسـارـعـةـ إـلـىـ الـاسـتـحـمامـ ..

ويعرض في قصيدة أخرى لمصيّد المدعو ألواناً من الأطعمة والبقول
والملوى والمسميّات مما لا يتسع المجال لايقاده تفصيلاً . من ذلك مثلاً^(١٨) :

وحرّيفٍ من البنين به الأوساط مقرونة
وباذجان داراني به نفسك مفتونة
وهلّيون ، وعهلي بـك تستعن بـهليونه
ولوزٍ تجعَّة في الدهن وفي السكر مدفونة
وعندي لك دستيجة مطبخ وقنينة

وتتزاحم في القصيدة الفاظ : الجدي ، التعنع ، البقل ، الطرخون ، المفرخ ،
الزور ، الطيهوج ، الفرّوج ، السبوج ، الطروين ، البيض ، الزيتون . . . إلخ .
وهذا التزاحم الشبيه بسوق الحضار غني عن كل إضافة أو تعليق !

وكشاجم كان كاتباً إلى جانب حرفة الطبخ كما قدّمنا ، والمقصود بالكتابة
هنا : النسخ والتخيير ، أو الكتابة الديوانية ، لا كما نفهم اليوم من مدلول الكلمة
الكاتب بصفته الابداعية ، ويمكن أن نستنتج ذلك بيسر ووضوح حين نتأمل
الأبيات التالية التي يذكر فيها سكين دواة له سرت (أي السكين) ، يقول^(١٩) :

ما يستحلتون من سرق السكاكيين
في ذات حـدِّ كحد السيف مسنون
ولست لو ساعني ظـنْ بمغبون
منها دواة فـتـي بالكتب مفتون
كانت على جائز الأقلام تعذيني
نعتا وتسخطهما فـلتـا فـترضـينـي
تنوب للعين عن نور البساطـينـ
عادتـ بـعـضـ خـدـودـ الخـرـعـ العـيـنـ
يا قاتـلـ اللهـ كـتابـ الدـواـويـنـ
لـقدـ دـهـانـيـ لـطـيفـ مـنـهـمـ خـتـلـ
فـابـتـزـنـيـهاـ وـلـمـ يـشـفـرـ بـهـ عـبـشـاـ
وـاقـفـرـتـ بـعـدـ عـمـرـانـ بـمـوقـعـهاـ
تـبـكـيـ عـلـىـ مـدـيـةـ أـوـيـ الزـمـانـ بـهـاـ
كـانـتـ تـقـوـمـ اـقـلامـيـ وـتـنـعـتهاـ
فـاضـحـكـ الطـرسـ وـالـقـرـطـاسـ عـنـ حلـلـ
اـذـ بـشـرـتـ بـهـ سـوـدـاءـ مـنـ صـحـفـيـ
إـلـيـ أـنـ يـقـولـ :

في القلب مني وفي الأحساء تفريبني
بواجد عوضاً منها بسكين
كـانـتـهاـ حـينـ يـشـعـبـينـيـ تـذـكـرـهاـ
فـلـسـتـ عـنـهاـ بـسـالـ ماـ حـيـتـ ولاـ



ظاهر القصيدة يوحى بسرد حادثة عارضة هي سرقة سكين ، ولكن مضمون النص الشعري يرشح بضلال العلاقة الإنسانية بين الشاعر وأدواته في حرف الكتابة، أو قل بين الشاعر وعالمه الخاص بين كتاب الدواوين ، أو بينه وبين عالمه الداخلي . فهذه العلاقة العميقة ترسم المدللات اللغوية ملامعها وقساماتها بكثير من الألفة والاحتفاء بها . ومناط هذه العلاقة الحميمة الفاظ مثل : (الباء، والشجاعي ، والتذكرة ، وافتقاد السلوان والموضع منها ، (والسكين تؤثر وتنفذ) . ولكن طرف هذه العلاقة : الشاعر والسكين ، لا يستثاران بالوان الرصيد اللغوي المبثوث في نسيج القصيدة ، ولا تستحوذ السكين على خياله كله ، بل يُفرد بعضَ نظرَه وعقله لكمّلات الصورة الأصل ، وتتمدّ الرؤوس كلمات مثل : (الدواة ، الكتب والافتتان بها ، الأقلام ، النحت ، القط ، الطرس ، القرطاس ، الصحف .. وكلها لفاظ تنتهي صراحة إلى (العقل الدلالي) لحرف الكتابة . والمقصود بالنحت: بري القلم وقرره ، والقطط : القطع عامة ، ويتجه في الاستخدام إلى القطع العرضي . أما الطرس فهو الكتاب الذي مُحي ثم كتب ، أو الصحيفة . والقرطاس: الورق ، ويرى بعض اللغويين المحدثين أن الكلمة دخلة من اليونانية بلفظ « خارتس » .

ولعل أبرز ما ينم على أثر حرف الكتابة في شعر كشاجم قوله في وصف أجزاء القرآن^(٢٠) .

وكان الخطوط فيها رياض
وكان البياض والنقطة الستو
وكان السطور والذهب السا
 وهي مشكولة بعدها أشكا

إن الخطوط ، والصيغة ، والبياض ، والنقطة . السود ، والسطور ، والتشكيل ، والقراءة . مفردات تصنف بدلاتها في إطار « فن الكتابة » وأدواتها وأصول إجاده الخط وتحسينه ، وكذلك التذهيب الذي يعني الكتابة بماء الذهب ، مما شاع في حرف الورقة . ويُقرن بهذا قوله^(٢١) :

لا احب الدواة تُخشى يرعاها تلك عندي من الديوي معيبة
قلم واحد وجودة خط فإذا شئت فاستزد أنبوية



هذا الحكم الذي ارتضاه كشاجم في حرف الكتابة جاء بعد خبرة وذرية وتجربة جعلته يفضل الاكتفاء بقلم واحد قد يُعزّز بأنبوبة من القصب لبعض الأغراض المكتابية كتخصيط العنوانات والديباجات ، أو « خطبة الكتاب » . والدَّنْوِيَّ : جمع الدواة (ما يكتب منه) ، وتجمع في القليل على دَوَيَّات ، مثل نَوَيَّات وَقَنَوَات ، جمع نواة وقناة . كما تجمع الدواة على دَوَىَّات ، مثل نوى ، جمع نواة (٢٢) . واليَّارِع : القصب تُتَعَذَّذُ منه الأقلام . والأنبوبة : ما بين العقدتين في القصب والقناة (٢٣) .

ومن الشواهد اللغوية على مدى تأثره بهذه الحرفة قوله يصف تحت الحساب والرمل (٢٤) :

وقلم مداده ترابٌ في صحف « طورها حسابٌ
يكشر فيه المعو والأضراب من غير أن يُسوءَ الكتابٌ
حتى يبين الحقَّ والصوابَ وليس بعجمٍ ولا إعرابٍ

ولا يخفى على المتأمل أن النسيج اللغوي الذي حيكت منه هذه الأبيات كان كلـه – ما عدا كلمة الحق – من صميم لوازم الحرفة، ومن مفردات المقل الدلاني الخاص بها ، مما يُظهر مدى تأثير حرف الكتابة في لغة الشاعر وإمساكها بزمام العقل الباطن له ، حتى ليبدو التعبير اللغوي عنده صدى لا يقعها الداخلي في وعيه ، أو في « اللاإوعي » كما يعبر المشتغلون بالفلسفة وعلم النفس ؛ ففي صَبَوَاتِه وتعلَّقه بمن يحب ، أو بمن يشغله يظلُّ أسير هذه السيطرة الحرافية ، كما يستخلص من قوله في الحب (٢٥) :

رأيته في الطُّرسِ يكتب مرأةً غائطًا ويوصل محوه برضابه
فوددت أني في يديه صحفةً وودته لا يهتمُّي لصوابه

فالطُّرس والكتابة والغلط والمحو والصحفة والصواب هنا ألفاظ تتعاون في مشاعره وتنبض في هذه العلاقة الإنسانية (الحب) كطvier أليفة تحظى على كثافته وتملي عليه فيكتب .. وعلى غرار ذلك تلاحقه النهاية المعرفة في وصف حسانه في إحدى طردياته حيث يقول (٢٦) :

كان متنيه اذا ديع بشخص فاختلط
احسن ما يكتتب في الـ قرطاس من شكل وخط

وما ألفنا في أوصاف الخيـل - على كثرتها - مثل هذا التشبيه الجـيد ،
ولكنه ضرب من أثر لغة المـرفة وأدواتها لم يستطع الشاعـر أن يـفلـتـ من إسـارـه ،
ولعلـه يـسوـغـ هذا المسـلـكـ بـقولـهـ (٢٧) :

لم تـرـتـنيـ قـطـ بـاريـاـ قـلـماـ فيـ بـرـيـهـ مـهـنـةـ مـعـاـ وـضـعـةـ

وـكـانـهـ يـداـفـعـ عنـ حـرـفـهـ وـيـبـرـّـتهاـ منـ شـبـهـ المـهـانـةـ أوـ الـوـضـاعـةـ الـلـتـيـنـ قدـ
يرـمـيـهاـ بـهـمـاـ بـعـضـ مـنـ كـانـواـ ماـ يـزـالـونـ يـنـظـرـونـ إـلـىـ الـحـرـفـ نـيـظـرـةـ اـزـدـرـاءـ ،ـ بـلـ
ترـاهـيـ مـوـضـعـ آـخـرـ يـتـذـخـذـهاـ سـبـيلـاـ لـلـفـخـرـ وـالـبـاهـةـ ،ـ كـمـاـ فـيـ قـوـلـهـ (٢٨) :

سـلـ بـسـيـ وـبـالـأـيـامـ تـعـرـفـ .ـ اـنـيـ اـبـنـ دـهـرـ لـيـسـ يـنـصـفـ .ـ
وـبـلـاغـةـ مـعـرـوفـةـ .ـ سـهـلـةـ .ـ وـأـخـطـاهـ التـكـلـفـ .ـ
وـسـطـورـ خـطـ مـوـنـقـ .ـ فـيـ الـطـرـسـ كـالـثـوبـ الـمـفـوـقـ .ـ

وـالـخـطـ الـمـؤـنـقـ :ـ الـمـعـجـبـ ،ـ مـنـ الـأـنـاقـةـ .ـ وـالـثـوبـ الـمـفـوـقـ :ـ بـرـدـ"
رـقـيقـ مـخـطـطـ .ـ عـلـىـ هـذـهـ الصـورـةـ تـتـفـيـرـ تـدـريـجـياـ النـظـرـ إـلـىـ الـعـرـفـ ،ـ فـتـصـبـحـ ،ـ
بـتـطـورـ الـبـنـىـ الـاجـتمـاعـيـةـ ،ـ مـحـلـ فـخـرـ وـأـمـدـاحـ ،ـ وـيـحاـوـلـ الشـاعـرـ أـنـ يـقـيمـ
نوـعـاـ مـنـ الـمـصالـحةـ وـالـوـئـامـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ حـرـفـهـ مـنـ جـهـةـ ،ـ وـبـيـنـهـ وـبـيـنـ مـنـ لـاـ يـرـونـ
فـيـ اـتـخـادـ الـحـرـفـ اـخـتـيـارـاـ حـمـيدـاـ ،ـ أـوـقـلـ إـنـ نـوـعـاـ مـنـ الـأـلـفـةـ نـشـأـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ
أـدـوـاتـ هـذـهـ الـصـنـاعـةـ فـرـاحـ يـتـعـذـدـ مـنـهـاـوـسـيـلـةـ لـلـفـخـارـ فـيـ سـطـورـ الـخـطـ الـأـنـيقـ
يـزـرـكـشـ الـوـرـقـ الـأـبـيـضـ ،ـ فـيـبـدـوـ ذـلـكـ الـوـرـقـ مـزـدـانـاـ بـالـتـحـاسـينـ كـالـثـوبـ الـمـفـوـقـ .ـ
وـشـبـيـهـ بـهـذاـ قـوـلـهـ (٢٩) :

وـسـطـورـ خـطـلـتـهـاـ فـيـ كـتـابـ مـثـلـ غـيـمـ السـحـابـ الرـقـاقـ

وـتـصـيرـ حـرـفـ الـكـتـابـةـ أـدـأـهـ لـلـتـعـرـيـضـ عـنـدـ الـمـواـزـنـةـ بـيـنـهـ وـبـيـنـ مـنـ يـحـاـوـلـ أـنـ
يـجـارـيـهـ أـوـ يـدـانـيـهـ فـيـ هـذـاـ الـفـنـ الـذـيـ قـطـعـ فـيـهـ شـاؤـاـ بـعـيـداـ ،ـ يـقـولـ فـيـ هـذـاـ (٣٠) :

وـزـعـمـتـ أـنـكـ فـيـ الـكـتـابـةـ مـنـدـرـكـ .ـ شـاوـيـ وـقـلـتـ سـلاـحـنـاـ الـأـقـلامـ
مـيـهـاتـ تـلـكـ صـنـاعـةـ مـزـوـجـةـ .ـ فـيـهـ صـبـاحـ وـاضـعـ وـظـلـامـ
هـذـاـ الـحـدـيدـ سـلاحـ أـبـطـالـ الـوـغـيـ .ـ وـبـهـ يـرـيقـ دـمـاءـنـاـ الـمـجـائـمـ

أي لا يكفي أن تعمل الأقلام مثلـ لتصير نظيري ، فما كل من حمل قلماً صار كاتباً ؟ إن هذه الصناعة تنطوي على نقاصين : الأبيض كالصباح الواضح الألاـق ، والأسود الحالك المظلم . والعديد كالأقلام ، وكما يستعمله الفرسان في العروب والمارك ، كذلك يستعمله العجـام في العـجمة (والعـجمة حرفـ العـجمـان الذي يمتص الدماء بالـحـجـم ، ولم تكن حـرفة حـمـيدـة على كلـ حال) . وشتـان ما بين العـجمـانـ والفارـسـ البـطـلـ ، كانـ الشـاعـرـ يـريـدـ أن يقولـ : إنهـ الفـارـسـ المـجلـتـيـ فيـ هـذـاـ المـيدـانـ ؟

ولشـدةـ شـفـفـهـ بـهـذـهـ حـرـفـ تـبـدوـ أـشـعـارـهـ عـنـهـ أوـ فـيـهاـ ضـرـبـاـ مـنـ التـعـصـبـ وـالـانتـصـارـ لـهـاـ ، وـيـسـوـهـ أـلـاـ يـحـسـنـ بـعـضـهـ تـقـدـيرـ قـيـمـتـهـ ، بـلـ قـدـسـيـةـ عـنـاصـرـهـ ، كـماـ يـمـكـنـ أـنـ نـجـدـ فـيـ هـذـهـ الأـبـيـاتـ (٢١) :

غـدرـتـ بـكـسرـ دـفـترـناـ وـعـهـدـيـ بـالـأـدـيـبـ ثـقـةـ
فـخـذـهـ وـارـدـهـ قـيـمـتـهـ وـلـاـ تـسـتـفـمـنـ وـرـقـهـ
فـلـسـتـ أـحـبـ لـلـبـنـاـ وـإـنـ يـتـادـبـواـ صـدـقـةـ
وـقـوـلـهـ فـيـ الـمـوـضـوـعـ تـفـسـهـ (٢٢) :

مـاـ يـكـسرـ الدـفـترـ إـلـاـ الـتـيـ يـرـغـبـ فـيـ قـيـمـةـ أـورـاقـهـ
أـوـ عـاجـزـ لـمـ يـسـتـطـعـ نـسـخـهـ فـضـاقـ عـنـ أـجـرـةـ وـرـاقـهـ

وكـسرـ الدـفـترـ هـنـاـ : تـقطـيعـهـ اوـ تـمزـيقـهـ ، إـمـاـ لـأـخـذـ الـأـورـاقـ الـبـيـضـ الـتـيـ لمـ يـكـتبـ فـيـهـ لـلـفـاـدـةـ مـنـهـاـ فـيـ الـكـتـابـةـ ، وـإـمـاـ لـأـخـذـ الـأـورـاقـ الـمـكـتـوبـ فـيـهـ لـلـفـاـدـةـ بـمـاـ تـضـمـنـتـهـ مـنـ مـاـدـةـ مـعـرـفـيـةـ ، وـيـرـىـ أـنـ الـأـفـضـلـ فـيـ مـثـلـ هـذـهـ الـحـالـ الـأـخـرـيـةـ أـنـ تـنـسـخـ الـمـاـدـةـ الـمـكـتـوبـةـ ، وـأـنـ يـقـيـ الـدـفـتـرـ كـاـمـلـاـ مـنـ غـيرـ كـسـرـ ، وـيـنـمـ هـذـاـ عـلـيـ حـرـصـ دـاخـلـيـ دـفـيـنـ عـلـىـ الـتـعـامـلـ مـعـ عـنـاصـرـ هـذـهـ حـرـفـ بـكـثـيرـ مـنـ الـاجـلـانـ وـالـتـقـدـيرـ ، وـلـلـعـلـ مـاـ يـقـوـيـ هـذـاـ الزـعـمـ أـنـاـ لـاـ نـجـدـ شـعـراءـ آخـرـينـ تـنـاـولـواـ مـشـلـ هـذـاـ الـأـمـرـ بـالـنـظـمـ وـالـاهـتـمـامـ ، لـكـنـ الشـاعـرـ كـشـاجـمـ مـخـلـصـ لـهـنـتـهـ ، مـمـتـلـيـ بـهـاـ ، حـرـيـصـ عـلـىـ إـحـاطـتـهـ بـكـلـ أـسـبـابـ الـرـعـاـيـةـ وـالـحـمـاـيـةـ حـرـصـهـ عـلـىـ إـيـصالـ هـذـاـ الشـفـفـ بـهـاـ إـلـىـ الـآخـرـينـ وـحـضـمـهـ عـلـىـ مـشـلـ هـذـاـ الـاهـتـمـامـ وـالـتـعـلـقـ بـهـاـ .

وبهذه الجولة القصيرة في شعر كشاجم نكون قد وقفنا على جوانب من الظواهر اللغوية التي رصدناها في شعر العرفة عند هذا الشاعر ، مكتفينا من شواهده بهذا القدر المعتبر عما توخيته، ويمكن تلخيص هذه الظواهر في المخطوط العريضة التالية :

- ١ - كانت الصدارة في هذا البعث الموجز للألفاظ اللغوية « المفردات » في دلالاتها وسمياتها وإياعاتها ، وأغفلنا الأسلوب والبلاغة والصورة الشعرية وغير ذلك مما يتم بعثه تحت مصطلح الدراسة الأدبية أو النقدية . ولقد استطاعت تلك الحصيلة من المفردات التي استخدمها الشاعر في نظمها العريفي – إذا صح التعبير – أن ترسم إطاراً عاماً لعرفتي الطبع والكتابة على ما قررت اللغة ..
- ٢ - بتبعته هذه الطائفة من المفردات ونسقها في قصائد أو أبيات استطاع الشاعر أن يرسم صورة أو لوحة لطبيعتي العرفتين مفيداً من ظلال الدلالات وإياعاتها وتوظيفاتها ، مما جعل سانكون فكرة كافية عن العرفة في إطارها الاجتماعي ، وعن علاقة الشاعر بها ، وعن أدواتها وموادها الأولية ..
- ٣ - يكن الالامح إلى أن قدرأ قليلاً من المصطلحات قد تخلل الشواهد الشعرية المتقدة ، وخاصة في حرف الكتابة ، كالنحت والقطع وبشر الصحفة والنَّقْطُ والاعجام والمحفوتشكيل والاعراب والتذهب والتوريق .. مما يعطي فكرة كافية عن شيوع هذه المصطلحات واستقرارها ..
- ٤ - تبين من استقراء الشواهد الشعرية أن قدرأ من الكلمات الدخينة قد شاب عربية الشاعر الفصيحة ، وخاصة في مفردات مهنة الطبع ، كالبازنجان واللوز والباشق والسمَّاندو الهليون واللوزينج (نوع من العلوب) والدستيج (وعاء يعمل باليد) والدواوين والبساتين .. وكلها من اللغة الفارسية مما ينبغي عرض العيادة الاجتماعية للفرس في اللغة والمجتمع العربيين إثر اختلاط الشعبين : العربي والفارسي بعد الاسلام . ويستخلص من استعراض

مفردات الشاعر أنه كان أميل إلى استخدام المسميات والمعاني المادية
الحسية التي كان لها الغلبة على الألفاظ الذهنية المجردة .



□ المواشي والاحوالات :

- | | |
|--|--|
| <p>١٥- الديوان ، ص ١٨٦ .</p> <p>١٦- الديوان ، ص ٥١ .</p> <p>١٧- في الديوان المطبوع : « الغير ما دخل » ، والصريح
ما أبنته بقررت فقط العقد المراده للداخلن .</p> <p>١٨- الديوان ، ص ١٧٩ .</p> <p>١٩- الديوان ، ص ١٧٤-١٧٥ .</p> <p>٢٠- الديوان ، ص ٧ .</p> <p>٢١- الديوان ، ص ٩ .</p> <p>٢٢- اقتضاب : الاقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن السيد
البطشنليوسى ، ص ٨٢ ، دار العليل - بيروت ، ١٩٧٣
واللسان : دوا .</p> <p>٢٣- اللسان : نسب .</p> <p>٢٤- الديوان ، ص ١١ .</p> <p>٢٥- الديوان ، ص ١٣ .</p> <p>٢٦- الديوان ، ص ١١٤ .</p> <p>٢٧- الديوان ، ص ١٢٣ .</p> <p>٢٨- الديوان ، ص ١٢٨ .</p> <p>٢٩- الديوان ، ص ١٣١ .</p> <p>٣٠- الديوان ، ص ١٦٠ .</p> <p>٣١- الديوان ، ص ١٣١ .</p> <p>٣٢- الموضع السابق .</p> | <p>١- انظر ديوان الشاعر كشاجم ، ص ٣-٢ ، طبع في بيروت
بالطبعية الائمة سنة ١٣١٢ هـ .</p> <p>٢- مقدمة ابن خلدون : ٤٠٢ ، دار احياء التراث العربي
ط ٤ ، بيروت .</p> <p>٣- انظر « أدب الصنائع وأدبيات العرف » ، ص ٣٨ وما
يعلمه ، للدكتور محمود سالم محمد ، دار الفكر ،
دمشق ١٩٩٣ .</p> <p>٤- السابق ، ص ٤٠-٤١ .</p> <p>٥- تزيد من الاطلاع انظر المرجع السابق ، ص ٣٨
وما يعلمه .</p> <p>٦- ديوانه ، ص ٣٧ .</p> <p>٧- نفسه ، ص ١٩ .</p> <p>٨- نفسه ، ص ١٢٩-١٣٠ .</p> <p>٩- المعجم الوسيط : وسق ، دار احياء التراث العربي ،
الطبعة الثانية ، لبنان .</p> <p>١٠- الامراق : إكثار المرق ، وهو الماء اغلبي فيه اللعم
فصار دسما .</p> <p>١١- ديوان كشاجم ، ص ١٠ .</p> <p>١٢- نقى الشئ ، والنلون : توهنج واشتلت حرته ، ومنه
عود النقاب .</p> <p>١٣- الديوان ، ص ١١٥ .</p> <p>١٤- الديوان ، ص ١٨٢ .</p> |
|--|--|



العرب

يُصنفون مَعْارِفَهُمْ بِالشِّعْرِ

د. عَادل الفريجات

نقصد بالتأليف بالشعر عند العرب تنظيم الكتاب أو المصنف شرعاً ، سواء كان هذا الكتاب لغوياناً أو نحوياً ، أو صرفيماً ، أو عروضياً، أو بلاغياً ، أو أدبياً قصصياً ، أو فقهياً ، أو زراعياً ، أو ملاحيماً ، أو فلكياً ، أو رياضياً ، أو كيميائياً ، أو طبيماً ، أو تاريخياً .. .

والحقيقة أننا سنعني فيما يلي من هذه الدراسة آثاراً شعرية تتصل بكل علم من العلوم السابقة . وربما نذكر تتفاً من الأشعار التي كانت قوام كل مؤلف أو مصنف للتدليل والتمثيل .

كان العرب ، وما زالوا ، أمة الشعر ، فالشعر كان ، منذ الماهلية ، قبر ينثال على كل لسان أو يكاد! وكانت العرب تعلي شأن الشاعر أياماً إعلاء ، فقبائلهم حين يتبغ فيها شاعر «أتني القبائل لتهنتها»، وتصنع الأطعمة ، وتجمع النساء ليلعبن في المزاهر ، كما يصنعن في الأعراس ، ويتبasher الرجال والولدان لأنّه حمامة لأعراضهم ، وذب عن أحاسيبهم ، وتخليد لتأثيرهم ، وإشادة بذكرهم » . (العمدة ١ : ٦٥) .

إن الروح الشعرية الطاغية قد ضربت جذورها في أعماق النفس العربية ، ثم سرت في دماء العرب عامّة ، فألت بالشعر إلى أن يحتل مكانةً سامية في النفوس والعقول معاً ، حتى إن بعض المصنّفين والعامّلين في ميدان التأليف



والبحث لم يتردد في التباهـي بموهـبـتـهـ الشـعـرـيـةـ، فـسـخـرـهـاـ لـلـتـأـلـيفـ وـالـتـصـنـيـفـ ، وـرـاحـ يـنـظـمـ بـعـضـ مـعـارـفـهـ شـعـراـً ، وـخـاصـةـ تـلـكـ الـتـيـ بـرـعـ فـيـهاـ وـتـعـمـقـهـاـ وـأـحـصـاـهـاـ ، وـذـلـكـ تـقـلـيـدـاـ لـرـوـنـقـ النـظـمـ وـظـلـمـهـ الـخـفـيـفـ، عـلـىـ جـفـافـ النـثـرـ وـظـلـهـ الـثـقـيلـ ، وـرـغـبـةـ فـيـ تـسـهـيلـ حـفـظـ ماـ يـرـىـ نـفـعـ فـيـ حـفـظـهـ، فـرـواـيـةـ الـشـعـرـ الـمـضـطـرـبـ الـوـزـنـ ، تـذـكـرـ القـارـئـ أـوـ السـامـعـ ، بـأـنـ خـلـلاـ فـيـ قـدـ وـقـعـ فـيـتـارـكـ ماـ اـخـتـلـ ، وـيـتـذـكـرـ ماـ سـقـطـ ، وـيـصـحـ ماـ جـاءـ فـاسـداـ ٠٠٠ـ فـتـأـتـيـ الـمـلـوـمـةـ صـحـيـعـةـ وـكـامـلـةـ وـمـضـبـوـطـةـ ،

وـالـأـمـلـةـ عـلـىـ مـاـ تـقـدـمـ كـثـيـرـةـ ، بـلـ وـكـثـيـرـ جـداـ ، فـفـيـ مـيدـانـ اللـفـةـ ، وـهـوـ مـيدـانـ صـالـ فـيـ الـعـرـبـ وـجـالـواـ ، وـاستـأـثـرـ بـالـبـلـمـ مـنـ جـهـودـهـ الـفـكـرـيـةـ ، نـقـعـ عـلـىـ مـنـظـمـةـ فـيـ «ـغـرـبـ اللـفـةـ وـشـرـحـ»ـ لأـبـيـ بـكـرـ مـعـمـدـ بـنـ الـقـاسـمـ الـأـنـبـارـيـ (ـ٢٢٨ـ هـ)ـ عـنـوـانـهـاـ «ـقـصـيـدـةـ فـيـ مـشـكـلـ الـلـفـةـ»ـ نـشـرـهـاـ الـأـسـتـاذـ عـزـ الدـينـ الـبـيـسـويـ الـنـجـارـ فـيـ مـجـلـةـ مـجـمـعـ الـلـفـةـ الـعـرـبـيـةـ بـدـمـشـقـ (ـمـجـ ٦٤ـ، جـ ٤ـ، عـاـمـ ١٩٨٩ـ مـ)ـ ، وـقـدـ اـفـتـتـحـ أـبـوـ بـكـرـ الـأـنـبـارـيـ قـصـيـدـتـهـ بـقـوـلـهـ :

يـاـ مـدـاهـيـ عـلـمـ الـفـرـيـبـ وـالـقـرـيـضـ وـالـمـثـلـ
مـنـقـقـ جـوابـيـ :ـ مـاـ الـقـزـيـعـ وـالـشـقـيـعـ وـالـأـلـلـ

ويجيب الأنباري نفسه عن سؤاله شارحاً : «ـ قـالـ أـبـوـ عـبـيـدـةـ :ـ الـقـرـيـضـ هوـ الـقـصـيـدـةـ مـنـ الـشـعـرـ خـاصـةـ دـوـنـ الـرـجـزـ وـالـقـزـيـعـ فـيـ قـولـانـ .ـ قـالـ أـبـوـ بـكـرـ :ـ الـقـزـيـعـ :ـ الـلـمـيـعـ .ـ تـقـولـ الـعـرـبـ :ـ مـلـيـعـ قـزـيـعـ»ـ .ـ وـقـالـ آخـرـونـ :ـ الـقـزـيـعـ :ـ الـعـجـيبـ .ـ قـالـ أـبـوـ بـكـرـ :ـ وـالـشـقـيـعـ :ـ الـقـبـيـعـ ،ـ يـقـالـ قـبـيـعـ شـقـيـعـ»ـ .ـ وـالـأـلـلـ :ـ قـالـ أـبـوـ عـمـروـ :ـ الـبـرـقـ»ـ .ـ ثـمـ يـضـيـفـ الـأـنـبـارـيـ فـيـ قـصـيـدـتـهـ :

وـمـاـ الـعـمـارـ وـالـعـمـارـ وـالـخـبـارـ وـالـسـفـلـ؟

ويمضي شارحاً بـعـدهـ الـكـلـمـاتـ الـتـيـ سـاقـهـاـ فـيـ الـبـيـتـ ،ـ مـعـتـمـداـ فـيـ ذـلـكـ عـلـىـ أـئـمـةـ الـلـفـةـ ،ـ كـصـنـيـعـهـ فـيـ الـبـيـتـيـنـ السـابـقـيـنـ .ـ

ولـمـ تـكـنـ قـصـيـدـةـ أـبـيـ مـعـمـدـ بـنـ الـقـاسـمـ الـأـنـبـارـيـ فـرـيـدةـ فـيـ بـاـيـهـاـ ،ـ فـقـدـ ذـكـرـ ابنـ النـديـمـ (ـ٣٨٤ـ هـ)ـ فـيـ «ـالـفـهـرـسـ»ـ تـحـتـ عـنـوانـ :ـ (ـالـقـصـائـدـ الـتـيـ قـيـلتـ فـيـ

الغريب) : « قصيدة الشرقي بن القطامي » و « قصيدة موسى بن حرنيد » و « قصيدة يحيى بن نعيم » و « قصيدة الأبراري » و « قصيدة شبل بن عزرة » و « قصيدة أحمد الأنتباري » (الفهرست ص ١٩٦) .

وفي كتب فهارس المخطوطات نطالع إشارات إلى مخطوطات شرحت قصائد في اللغة ، مثل : « شرح مثلث قطرب » (المتوفى سنة ٢٠٦ هـ) لمجهول . ومثل شرح منظومة ثعلب المسمى « الموطأ في اللغة » وقد نهض به عبد الوهاب بن الحسن بن بركات المهلبي (٦٨٥ هـ) وأولها بعد البسمة :

يا مُولَّعاً بالفَضَبِّ والهَجْرِ والتجَنْبِ
حَبْشَكَ قد بِرَّحَ بي في جِدَّهِ اللَّعْبِ

(انظر فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهيرية ، علوم اللغة العربية ص ٩٧ ، ٩٨) .

وذكرت كتب التراث أيضاً ، أن ابن مالك النحوي الطائي (٦٧٢ هـ) أرجوزة في ثلاثة آلاف بيت بعنوان (الاعلام بمثلث الكلام) . وفيها ذكر الألفاظ التي لكل منها ثلاثة معان باختلاف حركاتها (انظر مقال رزوق فرج رزوق : « الشعراء التعليميون والمنظومات التعليمية » في مجلة المورد العراقية ميج ١٩ ، ع ١ ، ص ٢١٦) .

وفي ميدان النحو الذي حظي هو الآخر بخفاوة بالفترة من ذوي الهم العلمي عند العرب ، نطالع لجمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الأندلسي ، وهو من أعظم نحاة القرن السابع عشرة ، وقد ذكرناه من قبل ، نطالع قواعد النحو العربي وقد نظرت في ألف بيت . وعرف هذا العمل فيما بعد بـ « الفنية ابن مالك » . وكانت هذه الألفية خلاصة نحوية مركزة ظفرت بشرح أكثر من أربعين عملاً . وفي هذه الألفية يقول ابن مالك في باب الكلام وما يتألف منه مثلاً :

كَلَمُنَا لِقَنْظٍ مُفِيدٌ فَاسْتَقِمْ . وَاسْمٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ حِرْفٌ الْكَلِمْ

ونقرأ له في باب (المبتدأ والخبر) قوله :

مِبْتَداً زَيْدٌ ، وَعَادِرٌ حَبَّرٌ . إِنْ قَلَّتْ زَيْدٌ عَافَرٌ مَنْ اعْتَدَرٌ

و كذلك نراه يجمع (إن) وأخواتها و عملها ، الذي يخالف عمل (كان)
وأخواتها ، في قوله :

لأنَّ إِنَّ لَيْتَ لَكُنَّ لَعَلَّ كَانَ عَكْسٌ مَا لَكَ (كان) مِنْ عَمَلٍ

ومن الكتب النحوية المهمة التي نظمت شعرًا « الأجرّ ومية » وهي مقدمة في النحو ألقنها أبو عبد الله محمد بن داود بن آجر ومية الصنهاجي (٧٢٣ هـ) . وكان فقيهاً و نحوياً و مقرئاً و شاعراً . ولم يكن في أهل فاس (في وقته أعلم منه في النحو . وقد نظم (الأجرّ ومية) ميمون الفخار ، والعربى الفاسى ، ومحمد نووى . واسم كتاب النووى هذا « النفعة المiskiyah فى نظم الأجرّ ومية » ، وشرف الدين يحيى بن موسى العمريطي (٩٨٩ هـ) الذى سمى كتابه « الدرة البهية فى نظم الأجرّ ومية » (وهو مطبوع ضمن مجموعة من المدون بما فى ذلك الأجرّ ومية ذاته ، بعنوانة أحمد سعيد على ، بالقاهرة عام ١٩٤٩ م) .

ونظم « الأجرّ ومية » أيضًا عبدالله بن الحاج الشنقيطي (١٢٠٩ هـ) . وللشنقيطي هذا مؤلفات عدة ، أغلبها منظوم ، منها مثلاً : نظم كتاب عنصر الخليل ، ونظم الخزرجية في المروض ، ونظم رسالة ابن أبي زيد القير沃اني . ومن أمثلة نظم الشنقيطي للأجرّ ومية قوله :

قال عَبْيَيْدُ رَبِّهِ مُحَمَّدٌ
مُصْلِيَا عَلَى الرَّسُولِ الْمَفْتَقِي
وَاللهِ وَصَاحْبِهِ نُوِي التَّقْسِي
تسهيلٌ مُنشُورٌ ابْنُ آجَرَ وَمِ

وفي باب الاعراب يقول :

الاعراب تغيير آخر الكلم .
وذلك التغيير لا يطرأ على
أقسامه أربعة تقويم .
تقديرًا أو لفظًا فذا الحد اغتنم .
عوامل تدخل للاعراب
رفع ونصب ثم حفظ جازم .

فالأولان دون رَيْبٍ وَقَعَا
في الاسمِ والفعلِ المضارعِ معاً
فالأسمُ قد خَصَّصَ بالبَرِّ كما
قد خَصَّصَ الفعلُ بِجَزْنِمٍ فاعلماً
(انظر مقال الأستاذ خليفة بديري : نظم متن الأجرامية في مجلة كلية
الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، العدد ٦ ص ٢٦٢ - ٢٦٣)

وكذلك نظم السيوطي (٩١١ هـ) **الفية** في النحو سماها (الفريدة) . وهي
مطبوعة . ولها شرح بعنوان « المطالع السعيدة في شرح الفريدة » .

وإذا تركنا النحو ، وانتقلنا إلى علم الصرف ، وهو علم يهتم ببنية الكلمة
العربية وبأوزانها ومجردتها ، وإبدالها وإعلالها ، وجامدها ومشتقها ،
وقدمنا على أمثلة كثيرة من نظم (الصرف) ، منها مثلاً « قصيدة أبنية الأفعال »
التي نظمها ابن مالك صاحب الألانية النحوية المشار إليه سابقاً . وهذه القصيدة
التي تسمى أيضاً بلامية الأفعال شرحها ابن الناظم ذاته ، واسمه بدر الدين
محمد بن محمد (٦٨٦ هـ) . وقد جاءت القصيدة على البحر البسيط ،
وتقع في (١١٤) بيتاً . ونشر شرح ابن عليها الدكتور ناصر حسين على بدمشق
عام ١٩٩٢ م بعنوان « زبدة الأقوال في شرح قصيدة أبنية الأفعال » .

وإذا طالعنا كتاب (فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية بدمشق - علوم
اللغة العربية) نقع على منظومة صرفية أخرى بعنوان « الترصيف في التصريف »
نظمها عبد الرحمن بن عيسى العمري المرشدي المكي (١٠٣٧ هـ) وأولها :

الفضل ما إليه تصريفهم بحسن حمد الله وهاب النعم

وتقع هذه المخطوطة في (١٢) ورقة ورقمها ١٠٨٥٩ (انظر فهرس مخطوطات
الظاهرية - علوم اللغة العربية ص ٤٥٧) .

وقد ألف ناصيف اليازجي اللبناني المعاصر كتاباً سمياه « الجمانة في شرح
الخزانة » . وهذا الكتاب هو أرجوزة في علم الصرف أسمها (الخزانة) ، ثم
علق عليها شرحاً لها سمياه « الجمانة » .

وطبع هذا الكتاب في بيروت سنة ١٨٧٢ م . يقول ناصيف اليازجي في
فاتحة كتابه مثلاً :



لَا عِلْمَ لِي إِلَّاَ الَّذِي عَلَّمَنِي
حَاوِيَةً مِنْ شَرِحَهَا الجَمَانِهُ
فَقُتِلَتْ' وَاللهُ الْكَرِيمُ حَسْبِي

أَقُولُ بَعْدَ حَمْدٍ رَبِّ مُحَسِّنٍ
قَدْ اصْطَنَعْتَ هَذِهِ الْغَزَانِهُ
جَعَلْتَهَا فِي الْصَّرْفِ مُثْلَ الْقَطْبِ

ثُمَّ قَالَ :

بِهَا مَبْانِي كَلِمٍ تَصَرَّفُ'
إِلَى صَحِيحٍ وَعَلِيلٍ تَنْقَسِمُ
وَالْيَاءُ وَالْبَاقِي بَصْحَةٍ وَصِيفٍ
فَتَلَكَ بَيْنَ بَيْنَ فِي الْمَعْلَمِ

الصَّرْفُ 'عِلْمَنِي' بِأَصْوَلِ تَعْرِفُ
وَالْأَحْرَفُ 'الَّتِي ابْتَنَتْ مِنْهَا الْكَلِمُ'
وَأَحْرَفُ 'الْعِلَّةُ وَأَوْ' وَالْفِ
وَتَشْرِكُ الْهَمْزَةُ حَرْفُ الْعِلَّةِ

وَفِي مَجَالِ عِلْمَاتِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْأُخْرَى كَالْبِلَاغَةِ وَفِرْوَاهَا ، كَلِمُ الْمَعَانِي ،
وَالْبَيَانُ ، وَالْبَدِيعُ ، يُمْكِنُ الْمَرءُ أَنْ يُشَيرَ إِلَى جَهُودِ ابْنِ الشَّعْنَةِ (٨١٥ هـ)
وَاسْمَهُ أَبُو الْوَلِيدِ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَيُوبِ الْمُلْبِيِّ الَّذِي أَلَّفَ مِنْظُومَةً
فِي عِلْمِ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ وَالْبَدِيعِ ، وَقَدْ شَرَحَ هَذِهِ الْمِنْظُومَةَ مُحَمَّدُ بْنُ تَقِيِّ الدِّينِ
أَبُو بَكْرِ الْحَمْوَيِّ الدَّمْشِقِيِّ الْمُعَبِّيِّ (١٠١٠ هـ) وَمِنْ هَذَا الشَّرْحِ نَسْخَةٌ مُخْطَوِّطَةٌ
تَقَعُ فِي (٦٨) وَرْقَةٍ فِي دَارِ الْكِتَابِ الظَّاهِرِيَّةِ (انْظُرْ فِيَهُ مُخْطَوِّطَاتِ دَارِ الْكِتَابِ
الظَّاهِرِيَّةِ - عِلْمَاتُ الْلُّغَةِ ص ٣١٩ - ٣٢٠)

وَكَذَلِكَ أَلَّفَ السَّيُوطِيُّ (٩١١ هـ) قَصِيَّدَةً أَسْمَاهَا « عَقُودُ الْجَمَانِ » وَهِيَ فِي
عِلْمِ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ ، وَقَدْ شَرَحَهَا بِنَفْسِهِ . وَمِنْ هَذَا الشَّرْحِ نَسْخَةٌ بَيْنِ
مُخْطَوِّطَاتِ الظَّاهِرِيَّةِ (انْظُرْ فِيَهُ مُخْطَوِّطَاتِ دَارِ الْكِتَابِ الظَّاهِرِيَّةِ - عِلْمَاتُ
الْلُّغَةِ ص ٣١٦)

كَمَا يُمْكِنُ الْمَرءُ أَنْ يُشَيرَ فِي مَجَالِ الْبَدِيعِ وَحْدَهُ إِلَى مِنْظُومَةِ الشَّيْخِ الْإِمامِ
زَيْنِ الدِّينِ يَعْيَى بْنِ مَعْطِيِّ الْمَفْرِيِّ الزَّوَّاوِيِّ (٦٢٨ هـ) جَمِيعُ فِيهَا شَواهدُ
الْبَدِيعِ مِنْ أَشْعَارِ الْمَبْرِزِينَ مِنَ الشَّعْرَاءِ ، وَذَلِكَ بَأْنَ حَدَّدَ نَوْعَ الْبَدِيعِ ، ثُمَّ أَعْطَى
الْشَّاهِدَ عَلَيْهِ ، وَأَوْلَاهَا بَعْدَ الْبِسْمَةِ :

يَقُولُ ابْنُ مَعْطِيِّ قُتِلَتْ لَا مَتَعَاطِيَا مَقَالَةً مَنْ يَرْجُو الرَّضَى وَالتَّعَاطِيَا



ومن هذه المنظومة نسخة في دار الكتب الظاهرية تقع في ٩ ورقات ضمن مجموع عدد أوراقه ٢٧ ورقة انظر (الفهرس المذكور سابقًا ص ٢٠٨) .
وفي مجال المروض من بنا ذكر نظم الشنقيطي للغزيرجية في المروض قبل قليل . ونطالع في فهارس المخطوطات آثاراً أخرى في هذا الفن ، منها منظومة في المروض لمحمد بن الحسن الحسيني الشافعي الهمروي (٦٧٦ هـ) أولها بعد البسمة :

أحمدٌ مَنْ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَاللهُ نَجُومٌ كُلُّهُ مُهْتَدٍ

وهي من مخطوطات الظاهرية ، وقد كتبها ناظمها نفسه . وتقع في أربع ورقات - (انظر فهرس مخطوطات الظاهرية - علوم اللغة ص ٤٤٠) .

وأشار صاحب « معجم المؤلفين » إلى أن إبراهيم بن عبد الله بن جمعان اليمني النبويدي (١٠٨٣ هـ) قد ألقى مقطوعة في المروض سماها (آية المائة) - (انظر معجم المؤلفين ١ : ٥) . وبين مخطوطات الظاهرية مخطوطة بعنوان « هالة المروض » وهي أرجوزة نظمها محمد صالح بن أحمد بن سعيد المثير الدمشقي (١٣٢١ هـ) . قدم بها لعلم المروض وتناول فيها الزحافات والمثل والأبيعر والدوائر الفوضوية ، وختتمها بالقاب الأبيات ، أتم نظمها في (الأستانة) في شعبان سنة ١٢٩٩ هـ ، وأولها بعد البسمة :

يَقُولُ صَالِحُ بْنُ أَحْمَدَ السَّرِّيُّ الْقَدْوَةُ الْمَشْهُورُ بِالْمُنْسِيِّ

وهي نسخة بخط ناظمها ، وتقع في (٨) ورقات (انظر فهرس علوم اللغة المذكور ص ٤٤٢) .

وفي ميدان الأدب القصصي جرّب (أبان بن حميد اللاحقي) ، وهو شاعر إسلامي من أهل البصرة ، جرّب قدرته في النظم في صياغة كتاب كليلة ودمنة شعراً . وقد استفرق نظمه لهذا الكتاب ثلاثة أشهر . وببلغت أشعاره (١٤) ألف بيت ، وقدمه إلى يحيى بن خالد البرمكي ، فكافأه هذا عشرة آلاف دينار .

ونجد في كتاب (الأوراق) للصولي (٣٣٥ هـ) من هذا النظم ما يربو على (٨٠) بيتاً . وأول ذاك النظم قول أبان اللاحقي :

هذا كتاب' أدبٌ ومحنةٌ
وهو الذي يُدعى كليلة ودمنةٌ
فيه احتيالاتٍ وفيه رشدٌ
وهو كتابٌ وضعته الهند'

ومن نظمه مثلاً في باب الأسد والثور من كتاب كليلة ودمنة :

وإن مَنْ كَانَ دُنْيَةً النَّفْسِ
يَرْضِي مِنَ الْأَرْفَعِ بِالْأَخْسَّ
كَمْثُلِ الْكَلْبِ الشَّقِيقِ الْبَائِسِ
يَفْرَحُ بِالْعَقْلِمِ الْعَتِيقِ الْيَابِسِ
وَإِنْ أَهْلَ الْفَضْلِ لَا يَرْضِيْهِمْ شَيْءٌ إِذَا مَا كَانَ لَا يَرْضِيْهِمْ

وذكر الصولي أيضاً أن «أبايانا» هو الذي عمل القصيدة (ذات الحُلْلَل) ، وفيها ذكر مبتدأ الخلق وأمر الدنيا وأشياء من المنطق ، وغير ذلك ، وهي قصيدة مشهورة . ومن الناس من ينسبها إلى أبي العتاهية ، والصحيح أنها لأبيان . (انظر كتاب الأوراق للصولي ، تحقيق ج. هبيوت ، بيروت ، ١٩٧٩ / ٢ ط) ص ١ و ص ٤٦ - ٤٨ .

وقد نظم «كليلة ودمنة» أيضاً (ابن الهبارية) (٥٠٤ هـ) وهو الذي نظم أيضاً كتاب (الصادح والباغم) . ومن ناظمي كتاب الفيلسوف الهندي ، محمد البلال ، وعبد المنعم بن حسن وعلي بن داود كاتب زبيدة - زوج الرشيد ، وجلال الدين النقاش من القرن التاسع الهجري .

وفي مجال الفقه الإسلامي نظم محمد بن علي الربحي ، (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ) أرجوزة في أحكام الارث الإسلامي ، وعرف كتابه بمتن الربحية نسبة إليه . وقد شرح هذا المتن كثiron من العلماء ، منهم: أبو بكر أحمد السجبي ، وجلال الدين السيوطي ، وعبدالقادر النعومي ، وعمدين صالح الفزوي ، ومحمد بن محمد الماردوني ، وشرح هذا الأخير مطبوع . وكذلك شرح الربحية محمد بن خليل ابن خليون وسمى شرحه : (تحفة الاخوان البهية على المقدمة الربحية) . وقد حقق هذا الشرح الأستاذ السائح علي حسين ، وطبعه في طرابلس بلبيسا عام ١٩٩٠ م ، تحت عنوان (التحفة في علم المواريث) . وفي أسباب الميراث نقرأ قول الربحي : (التحفة في علم المواريث ص ٨٥) :

أسباب ميراث الورى ثلاثة . كلَّ يفيد ربُّه الوراثة .
 وهي نكاح و ولاء و نسب . ما بعدهنَّ للمواريث سبب .

ويقول في موانع الارث (التحفة ص ٨٩) :

ويمنع الشخص من الميراث واحدة من علـلـ ثلاثـ فـرقـ " وـ قـتـلـ وـ اـخـتـلـافـ دـيـنـ فـاـهـمـ ، فـلـيـسـ الشـكـ كـالـيـقـينـ

ويقول في باب أصحاب الثمن (التحفة ص ١٠٢) :

والثمن للزوجة والزوجات مع البنين أو مع البنات
أو مع اولاد البنين فاعلم ولا تظن الجمع شرطاً فاهم

ومن الكتب القريبة من الفقه والشرع وصلتنا كتب تعالج قضية الامامة في الاسلام منذ وفاة الرسول (ص) إلى عصر كتابتها . ومن تلك الكتب كتاب بعنوان (الارجوزة المختارة) للقاضي النسman (٣٦٣هـ) . وقد حقيقها إسماعيل قربان حسين ، ونشرها ضمن منشورات معهد الدراسات الاسلامية في (مونتريال) بكندا . وهذه الأرجوزة تلقى ضوءاً على موقف الفرق المختلفة من قضية الامامة والأدلة التي قدمتها كل فرق ، وتعد هذه الأرجوزة التي ألفت في أيام الخليفة الفاطمي القائم بأمر الله من أقدم النصوص الفاطمية في الامامة ، وفي مطلعها يقول الناظم مثلاً :

الحمد لله بديع ما خلق عن غير تمثيل على شيء سبق
بل سبق الأشياء فابتداها خلقا كما أراد إذ براها

ومن كتب الفرق المنظومة شرعاً «القصيدة الصورية» التي ألفها الداعي الاسعاعيلي الأجل محمد بن علي بن حسن الصوري ، وحقّيقها عارف تامر ، ونشرها في نطاق منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق عام ١٩٥٥ م . وهي كما قال ناشرها :

« أقدم المصادر عن الاسماعيلية ، ومن أهم الرسائل التي تتنطق بالمقائق ، وتمثل العقائد أصدق تمثيل ، ومن أحسن المراجع في تاريخ قصص الأنبياء وعدد الأئمة المنحدرين من الإمام علي بن أبي طالب حتى الإمام المستنصر بالله الفاطمي .. ولذلك كانت تتناقلها الدعاة ويعافظون على سريتها وعدم تسريبها ، وليس بالغريب إذا قلت إن أكثرهم كان يحفظها غيباً بالنظر لاعتمادهم على بيانها الرائع وأصولها وفروعها ، ومتانة أسلوبها وترتيبها » .

مؤلف هذه القصيدة هو محمد بن علي بن حسن كانت مدينة (صور) مسقط رأسه،لذا نسب إليها، وقد عاش رحباً في (طرابلس) داعية للفاطميين ، وقام بالرحلة في طلب العلم والحديث . وقيل إنه سمع بالكوفة من أربعمئة شيخ، وهي بط القاهرة في عهد الإمام المستنصر بالله الفاطمي . واستوطن ب Freedonia سنة ٤١٨ هـ ، وقد توفي فيها سنة ٤٤١ هـ .

والحقيقة أن هذه الأرجوزة الاسماعيلية ليست الوحيدة فيتراثنا . فقد شاعت الأراجيز في المعهد الفاطمي ، واستعملت للدعاية وللتغيير عن الموضوعات الفلسفية والتعاليم العقائدية – (انظر ص ١٧ من القصيدة الصورية) ، ولكن نعرف طريقة هذه المنظومات نسوق هنا مطلع القصيدة الصورية ، وهي في باب القول بالحمد والاستفتاح (ص ٢٣) :

ومبدع العقل القديم الأزلِ بلا مثالٍ كان في القديمِ مجموعة بأسرها في قدرتهِ فمنه تبدو وإليه ترجعُ العقل والنفس له عبدانِ جلَّ عن الأدراك في الضمائرِ	الحمد لله مُعلِّم العِلْمِ أبدعه بأمره العظيمِ وصيَّر الأشياء في هويتهِ فهو لها أصلٌ كريمٌ يجمعُ سبعانَه منْ ملكِ دِيَانِ والوصف بالأعراض والمواهرِ
--	--

وفي مجال القلاحة ، نقرأ لسعد بن أهون التيجي (٧٥٠ هـ) أرجوزة تشمل (١٣٠٠) بيت . نشرها في غرناطة، عام ١٩٧٥ (جواكينا أجوارس أباتيث).

وقد كان ابن ليون التعببي عالماً موسوعياً له ولأعْ باختصار الكتب ، و تتلمذ على يديه في (المرية) من أعلام الأندلس ابن خاتمة الأنصارى ، ولسان الدين بن الططيب ، وابن جعفر بن الزبير ، وابن رشيد الفهرى . وسمى (ابن ليون) أرجوزته « كتاب إبداء الملاحة وإنها الرجاحة في أصول صناعة الفلاحة » . وقد عدد المؤلف في كتابه هذا أركان الفلاحة شرعاً ، فكانت حسب قوله :

هي الأراضي والمياه والزبول . والعمل الذي بيانه يطول .

ونراه يشير إلى الأرض وما يحيط بها أو يفسدتها ، فيقول مرتبزاً :

الفول والترمس والكتنان . تحفظ الأرض وكذا الجلبان .

والدخن مضعن لها والملحان . وما يكرر بها كل زمان .

وورق الميمص والكرستن . مفسدة ل الأرض بالملوحة .

ونجده يشير في موضع آخر إلى أعمار الشمار والنباتات في نظره ، فيقول معتمداً على أقوال (ابن بصائ) و (الطغنوسي) ، وهما عالمان في الزراعة أيضاً :

و عمر الزيتون من عد السنين . ثلاثة آلاف حين بعد حين .

وفي الصنوبر عن ابن بصائ . بمئتي عام يقول استكمال

ورقه ، أعمّر مما يسقط . والطفنوسي قد قال : ما لا يسقط .

وأكثر الشمار يبلغ المائة . أو نحوها ، وقد تزيد تبعيده .

وكل ما في النشاء منها يسرع . فعمره القصر لا يتسع .

(انظر مقال أمين توفيق الطببي في مجلة كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس : كتب الفلاحة الأندلسية - أرجوزة ابن ليون في الفلاحة المدد ٥ ، ٦ ص ٢٥٤ فما بعدها) .

وفي مجال الملاحة يقع الباحث على أراجيز كثيرة ، فيطالع لابن ماجد

(المتوفى بعد ٩٠٤ هـ) الملقب بأسد البحر الذي أرشد قائد الأسطول البرتغالي

(هاسكو داغاما) في رحلته لاكتشاف طريق الهند من خلال رأس الرجاء الصالح أرجوزة، اسمها «حاوية الاختصار في أصول علم البحار» . وقد نشر هذه الأرجوزة الأستاذ إبراهيم خوري بدمشق ضمن منشورات المهد العلمي الفرنسي يقول ابن ماجد في تقديم أرجوزته :

يا أيها الطالبِ عِلْمَ الْيَمِّ
في الْعِلْمِ وَالْهَيَّثَةِ وَالْمَسَابِ
إِنْ كُنْتَ مِنْ جَدَّةِ الْعِلُومِ
يَغْنِيَكَ عَنْ رِهْمَانِجَاتِ النَّثَرِ

إِلَيْكَ نَظَمَا يَا لَهُ مِنْ نَظَمِ
وَمَا هُوَ اسْتَبْطَطُ لِلصَّوَابِ
وَذَاكِرُ الْأَسْتَاذِ كُلَّ يَوْمٍ
هَذَا الَّذِي نَظَمْتُهُ بِالشِّعْرِ

وفي ميدان الرياضيات يمكن أن نشير إلى أرجوزة (ابن الياسمين) في الجبر والمساب . وابن الياسمين هو عبدالله بن الحاج المعروف بابن الياسمين . وهو من أهالي (فاس) . وقد أفرغ علمه في هذه الأرجوزة الشهيرة ، وتوفي ابن الياسمين عام (٦٠٠هـ) . وقد ابتدأ ابن الياسمين بوضع تعريف شامل وعام لمجال علم الجبر ، فقال :

عَلَى ثَلَاثَةِ يَدُورِ الْجَبَرِ، الْمَالِ وَالْأَعْدَادِ ثُمَّ الْجَذْرُ

ثُمَّ عَرَفَ الْمَقْصُودُ بِالْمَالِ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي ، فَقَالَ :

فَالْمَالُ كُلُّ عَدْدٍ مَرْبَعٍ وَجَنْرُهُ وَاحِدٌ تِلْكَ الْأَضْلَعُ

والعدد عند (ابن الياسمين) هو الشيء ، أو العدد المجهول ، ومربعه هو الكمال . وفي بعض أبيات الأرجوزة يقول :

وَضَرَبَ كُلُّ زَائِدٍ وَنَاقِصٍ فِي مَثْلِهِ زِيَادَةً لِلْفَاسِحَصِّ

وَضَرَبَهُ فِي ضَدِّهِ نَقْصَانَ فَاهْمُهُ هَذَاكُ الْمَلْكُ الدِّيَّانُ

وقدم الأستاذ بديع المصي بعثا عن ابن الياسمين وأرجوزته هذه في الندوة العالمية الثانية لتاريخ العلوم عند العرب في نيسان عام ١٩٧٩ م . وفي الظاهرية بدمشق سبع نسخ للأرجوزة وشروحها . وينذكر الأستاذ محمود

الصفيري أن باليمن في (زبيد) تحفظ المكتبات الخاصة بعشرات النسخ من هذه الأرجوحة .

انظر (قضايا في التراث العربي - لعمود الصفيري ، دمشق ١٩٨١ م ص ١٥٥) .

وفي ميدان العلوم التطبيقية كالكيمياء والطب والصيدلة حفل تراثنا العظيم بأرجوزة كثيرة جداً ، تناولت المعارف التي تنتهي إلى هذه العلوم . ففي مجال الكيمياء ربما كان ديوان الأمير العالم الشاعر الأموي خالد بن يزيد (٩٠ هـ) واسمه « الصنعة » هو أقدم ما ألت شعرًا في علم الكيمياء . وربما أهمل هذا الديوان صاحبه لأن يوصف بأنه الشاعر التعليمي الأول في التراث العربي . وقد ذكر حاجي خليفة هذا الديوان فقال يصفه :

(فردوس الحكمة في علم الكيمياء للخالد بن يزيد بن معاوية الأمير الحكيم . منظومة في قوافٍ مختلفة وعدد أبياتها ألفان وثلاث مائة وخمسة عشر بيتاً، أولها:

الحمد لله العلي الفرد الواحد القهار رب الحمد
يا طالباً بوريسطس الحكماء خذ منطقاً حقاً بغير خفاء
(كتشf الظنون ١٢٥٤ - ١٢٥٥)

ويمكن أن نضيف إلى هذا الديوان، ديواناً آخر لأبي الحسن علي بن موسى الأنباري المعروف بابن أرفع رأس (٥٩٣ هـ) اسمه « شذور الذهب في صناعة الكيمياء » . وهو ديوان شعرى مرتب على المعرف ، شرحه أيدمر بن علي الجلدكي وسمى الشرح « غاية السرور »، وخدّسه شرف الدين محمد بن موسى القديسي الكاتب (المتوفى سنة ٧١٢ هـ) تخميساً حستاً - (انظر كشف الظنون ١٠٢٧) . وقد أضاف الأستاذ رزوق فرج رزوق أن عدد منظوماته في خطوطه جامعة برستن بالولايات المتحدة ٣٤ منظومة يبلغ عددها ١٤٨٧١ بيتاً . وعدد منظوماته في خطوطه كلية الآداب بجامعة بغداد ٤٢ منظومة يبلغ عددها ١٤٣١ بيتاً . (انظر مجلة المورد - بغداد ١٩٩٠ - مج ١٩ العدد الأول ص ٢١٣) .

ومن المعروف أيضاً أن الرازى أبا بكر محمد بن زكريا (٢١٣ هـ / ٩٢٥ م)

– (جالينوس العرب) ، وهو من أكابر الكيميائيين والأطباء العرب، نقل (كتاب الآس) بجابر إلى الشعر ، وله قصيدة في المنطقيات ، وقصيدة في المظلة اليونانية (الفهرست ط تجدد – ص ٣٥٩) . وله أيضاً أرجوزة في الطب ذكرتها هيا محمد الدوسري في كتابها «فهرس المخطوطات الطبية المchorة – الكويت ، ١٩٨٤ ، ص ٢٧» أولها :

الحمد لله الذي برانا وركب العقول والأذهان
ومن بالسماع والابصار يهدى لها من ذا اعتبار
وآخرها :

اما له معتبر في نفسه
بعد النعيم جيفة نتينه
حتى تؤديه إلى دار البقاء
كيف يصير جسمه في رسمه
ونفسه بما جنت رهينة
والخلد إما في نعيم أو شقا

وقد نسخت هذه الأرجوزة عام ١٠٥٤ هـ ، وتقع في ٨ ورقات ، وهي في (مكتبة جستر بيتي – ٥٢٤٤ مجموع)

ومن المعروف أن للرازي أيضاً كتاباً كثيرة منها – عدا الماوي ، والمنصوري ، والطب الروحاني – كتاب «برء الساعة» وقد حوالـَ هذا الكتاب إلى أرجوزة محمد بن إبراهيم بن يوسف المنبلي (٩٧١ هـ) وأعطتها عنوان «الدرر الساطعة في الأدوية القاطمة» . وهي في ١٣٥ بيتاً ، وذكر ذلك عمر رضا كحالة في كتابه : (معجم المؤلفين ٨ : ٢٢٣)

اما ابن سينا الشیخ الرئیس (٤٢٨ هـ) – (أبقراط العرب) وشیخ أطبائهم، فقد أللـَ كتاب «القانون في الطب» الذي ظل مرجعاً أساسياً لطلبة الطب في الشرق والغرب حتى أواخر القرن الماضي ، ابن سينا هذا ارتى أن يلخص المعلومات الطبية التي وعها وخبرها وتمرّس بها في أرجوزة شعرية تسهيلاً لحفظها ، ولينتفع بها تلامذته في كل مكان وزمان . لذا أنشأ «أرجوزة في الطب» وهي أرجوزة تقع في ما يزيد على / ١٣٠٠ / بيت .

وقد أثّرت تلك الأرجوزة كثيراً في تدريس الطب في المشرق العربي وفي المغرب والأندلس . وكانت عمدة أساتذة الطب لستين طويلاً ، وشرحت كثيراً وعلّق عليها، وعورضت واستدرك عليها، ومن استدرك عليها هارون بن اسحق المعروف بابن عزرون، وذلك في أرجوزته في المميات والأورام، فقد ذكر ابن عزرون أن ابن رشد قد لاحظ تفصيّر أرجوزة ابن سينا في ذكر المميات والأورام؛ فحفّزته تلك الملاحظة على نظم أرجوزة في هذا الباب ٠٠٠ وأكمل محمد بن قاسم ابن محمد الفاسي (١١٢٠ هـ) الأرجوزة السينوية بأرجوزة سمّاها « الدرة المكنوزة في تدبّيل الأرجوزة » . ومقاله ابن سينا في أرجوزته :

بدأتْ بِاسْمِ اللَّهِ فِي النَّظَمِ الْمُحَسَّنِ أَذْكُرْ مَا جَرَّبْتُهْ طَوْلَ الزَّمَنِ

وفي موضع آخر يقول ابن سينا :

الْطَّبِّ حِفْظٌ صِحَّةٌ بِرْءَ مَرَضٌ من سَبَبٍ فِي بِدْنٍ عَنْهُ عَرَضٌ

قِسْمَتُهُ الْأُولَى لِعِلْمٍ وَعَمَلٍ والعلمُ فِي ثَلَاثَةٍ قَدِ اكْتَمَلَ

سَبْعُ طَبِيعَاتٍ مِنَ الْأَمْوَارِ وَسَتَةٌ وَكُلُّهَا ضَرُورِيَّ شَمْ ثَلَاثٌ سُطْرَتِ فِي الْكِتَبِ

وقد طبعت أرجوزة ابن سينا . ومنها نسخ مخطوطه كثيرة في الظاهرية -

(انظر فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية - الطب والمصيّدة ١ / ٤٥٠) .

ولابن سينا أيضاً أرجوزة في التشريح (انظر فهرس مخطوطات الظاهرية - الطب والمصيّدة ٢ / ٣٤٢) . وقد شرح ابن رشد (٥٩٥ هـ) منظومة ابن سينا هذه .

ومن هذا الشرح نسخة مخطوطة في الظاهرية (فهرس الطب والمصيّدة ص ٤٤) ، ومنها نسخة مصورة عن مكتبة جاستر بيتي (رقم ٣٩٩٣) في الكويت تقع في ١٢٠ ورقة - (انظر فهرس المخطوطات الطبية المصورة السابق الذكر - ص ١١٥) .

وكذلك شرح هذه الأرجوزة محمد بن إسماعيل بن محمد المتطبّب (ت بعد ٩٨٨ هـ) . وهو شرح يقع في ١٨٠ ورقة . وعنوانه : « التوفيق للطبيب الشقيق » . ومنه نسخة بخط المؤلف في دار الكتب الوطنية بتونس (انظر فهرس

المخطوطات الطبية المchorة في قسم التراث - الكويت ١٩٨٤ ، ص ٦٣) .
(فهرس دار الكتب الوطنية تونس ٨/١) . وانظر (٩) أراجيز لابن سينا
ذكرها رزوق فرج رزوق في (مجلة المورد مع ١٩ العدد الأول لعام ١٩٩٠
ص ٢١٠ - ٢١١) .

ونظم أبو عبد الله محمد بن العباس بن أحمد الدنسري (٦٨٦ هـ) أرجوزة
في نظم « مقدمة المعرفة » لبقراط ، وأرجوزة في الدربيات الفاروقى (انظر فوات
الوفيات ٢ : ٤٤٠) و (هدية العارفين ٢ : ١٣٦) . وكذلك نظم داود بن عمر
الأنطاكي (١٠٠٨ هـ) أقيمة في الطب . كما نظم « القانون في الطب » لابن سينا
وشرحه (انظر كشف الظنون ١٣١٢) و (هدية العارفين ١ : ٣٦٢) . والحقيقة
أن المنظومات الطبية كثيرة جداً ولم نذكر منها إلا غيضاً من فيض ، وذلك لأن
الاستقصاء هنا ليس غرضنا .

وإذا تركنا الطب وانتقلنا إلى الفلك ، نجد أن العرب قد أحرزوا في هذا
العلم إنجازات عظيمة ، وليس أدل على ذلك من احتواء اللوحة التي وضعها
(نيل آرمسترونج) - أول إنسان وطئت قدماه أرض القمر - على اسم (البيتاني) ،
وهو عالم فلكي سوري من الرقة عاش في القرن الرابع الهجري ، وذلك تقديراً
لجهود هذا العالم في علم الفلك ، وأجلالاً لما صنمه في زمانه من زيجات فلكية
صحيحة . ومن المعروف في هذا الباب أن لأبي المحسن علي بن أبي الرجال
(بعد ٤٣٢ هـ) أرجوزة في الأحكام الفلكية ، وهي مطبوعة - (مجلة المورد
مع ١٩٩٠ لعام ١٩٩٠ ص ٢١١) .

ونطالع في (كشف الظنون ص ١٣٤٥) ذِكْرَ قصيدة في النجوم مزدوجة طويلة
التفها أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الفراوي .
وكذلك ذكر د . رزوق فرج رزوق أن محمد بن إبراهيم بن محمد الأوسي
المعروف بابن رقم (٧١٥ هـ) له منظومة في العمل بالاسطرلاب (انظر مجلة المورد
مع ٢ ع ١٣٨ ص ٢١٨) .

ومن المعروف أن الاسطرلاب آلة فلكية . كذلك لعبد الواحد بن محمد
ابن محمد المشهدى (٨٣٨ هـ) منظومة في الاسطرلاب . انظر (هدية العارفين
١ : ٦٣٢) .

وفي (كشف الظنون) أيضاً عرفنا أن شرف الدين أحمد بن ادريس بن يحيى المارديني (٧٢٨ هـ) قد ألف «نظم الدرر في معرفة منازل القمر»، رتبه على عشرة أبواب كلها منظومة . انظر (كشف الظنون ص ١٩٦٣) .

وكذلك نطالع لرضي الدين أبي الفضل محمد بن محمد بن أحمد الفزوي (٩٣٥ هـ) الأفيفية في علم الهيئة ، وهو علم الفلك ذاته . (انظر مجلة المورد مج ٢٠ ع ١ لعام ١٩٩٢ بغداد ص ١٣٣) .

ولفخر الدين محمد بن مصطفى بن زكريا الدوركي (٧١٣ هـ) قصيدة في النجوم (هدية العارفين ٢: ١٤٢ - ١٤٣) .

وفي ميدان التاريخ أَلْفَ أَسْعَدُ بْنُ الْبَطْرِيقِ النَّصَارَانيِّ (٢٥٧ هـ) كتاباً بعنوان: «نظم الجواهري في أخبار الأولياء والأواخر» انظر (إيضاح المكنون ٢: ٦٥٨) .

ونقع في كتاب (هدية العارفين) على غير إشارة إلى منظومات في التاريخ منها مثلاً أن محى الدين عبد الله بن عبد الطاهر السعدي البذامي الروحي (٦٩٢ هـ) قد نظم سيرة السلطان الظاهر بيبرس (هدية العارفين ٢ : ١٣٧) .

وكذلك نظم شهاب الدين محمد أمين المولى (٦٩٣ هـ) سيرة ابن هشام (هدية العارفين ١/٥٨١) و (كشف الظنون ٤٩٢ ، ٤٩٢ ، ١٠١٢) .

وذكر الزركلي أن عبد الملك بن أحمد الأرمطي (٧٢٢ هـ) قد نظم (تاريخ مكة) للأزرقى على شكل أرجوزة (الأعلام ٤ : ٣٠١) .

ونظم صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي (٧٦٤ هـ) أرجوزة تاريخية وشرّحها، وهي بعنوان: «تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب» وقد طبع هذه الأرجوزة صلاح الدين المنجد ، وفيها يقول مثلاً محدثاً عن محتوى كتابه بعد حمد الله وشكره:

وبعد ، فالمقصود من ذا الرَّجَزِ حُسْنُ الْبَيَانِ فِي كَلَامِ مُوجَزِ
اذْكُرْ فِيهِ الْخَلْفَاءِ وَالْأُمَّرَا عَلَى دَمْشَقِ نَسَقَ كَمَا تَرَى



لَكُثُرٍ عَلَى الْمَرْوِفِ رَتَبَهُ
 فَضِيَّعَ الْمَقْصُودَ مِنْهُ وَاشْتَبَهَ
 وَلَمْ يَصُلْ إِلَّا لِنَسُورِ الدِّينِ
 وَعَاقَ ذَاكَ وَارِدُ الْمَنْوَنِ
 وَقَدْ ذَكَرْتَ مَنْ أَتَى مِنْ بَعْدِهِ
 لِيَوْمَنَا فَاسْتَجَلَ دُرَّ عِقْدَهِ

ومن الجدير بالذكر أن المؤلف نفسه قد شرح أرجوزته في كتاب حمل العنوان ذاته ، وقد طبع بدمشق عام ١٩٩٢ في جزءين بتحقيق إحسان بنت سعيد خلوصي ، ولهذه حميدان المصمماً .

وي يكن أن نضيف في هذا المجال الأرجوزة التينظمها تاج الدين المسن ابن راشد الملي (نحو ٨٣٠ هـ) وعنوانها « تاريخ الملوك والخلفاء »، وأرجوزة المؤلف ذاته ، وهي تحمل عنوان : تاريخ القاهرة (الأعلام ٢ : ٢٠٤) .

والأرجوزة التي في تاريخ المتضد باه ، وهي مطبوعة ، وقد ألفها أبو العباس عبد الله بن محمد الناشيء المعروف بابن شرشير (٢٩٣ هـ) .

ونظم عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدميري المعروف بالديريني (٦٩٤ هـ) سيرة ابن هشام شرعاً (انظر هدية العارفين ١ : ٥٨١) .

والحقيقة أن هذا التقليد التراخي أعني التأليف بالشعر ، لم يندثر ، بل استمرت نماذجه في مجرى الثقافة العربية تطالعنا بين الفينة والأخرى وإن قلت ، بوضوح ، مما كانت عليه في القديم . وقد راح بعض الشعراء في أيامنا هذه يستعرضون قدراتهم على النظم في تأليف بعض الكتب . ومن مؤلاء الشاعر السوري (أحمد البندي) رحمة الله الذي أتَى كتاباً يعنوان « قصة المتنبي شرعاً » . وقد طبعها في بغداد عام ١٩٧٣ ، ثم أعادطبعها في دمشق بدار طلاس . وفي هذا الكتاب الشعري يؤرخ (أحمد البندي) بالشعر لحياة أبي الطيب المتنبي شاعر العربية الأكبر ، وماليء الدنيا وشاغل الناس ، وإذا فتحنا كتاب البندي وجدناه يقول (في ص ٧ طبعة بغداد) مثلاً :

مَرَّ فِي خَاطِرِ الزَّمَانِ وَلِيدٌ عَبْرِيٌّ السَّمَاتِ عَالِيٌّ فَرِيدٌ
 أَسْمَرُ الْوَجْهِ كَالْمَسَاءِ جَلَالٌ أَسْوَدُ الْعَيْنِ، بَاهِرٌ مَمْدُودٌ

موجة" من رجولةٍ فوق بعْرٍ يتمطئَ تياره العرييد' فإذا الشاعرُ العظيمُ حديثٌ يتغَنَّى ، ونشوةً ، وقصيدةً ثم يضيف في (ص ١٣) على لسان شاعرنا العظيم ، كاشفاً عن بعض سجاياه وخصائصه :

لا أراني أعيش في هذه الأرض
إنني شاعرٌ العروبة ضوئي
وبشعرٍ سار الزمان وغنِي الرَّبَّ

ضِفْنِفْسِي يضيقُ عنها زمانِي
مَلَأَ الْأَرْضَ بِالْمَنْسَى وَالْأَمَانِي
كَبُّ فِي الْبَيْدِ مُطْرَبَاتِ الْأَغَانِي

وبعد ، فانتَ نخلص من خلال المعرض الموجز السابق إلى نتائج نصوغها على النحو التالي :

- ١ - إن التأليف بالشعر عند العرب كان قد بدأ مع فجر عهدهم بالتنوين والتصنيف، وبعبارة أخرى منذ القرن الهجري الأول ، وحتى أيام الناس هذه ، ومن المعروف هنا أننا نريد نظم المعارف والعلوم ، ولا نقصد ابداع المسرح الشعري الذي يشكل نسقاً معرفياً آخر .
- ٢ - إن بحر الرجل لم يكن البحر الوحيد الذي ركب المؤلفون في مؤلفاتهم الشعرية ، فهناك بحور أخرى كالبساط وغيره من البحور ، نظمت عليها ألوان من المعارف متباعدة . وقد كان بحر المفيف مثلاً هو بحر أشعار المرحوم أحمد الجندى التي مثلتنا بها قبل قليل .
- ٣ - إن المعرض السابق ، على وجازته ، وعلى الرغم من أنه جاء للتمثيل والتدليل ، لا للاستيفاء وللاستقصاء يدل على أن هذا الباب واسع جداً، وأنه تناول مختلف جوانب المعرفة ، وثمة جوانب أخرى لم نعرض لنماذج لها فيما تقدم . وهذا إن دل على شيء ، فأنما يدل على مواهب العرب الشعرية الغزيرة ، وعلى أثر الشعر في نفوسهم كما يدل على عظيم عطائهم التصنيفي ، وهو عطاء يكاد الماء يزعم ان الأمة العربية لا تضاهيها فيه أمة على وجه هذه البسيطة .

□ مصادر البحث ومراجعه :

- ابن الأثيري ، محمد بن القاسم ، قصيدة في مشكل اللغة ، دمشق ١٩٨٩ (مستل من مجمع اللغة العربية بدمشق) .
- ابن خميسون ، محمد بن خليل : التحفة في علم المواريث ، تحقيق السائب علي حسين - ليبيا ، طرابلس ١٩٩٠ .
- ابن رشيق : المعدة في صناعة الشعر ونقده ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، بيروت ١٩٧٤ - ط ٤ .
- ابن ماجد : حاوية الاختصار في أصول علم البحار ، تحقيق ابراهيم الغوري ، منشورات المهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق .
- ابن النديم : الفهرست ، تحقيق رضا تجدد ، بيروت ١٩٧١ .
- البقدامي : هدية العارفين ، بيروت ، دار الفكر ١٩٨٢ .
- الجنبي ، احمد : قصة المتنبى شرعاً ، بغداد ١٩٧٣ .
- حمسي ، اسماء : فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية - علوم اللغة العربية - دمشق ١٩٧٣ .
- خليفة ، بدريري : نظم من الأجرامية - مقال في مجلة كلية البعثة الإسلامية - ليبيا ، طرابلس - العدد السادس لعام ١٩٨٩ .
- خليفة ، حاجي : كشف النقون عن أسامي الكتب والفتون ، بيروت ، دار الفكر ١٩٨٢ .
- الغيمي ، صلاح : فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية - الطب والصيدلة - دمشق ١٩٨١ .
- المؤوسري ، هيسا محمد : فهرس المخطوطات الطبية الصورة يقسم إلى: أ ، الكويت ١٩٨٤ .
- رذوق ، فرج رذوق: الشعراء التعليميون والمنظومات التعليمية ، مقال في مجلة المورد العراقي ، المجلد ١٩ ، العدد الأول ، والمجلد ٢٠ ، العدد الأول ، بغداد ١٩٩٢ .
- الزركلي ، خير الدين: الأعلام ، بيروت ، ط ٥ ، ١٩٨٠ .
- الصنفي ، محمود :قضايا في التراث العربي ، دمشق ١٩٨١ .
- الصنفي ، خليل بن ابيك : تحفة ذوي الالباب فيما حكم م USC من الخلفاء والملوك والتواب ، تحقيق احسان خلوصي ، وذير حميدان المصاصام ، دمشق ١٩٤٢ .
- الصوري ، محمد بن علي بن حسن :قصيدة اتصورية، تحقيق عارف تامر ، منشورات المهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ١٩٥٥ .
- الصولي ، ابو بكر : الاوراق - تحقيق ج. هيرورث ، بيروت ، ط ٢ - ١٩٧٩ .
- الطيب ، امين توفيق : كتب الفلاحة الاندلسية - مقال في مجلة كلية الدعوة الاسلامية - العدد ٦ - طرابلس ، ليبيا ١٩٨٩ .
- الكتبى ، ابن شاكر : قوافل الوهابيات ، تحقيق احسان عباس ، بيروت .
- كحال ، عمر رضا : معجم المؤلفين ، بيروت ، دار احياء التراث العربي ، د.ت .
- محمد بن محمد ، بدر الدين : زبدة الاحوال في شرح قصيدة ابيته ایتمان ، تحقيق ناصر حسين على ، دمشق ١٩٩٢ .
- القاضي، المعما: الارجوانة المختارة ، تحقيق اسماعيل فربان حسين - مونتريال ، كندا .
- البازجي ، ناصيف : الجمامنة في شرح الفزانة ، بيروت ١٨٧٧ .

العرب.. وأختراع البارود

د. إحسان هندي

في احصائية لمنظمة اليونيسكو أن الإنسان المعاصر يتعامل بنحو عشرة آلاف اختراع اليوم، سواء أكانت هذه الاختراعات مخترعات **جهاز** بالفعل Inventions، أم كانت مجرد اكتشافات Découvertes لما هو موجود في الطبيعة أصلاً.

وهذه الاختراعات ليست جميمها على الدرجة ذاتها من الأهمية بالنسبة إلى المضارة ، فهناك اختراعات منها غيرتجرى الحياة الإنسانية ، مثل اختراع الأبجدية والورق وآلة الطباعة، والعجلة والآلة البخارية والطائرات ، واللاسلكي والهاتف والحسابات الآلية . . . وهناك بالمقابل اختراعات أخرى تتمتع بأهمية أقل مثل المظلة والنول الآلي ومختلف الآلات الأخرى التي تحقق رفاهية الإنسان .

وهناك أخيراً اختراعات يمكن أن تكون نافعة ويمكن أن تكون ضارة ، ويدخل في هذه الزمرة جميع الأسلحة التي عرفها واستخدمها الإنسان على مر المصوّر . وإذا أردنا معرفة موقع البارود في هذا التصنيف ، فلا ريب أنه يقع في الفتنة الأولى ، أي فئة الاكتشافات أو المخترعات التي غيرتجرى الحياة الإنسانية .

وقد يقول قائل هنا إنه لا مجال لمقارنة اختراع آلة الطباعة باختراع



البارود ، وجوابنا عن ذلك هو أن اختراع البارود^(۱) وإن لم يكن له دوماً ذلك التأثير الإيجابي بالمقارنة مع اختراع آلة الطباعة ، فقد أحدث آثاراً خطيرة في مجرب حياة الإنسان وحضارته ، إذ إنه قاد إلى اختراع المدافع والأسلحة النارية والفردية والجماعية التي تم استخدامها في الحروب والثورات الأهلية ، وهذا ما أدى إلى آثار ونتائج خطيرة . ويكفي في هذا المجال القول إنه كان سبباً في انتهاء عهد الأقطاع في أوربة إذ أنه مكن الأتباع والبورجوازيين المتزمدين على السادة الأقطاعيين من تدمير القلاع التي كان يتحصن فيها هؤلاء الآخرين حتى القضاء على سلطتهم نهائياً^(۲) .

وليس من الانصاف بتاتاً النظر إلى هذه الآثار والنتائج الخطيرة التي أعقبت اختراع البارود واستخدامه على أساس أنها « آثار سلبية ومدمرة للحضارة » فحسب ، إذ أنه تم استخدام البارود في مجالات صناعية وإنشائية كثيرة ، وفي هذه تصح المقوله التي تؤكد أن البارود هو « سلاح » كجميع الأسلحة الأخرى التي يمكن استخدامها في سبيل الخير كما يمكن استخدامها في سبيل الشر .

ونقول هنا للرد مسبقاً على تساؤل يمكن أن يثور في أذهان بعض القراء في هذا المجال وهو التالي : هل من مصلحتنا نحن العرب أن ثبت الآن أن أجدادنا هم أول من اخترع البارود ، أو أول من استخدمه في الحروب ، إذا كانوا فعلـاـهم الذين قاموا بذلك ، كما تقول إحدى الأطروحات التي سنعرضها بعد قليل ؟

وللرد على مثل هذا التساؤل نقول سلفاً : إن المعلومات التاريخية هي حقائق علمية ، وبصفتها هذه يجب أن تكون ملماً للجميع . وإذا كان العرب هم أول من استخدم البارود في الحروب ، فيجب ألا ننسى في هذا المجال ثلاثة أمور :

- ۱ - الأول هو أنهم لم يستخدمو البارود كسلاح حربي إلا تحت ضغط الحاجة، وذلك لايجاد مخترع يمكنه أن يقف في وجه(النار اليونانية: Le Feu Grégeois : The Greek Fire) التي استخدمها الروم ، ومن بعدهم الصليبيون ، ضدتهم .
- ۲ - والثاني هو أن العرب المسلمين لم يستخدمو البارود في الحروب فقط ، وإنما استخدموه في مجال الصناعة والإنشاءات أيضاً .

٣ - والثالث هو أنه ليس هناك دليل تاريخي قاطع على أن العرب هم مخترعوا بالبارود ، والأمر لا يعود كونه واحدا من عدة احتمالات .

والحقيقة هي أنه ليس من الثابت تاريخياً أن العرب هم من اخترعوا بالبارود ، أو أنهم هم أول من استخدموه في المروب إذ إن الروايات متضاربة سواء من حيث (مكان اختراع البارود و زمانه) أو من حيث (استخدامه في المروب) ، وسنحاول توضيح هاتين النقطتين واحدة بعد الأخرى :

أولاً - مكان اختراع البارود و زمانه :

لا يعلم بالدقّة مَن اخترع البارود ، إذ أن تاريخه موغل في القدم ، وهو أقدم المترجّمات المعروفة اليوم .

ويقول العلامة بطرس البستاني في موسوعته : « والحاصل أن مخترع البارود لم يزل مجهولاً » ، والظاهر أن العلماء مختلفون فيه وفي زمن اختراعه ، وقد تبين أنهم خلطوا اختراع البارود بأزمان معرفته التي امتدت من قطر إلى آخر «^(٢) » . ومعأخذ هذا التحفظ بين الاعتبار يمكن القول مع ذلك إن أغلب المؤرخين والباحثين في هذا المجال يشيرون إلى أن اختراع البارود قد تم في الصين ، وبالتحديد في القرن التاسع للميلاد^(٤) .

وهناك من ينسب هذا الاختراع إلى الصينيين ، ولكن يحدد تاريخاً لاختراعه يسبق التاريخ المذكور باربعة قرون ، أي في القرن الخامس للميلاد . ومن يرى مثل هذا الرأي الأخير العلامة التونسي المرحوم عثمان الكعاك الذي قال في محاضرة القتها على المدرج الرئيسي بلجامعة دمشق في أواخر شهر كانون الأول ١٩٦٢ ، إن الصينيين عرفوا البارود في تاريخ متقدم ، وإن سر البارود انتقل إلى العرب المسلمين في زمن الخليفة هرون الرشيد الذي وعد بعض الأسرى الصينيين لديه ، نحو عام ٨٠٠ م ، بأن يطلق سراحهم إذا كشفوا له سر صناعة البوصلة والبارود ، فقام هؤلاء بذلك .

والظاهر أن الصينيين ، بعد اختراعهم البارود ، كانوا يستخدمونه في الأسماء والألعاب النارية التي كانوا يطلقونها في المواسم والأعياد فقط ،

ولكنهم لم يستخدموه – في بداية الأمر – كقوة دافعة أو متفجرة في المروب .
وهناك دراسة أجرتها إحدى الباحثات العربيات المعاصرات تتبني فيها هذا
الرأي فتقول :

« وقد عُرِف مسحوق البارود لأول مرة في الشرق ، وبالتحديد في الصين ، ويُقال
أن الصينيين هم أول من اكتشف مسحوق البارود وقفتوا في طرق الاستعمال بذوقٍ أن
يتمكنوا من استخدامه كمادة لاطلاق المقننفات الهادفة الى القتل وسبب ذلك يرجع ربما
إلى احترام الصينيين القدامي للحياة البشرية والحيوانية على حد سواء»^(٥) .

وسواء أكان عدم استخدام الصينيين للبارود كمادة دافعة أو متفجرة في المروب
هو بسبب احترامهم للحياة البشرية والحيوانية – كما تقول الباحثة – أم لا ، فإن
البارود لم يستخدم في الأسلحة النارية إلا عندما لوحظ أن « احتراقه في حيز
محصور يولّد ضغطاً عالياً في برهة وجizaً »^(٦) ، وهذا الأمر لم يتم إلا في مرحلة
لاحقة ، ولكن متى حدث ذلك وأين ؟ هذا ما سنحاول الاجابة عنه في
الفقرة التالية :

ثانياً – استخدام البارود في الأسلحة النارية :

إذا كان أغلب المؤرخين والباحثين يتفقون على أن اختراع البارود كان في
الصين ، فقد تعددت آراؤهم حول تعريف المكان والزمان اللذين تمَّ فيهما استخدام
هذا الاختراع لأول مرة في مجال الأسلحة النارية . وينسب كل من هذه الآراء
الفضل في اختراع البارود – إذا اعتبرناهذا الاختراع فضلاً بالفعل – إلى شعب
من الشعوب ، ضمن زمن من الأزمان . وأهم هذه الآراء ثلاثة ، ونجدتها في
الأطروحات الثلاث التالية :

آ – الأطروحة الأولى :

ويقول أصحابها إن الصينيين أنفسهم هم أول من استخدمو البارود في
الأسلحة النارية والمدافع . وتقول بعض المصادر الصينية إن العلماء الصينيين
عرفوا خواص البارود واستخدموه كقوة دافعة منذ القرن التاسع للميلاد ،



ولكن أول رواية مثبتة في هذا المجال هي القائلة إنهم – أي الصينيين – استخدموه في أثناء حصار المغول لمدينة « كاي فونغ فو » الصينية سنة ١٢٣٢ م^(٢) .

وفي مجال المصادر الأولية التي تؤيد هذه الأطروحة نجد أن الرحالة الإيطالي ماركو بولو قد أشار في تقاريره التي قدمها عن رحلاته في الشرق الأقصى ، إلى أن الصينيين استخدموه في مواجهة الغزاة المغول سلاحاً فتاكاً يسمونه (هيو يشيانغ Huo Chiang) ، وتعني بالعربية « أنبوب النار » ، وذلك بين ١٢٣٢ ، ١٢٥٩ م^(٣) .

ويرى مثل هذا الرأي من مؤرخينا العرب المحدثين الدكتور حسين مؤنس ، فيقول في تعليقه على الطبعة الجديدة من كتاب (تاريخ التمدن الإسلامي) لجرجي زيدان : « من المعروف أن البارود اختراع صيني ، وأن الذي نقله إلى أوروبا كان ماركو بولو »^(٤) . (كان في خدمة كوبلاي خان حفيid جنكينز خان الذي حكم ١٢٩٤ – ١٢٩٦ م في الصين)^(٥) .

– هذا من حيث انتقال مستحضر البارود إلى أوربة ، فماذا عن انتقاله من الصينيين إلى المرب ؟ من المعلوم أن العرب دخلوا بتماس مع الصينيين عن طريق بلاد السند والهند منذ أواخر القرن السابع للميلاد ، ولا يُستبعد معرفتهم لسر البارود وقوته العجيبة منذ ذلك الوقت الموجل في القدم ، ودليلنا على ذلك هو أن الكاتب العسكري العربي المعروف بدر الدين حسن الرماح ، قد ذكر في مخطوطة كتبها عام ١٢٨٠ م تحت عنوان « كتاب أساليب القتال فوق ظهور الخيل واستخدام الآلات المربية » ، وصفاً لمسحوق متفجر ، « وذكر نسباً مختلفة لمزج مكوناته ، وتوجيهات لصناعة الصواريخ التي تسميها المخطوطة (السهام القتالية) ، وفي ذلك إشارة إلى السهام الصينية »^(٦) .

وهناك من المؤرخين من يعطي العرب دور الوسيط في إيصال البارود من الصين إلى أوربة في مرحلة المزروع الصليبية خلال القرن الثالث عشر للميـلـاد^(٧) .

بـ - الأطروحة الثانية :

ويرى أصحابها أن الأوروبيين هم من فطنوا لاستخدام البارود كقوة دافعة في الأسلحة النارية لأول مرة . وأول أوروبي تنسب إليه المصادر ذلك هو الراهب الانكليزي روجر بيكون ، الذي كتب رسالة باللاتينية في عام ١٢٦٧ م . وقد ضمن رسالته هذه معلومات عن نسب تركيب البارود ، ولكنه كتب هذه المعلومات بأسلوب رمزي لكي لا يستطيع العوام فهمها وصنع البارود بأنفسهم .

والمعتقد السائد في هذا المجال هو أن روجر بيكون قد ذكر نسب تركيب (البارود الصاعق) لا (البارود الدافع) لأنّه جعل نسبة التركيب كما يلي : ثلاثة أجزاء من النترون (ملح البارود) ، وجزآن من البوたس الكاوي، وجزء واحد من الكبريت . ومعنى هذا أنه أهمل ذكر مادة (الفحم النباتي) وذكر مادة البوتاس الكاوي مكانها من جهة ، كما أنه انقص نسبة ملح البارود في التركيب إلى ثلاثة أجزاء بدلاً من خمسة – وهي النسبة المعمول بها حالياً – من جهة ثانية .

ونجد هذه النسب نفسها تقريباً لدى الأوروبي آخر يُنسب إليه فضل اكتشاف القوة الدافعة للبارود ، وهو راهب الماني اسمه «برتوس ماجنوس» ، وقد توفي في عام ١٢٨٠ م ، ولكنه كتب قبل وفاته مخطوطاً بعنوان «في عجائب الدنيا» ، ويدرك فيه كيفية تركيب مسحوق البارود وفوائده التفجيرية العالية ، فحدد نسبة التركيب كما يلي : ثلاثة أوزان من نترات البوتاس ، وزنان من الفحم النباتي ، وزن واحد من الكبريت ، وهي نسبة تعطي بارودا قليل الاشتعال وضعيف الدفع ، لأنّ نسبة ملح البارود (نترات البوتاس) فيه هي بقدر حجم المنصرين الآخرين مما يدلّ من أن تكون ثلاثة أضعافهما ، إذ من المعروف أن البارود الحربي يلزمـه نسبة ٧٥٪ من (ملح البارود Salpêtre : Charcoal : Charbon) و ١٠٪ من (الكمبريت Sulphur : Soufre) في أيامنا .

والأوروبي الثالث الذي يُنسب إليه فضل اكتشاف القوة الدافعة للبارود هو راهب الماني اسمه برتولد شوارتز Berthold Schwarz (١٣١٠ - ١٣٨٤)

تقول الروايات إنه توصل إلى اكتشافه هذا مصادفة حين كان يدق مقداراً من منج البارود والفحm والكبريت في هاون، مما أدى لمدوث انفجار انتزع مدقنة المهاس (الهاون) من يده وكاد يقضى على حياته ، ولذا أعاد التجربة بما يكفي من الحذر والاحتياط حتى توصل إلى تركيب البارود المعروف حالياً .

وأول من تقدم بهذا الرأي هو المؤرخ الإسباني (بيدره ماكسيما) الذي يقول في كتاب له صدر عام ١٥٤٢ تحت عنوان «أشياء مختلفة» : «ان اختراع البارود حصل سنة ١٣٣٠ م من قبل راهب ألماني اسمه برتوولد شوارتز ، وان أول من استخدم البارود كسلاح فم البنادق في حربهم مع البنوبيين قرب أسوار مدينة فلورانسا الإيطالية عام ١٣٣٨ » (١١) .

ونجد تأييداً لهذه الرواية نفسها لدى مؤرخ آخر عاش في أواسط القرن السادس عشر واسمه «سيباستيان مونستر» ، يذكر هذا المؤرخ ، في رواية له بهذا الصدد ، عام ١٥٤٤ ، أنه تم اختراع مدفع هائل في عام ١٣٨٠ ، وأن «الشيء الذي أتى العالم بمثل هذا الاختراع المفر لا يستحق أن يُخلد اسمه في أذهان الناس ، وقد لمح بذلك إلى برتل الأسود» (١٢) ، وهو راهب من هيرتس غير أن المعقدين يختلفون في ذلك اختلافاً شديداً (١٣) .

ـ ونجد هنا الرأي نفسه أيضاً لدى مؤرخ إسباني عاش في أواخر القرن السادس عشر ، واسمه خوان ماريانا ، يقول في كتابه «التاريخ العام لاسبانيا» (١٤) إن الراهب الألماني برتولدشفارتس هو الذي اختراع البارود ، وهو الذي استخدمه كسلاح حربي .

ـ والظاهر أن الفكرة التي سادت أكثر من غيرها خلال القرون الثلاثة التي أعقبت استخدام البارود في أوربة (١٣٣٠ - ١٦٣٠) هي تلك التي تنسب فضل اكتشاف قوة البارود كسلاح للدفع والتوجيه إلى الراهب الألماني برتولد شفارتس (أو شوارتز) ، ولهذا فلاغرابة أن نجد بعض المؤرخين المرب يتبينون هذا الرأي أيضاً ، ومن هؤلاء ابن غاثم الأندلسي ، صاحب مخطوط «العز والممانع للمجاهدين في سبيل الله بالآلات الحرب والمدافع» فيقول في مخطوطه هذا : «وقد تحقق عند الجمهور أن ابتداء العمل بالبارود ليس له مدة إلا خمساً وستين



ومائتي سنة من المساب الشمسي^(١٥) ، كما صح عند العلماء ، وكان الاستنباط على يد راهب مشغول بالكمياء ، فكان يريد تقطير ملح البارود والكبريت بالقرعة^(١٦) والأنبيق ، فكان يدق ذلك في مهارس^(١٧) ، ووُقعت فيه شرارة فقام النار في الحين ، وأشعل بقوّة ودفع ، فأعجبه ذلك لما رأى شيئاً ما لم يره ولا سمع به ، وجرب ذلك بأن جعل التركيب في موقع مسدود عليه بالقهر^(١٨) ، وكان رجالاً فلسفياً (كذا) ، فعمل كبوساً^(١٩) ومكحلاً^(٢٠) ، ثم مشكة^(٢١) بكل منهم^(٢٢) ، وهي مكحلة كبيرة ، ثم مدفأ ، وهذا هو المعلوم أنه كان الأصل الأول^(٢٣) ، وكان ذلك في بلاد ألامانيا «^(٢٤) » .

ومن الباحثين العرب المحدثين الذين ينسبون فضل اختراع البارود إلى برتولد شوارتز المرحوم بطرس البستاني فقد ذكر في « دائرة المعارف » « تعت عنوان « بارود » ما يلي : « ذهب بلغورتس وكثيرون غيره إلى أنه بعد اكتشاف برتولد شوارتز البارود كاشف به البتناقة عام ١٣٨٠ ، في أثناء الحرب التي كانت جارية بينهم وبين الجنوبيين »^(٢٥) .

وهناك من المؤلفين الأجانب المعاصرين من يرى أن البارود اختراع أوروبي صرف ، ولكن بدون أن ينسب فضل هذا الاختراع إلى برتولد شوارتز حصراً ، ومن هؤلاء المؤرخ الانكليزي « بارتنجتون » الذي يقول في كتابه المعروف : « النار اليونانية والبارود »^(٢٦) : « أنا لا أعتقد أنه تم استخدام المدافع في إسبانيا سنة ١٣٢٤ أو ١٣٢٥ ، ولذلك فإن أول مرة تم استخدام المدفع فيها كانت في فلورانسا سنة ١٣٢٦ م^(٢٧) » .

ج - الأطروحة الثالثة :

وهي أطروحة تقول إن العرب المسلمين هم من استخدمو البارود لأول مرة كسلاح حربي عبر المجنحيات ، منذ القرن العاشر للميلاد ، ثم اخترعوا له أنابيب للاطلاق ، وهذه الأنابيب التي أطلقوا عليها بداية « صناديق المخassefة » يتم إطلاقها بوساطة منجنيقات ذات مواصفات خاصة يصح اعتبارها أم المدفع المستخدمة حالياً^(٢٨) ولكن العرب المسلمين لم يُسموا ، في البداية ، هذه



المادة باسم «البارود» ، وإنما سموها باسم «المحرر الناري» أو «زيت المحرر» أو «النفط» . وخلال مرحلة المروء الصليبية طور العرب المسلمين تحت ضغط الحاجة المزبعة كل الأسلحة التي يمكنها قذف النفط والكرات النارية ، فوصلوا إلى آلات مقدمة تشبه المدافع إن لم تكن تتفوّق عليها^(٢٩) .

ويظهر هذا جلياً من شهادة ذات مصداقية كاملة أتت من مؤرخ فرنسي عاش معركة المنصورة (١٢٤٩ / ١٢٥٠م) إلى جانب ملك فرنسا لويس التاسع ، وهو الفارس «جوانشيل» ، يقول في وصف سلاح جديد استخدمه العرب المسلمين في هذه المعركة : «وفي ذات ليلة بينما كنا نعرض الأبراج أنا والسير والتر كوريل حدث أن العرب المسلمين أحضروا آلة لم يستعملوها من قبل ، ثم قذفونا منها بشيء ملأ قلوبنا بالدهشة والرعب نار مستقيمة كانها أسطوانة كبيرة ، ذيولها من خلفها مثل الحراب الطويلة ، ودوبيها يشبه الرعد وكانتها جارح يشق الهواء . ولها نور ساطع جداً من جراء عظم انتشار اللهب الذي يحدث الضوء ، حتى أنك ترى كل ما في المعسكر كما لو كان في وضع النهار وقد رمى العرب علينا هذه النار في تلك الليلة مرات من الآلات الكبيرة ، وأربع مرات من القسي البريضة »^(٣٠) . ومع أن هذا النص لا يذكر كلمة «بارود» صراحة «إلا أن الكلام يدل بوضوح على أن الأمر يتعلق بالبارود أو بمادة أشد قوة منه ، سواء من حيث الاشتعال أو من حيث قوة الدفع .

وما يؤيد هذا الرأي ما ورد في دورية موسوعية رصينة هي مجلة «كل العالم Tout l'Univers» ، تؤكد أن البارود والمدفع هما اختراعان عربيان تماماً . وما تقوله المجلة المذكورة تحت باب (الأسلحة النارية الأولى Les Premières Armes à Feu) نقاطف الفقرة التالية : «إن اختراع بارود المدفع حسب رأي ذائع الانتشار كان على يد راهب ألماني اسمه برتولد شوارتز ، بعد أن تمكن خلال القرن الخامس عشر^(٣١) من صنع مادة متفجرة نتيجة لمزجه ملح البارود والفحمر والكبريت ، ولكن هذا ليس أكثر من اسطورة ، لأن الأسلحة النارية كانت عديدة قبل هذا الوقت . ومن الثابت أن الكيميائيين العرب لاحظوا منذ القرن الثالث عشر ، خلال إجراء بعوثهم ، أنه في حالة الضغط على مثل هذا المزيج في هاون كانت تنطلق منه شرارة تعقبها فرقمة تكون قوية أحياناً إلى درجة

تسقط مدة الهalon من أيديهم . وقد فكروا عندئذ باستخدام القوة الناجمة عن الانفجار الذي أحدثه البارود لرمي القذائف إلى مسافات بعيدة ، ولهذا قاموا بوضع عدد من الحجارات (الحصيات الكبيرة) مع كمية من البارود في دلو يحمل عدة ثقوب من الخلف ، ثم أحدثوا انفجار المزيج ، بوساطة قضيب مشتمل ، فحصلوا على الأثر المرجوّ ، حيث طارت الحجارات ووقيت بعد عدة أمتار على الأرض . وإن مدافع الهalon التي صنعتها كيميائيو الشرق لا يمكن اعتبارها أسلحة نارية حقيقة ، ولكنها كانت التطبيق الأول لاستخدام البارود في المدفع « (٢٢) .

والحقيقة أن أغلب الباحثين المدققين ، والمؤرخين المنصفين حتى من الأوروبيين أنفسهم ، أصبحوا مقتنعين بأن العرب المسلمين هم من اخترعوا البارود ، أو أنهم إذا لم يكونوا هم من اخترعوه فهم من استخدموه دافعه في الأسلحة النارية أولاً . ولكن قسماً كبيراً من المؤرخين الأوروبيين لا يزالون ينسبون هذا الفضل إلى المسلمين الأندلسيين (الموريكسوس) دون غيرهم . ولعل السبب في ذلك هو رغبة هؤلاء المؤرخين في التنظر إلى البارود كمخترع أوروبي ، على اعتبار أن منطقة الأندلس هي جزء من أوروبا وان كانت مختلفة حضارياً عنها .

وأول المؤرخين الأوروبيين الذين نسبوا اختراع البارود والمدفع إلى العرب هو الإسباني (جيرونيمو زوريتا) ، الذي كان حافظاً للوثائق في بلاط الملك الإسباني فيليب الثاني ، فقد أشار في « الموليات » التي كتبها إلى أن ملك غرناطة المسلم حاصر مدينة آليكانث الإسبانية عام ١٣٢١ ، واستخدم في حصارها آلة جديدة سببت كثيراً من الرعب لأنها ترمي : « كرات حديدية بوساطة النار » وفي النص الإسباني حرفيًا : « Pelotas de hierro que se lançavan Con feugo » . (٢٣)

— وهناك مصدر يتمتع بأهمية خاصة في هذا المجال وهو كتاب عن المخطوطات العربية اللئه باللاتينية المؤرخ ميشيل غزيري وهو كاهن ماروني من أصل لبناني كان قياماً على مكتبة الاسكوريوال . وقد تمكّن بصفته هذه ، وبفضل إجادته للغة العربية ، وعدة لغات أوروبية أخرى من مطالعة عدد كبير من المخطوطات العربية واللاتينية ، ومنها مخطوط عربي مؤلف اسمه شهاب

الدين حمد بن فضل الله المعربي^(٣٤) ، وقد أثبت الفزيري نقلًا عن مؤلف هذا المخطوط أن العرب توصلوا لتركيب مستحضر سماه باللاتينية (مسحوق التترات Pulvere Nitrato^(٣٥) ، وهي تسمية ترادف تماماً لكلمة (Poudre) الفرنسية و Gun Powder^(٣٦) الانكليزية والاثنستانجنيان (البارود) لا (ملح البارود) . ومن المستحسن تأكيد هذا الفارق اللغوي، وذلك للدحض رأي بعض المستشرقين من أمثال (رينو) و (فائيه) ومن يعتقدون بأن التعبير اللاتيني الذي استخدمه الفزيري في كتابه^(٣٧) ينطبق على (ملح البارود) لا على (البارود) نفسه^(٣٨) ! ولا ثبات عدم صحة هذا الرأي يكفي التذكير بأن مادة ملح البارود لا تشتمل وحدها، وإذا اشتغلت فليس لهادفع ولا قوة تفجير وتهديم ، بينما المادة التي ذكرها الفزيري في هذا المضمار ، وقال إن العرب استخدموها في القرن الثالث عشر في أثناء محاصرة القوات الإسبانية لفرناظة عام ١٢٧٥ م ، كانت تحدث مثل هذا التأثير .

وقد خلف الفزيري في منصب القائم على مكتبة الاسكوريا المؤرخ الإسباني جوزيه أنطونيو كونديه (١٢٦٥ - ١٨٢٠) الذي استند إلى مخطوطات عربية عديدة ، ومنها مخطوطة لمؤرخ عربي معاصر للأحداث هو لسان الدين الخطيب الفرناطي (١٣١٣ - ١٣٧٤ م) ، الذي ذكر أن الخليفة الأندلسى عبد الرحمن الثاني استخدم المدافع في أثناء حصار مدينة (بازة) الإسبانية بين ١٢٢٢ و ١٢٢٥ م . ففي وقائع شهر رجب من عام ٧٢٤ هـ (١٢٢٤ م)^(٣٩) يذكر أن قوات المسلمين : « كانت تضرب المدينة نهاراً وليلًا بوساطة آلات ومختبرات تقدف بكرات نارية لها دوى هائل » .

Comleatio la Ciudad de dia y noche Con maquinas y ingenios que lanza ban globos de fuego Con grande truenos »^(٤٠) .

ويقول في مكان آخر واصفاً حصار العرب المسلمين لمدينة (طرريف Tarifa) الإسبانية في عام ١٣٤٠ م : « كان العرب يستخدمون آلات ومختبرات ترمي كرات ضخمة من الحديد بوساطة النفط ، وتسبب خراباً كبيراً في أسوار المدينة المعاصرة جيداً »^(٤١) .

وإذا انتقلنا من اكتشاف البارود إلى اختراع المدافع حسراً وجدنا أن شمس الدين محمد المتوفى في دمشق عام ١٣٥٠ م ، ذكر في مخطوطته له صنفها في أوائل القرن الرابع عشر ، وتوجد نسخة منها في مدينة سان بطرسبurg حالياً ، أن « المدفع » هو أنبوب حديدي يربط على لوح خشبي بوساطة المبال ، وأنه يجب ملء ثلث هذا الأنابيب فقط بالبارود عند تعميره (حشونه) ، وإلا فإنه ينفجر عند الرمي به . وقال إن طول أنبوبة المدفع (السبّطانة) يجب أن يتاسب مع سعة فمه (أي العيار كما يسمى في أيامنا هذه) ، ومثل هذا الشرح لا يتم إلا بعد معرفة طويلة وعمقة للمدفع .

وفيما يتعلق بنسب تركيب البارود يحددها شمس الدين هذا بأنها يجب أن تكون كما يلي : ملح بارود ١٠، كبريت درهم ونصف . وهي نسب قريبة جداً من نسبة تركيب البارود العربي المستخدم في المدفع اليوم ، إذ إننا إذا قلبتها إلى نسب متوازية نحصل على ما يلي ٧٤٪ من ملح البارود ، ١٤,٨٪ من الفحم و ١١٪ من الكبريت ، علىَّاً أن النسب المستخدمة حالياً هي : ٧٥٪ من ملح البارود ، و ١٥٪ من الفحم ، و ١٠٪ من الكبريت^(٤١) ، وهذا ما يثبت بصريح العبارة أن العرب كانوا يعرفون المدفع ويستخدمون البارود كحشوة دافعة في أوائل القرن الرابع عشر، بينما لم تجئ أول إشارة لاستخدام الأوربيين لهذا السلاح إلا في بداية الثلث الثاني من القرن المذكور .

ويخلص الدكتور سهيل زكار في كتابه « المدفعية عند العرب » هذا الرأي فيقول : « ويرى بعض الباحثين أن العرب عرفوا في هذه الفترة البارود واستخدموه كمادة متفجرة ثم قاذفة ومحرقة . ومن المؤكد الآن أن العرب كانوا أول من طور استخدامات البارود وأخذوا في إبداع الأسلحة الجماعية (المدفعية) والفردية المستخدمة لهذه المادة . وثبت أن ذلك العصر شهد تطوراً عظيماً في الأندلس في مملكة غرناطة خاصة ، وفي المغرب الأقصى . وتحوي المصادر الإسبانية والعربية ، كما يوجد في مكتبة الاسكوريال قرب مدريد ، مخطوطات عربية تفيد أن عرب الأندلس استخدمو المدفعية منذ أوائل القرن الرابع عشر للميلاد ، هذا وهناك من يقول إن ذلك كان في القرن الثالث عشر للميلاد »^(٤٢) .



وبالفعل فان المؤرخ المعروف « ابن خلدون » له رواية تدل على أن العرب المسلمين قد استخدمو البارود في احدى المعارك التي دارت في المغرب الأقصى عام ٥٧٧٢هـ / ١٢٣١م، فيقول في وصفه لمعركة سجلماسة : « وما فتح السلطان أبو يوسف بلاد المغرب وجده عزمه إلى افتتاح سجلماسة من أيلليبني عبد الواد المتقلين عليها، وإدالة دعوته فيها من دعوتهم، فنهض إليها في العساكر والمشود في رجب سنة اثنين وسبعين وسبعمائة ، فنازلاها وقد حشد إليها أهل المغرب أجمع من زناتة والعرب والبربر وكافة المجنود والعساكر . ونصب عليها آلات الحصار من المجانيف والغرادات (٤٢) ، وهنadam النفط القاذف بعاص الحديد، ينبعث من خزانة أسام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الأفعال إلى قدرة باريها » (٤٤) .

خلاصة الدراسة :

في ختام هذه الدراسة يمكننا القول إنّه يجب الفصل بين مسألة « اكتشاف البارود » من جهة ، وبين استخدامه كقذيفة دافعة ومن ثم « اختراع المدافع » من جهة ثانية ، إذ أنه إذا كانت أغلب المصادر التاريخية الموثوقة تعتبر البارود اكتشافاً أو اختراعاً صينياً ، فإن وضع هذا الاختراع موضوع التطبيق في الأسلحة البارودية والمدافع هو أمر يمكن نسبته إلى كل من العرب والأوربيين والصينيين على السواء ، ولو أن الأطروحة الأكثر مصداقية هي تلك القائلة بأن العرب هم من استخدمو البارود كقذفة دافعة لأول مرة في أواخر مرحلة المروءة الصليبية ، وذلك للرد على سلاح (الناري اليوناني) (٤٥) الذي استخدمه البيزنطيون والصليبيون في معارفهم بضررها . وليس هناك من ضير في الاعتقاد بصحة الرواية القائلة بأن الاستخدام الأول للمدافع من قبل العرب المسلمين كان خلال معركة المنصورة سنة ١٢٥٠ م أو قبل ذلك بقليل .

وقد نقل الصليبيون كيفية استخدام البارود في المدافع عن العرب في نهاية أيام المروءة الصليبية (نحو ١٣٠٠ م) إذ استخدمه الأوربيون لأول مرة في أثناء حصار البنادقة والجنويين مدينة فلورانسا في عام ١٣٣٨ م . وقد استخدم المغاربة والأندلسيون سلاح البارود منذ ١٢٧٣ م ، كما يظهر من رواية ابن خلدون المشار إليها أعلاه ، بل هناك بعض المصادر « التي تفيد أنّ عرب الأندلس وعرب المغرب استخدمو بعض الأنواع الأولى من المدافع منذ أوائل القرن الثالث عشر » (٤٦) .

— ومن هذا يتبيّن لنا أنّ العرب في المشرق والمغرب سبقوا الأوروبيين إلى استخدام البارود في المدافع بنحو قرن من الزمان على الأقل .
ولكن هذه الأسبقية المريّبة يجب أن لا تنسينا ثلاّث حقائق أساسية بالمقابل وهي :

- ١ - ان العرب لم يكونوا هم مخترعي البارود ، ولكنهم أخذوا هذه المادة عن الصينيين وطوروا استخدامها .
- ٢ - ان العرب استخدمو البارود كسلاح ناري دفاعي في مواجهة (النار البيزنطية او اليونانية Greek Fire) التي استعملها ضدهم الصليبيون بكثافة .
- ٣ - اذا كان العرب أول من استخدم المدافع ، فقد كانت مدافعهم أسلحة شبه بدائية ، الى أن أتى الأوروبيون بشكل عام ، والأثمان^(١) ، بشكل خاص ، فطوروا صناعة المدافع بمهارة ، وجعلوا من هذه المدافع سلاحاً بكل هذه القوّة التدميرية وهذا الفتت في المروءة اللاحقة .



□ المسوّاشي :

- ١ - يصح في رأينا استخدام تعبير « اختراع البارود » على أساس انه اختراع لتركيبته الكيميائية الخاصة ، كما يصح استخدام تعبير « اكتشاف البارود » على أساس ان الواد الذي تدخل في تركيبته موجودة جيّعاً في الطبيعة .
- ٢ - انظر « الموسوعة العربية الميسرة » بياشرافي محمد شفيق غربال - دار الشعب - القاهرة - ١٩٦٠ - من ٣٠٢
- ٣ - بطرس البستاني : « دائرة المعارف » - من ٥٨٥٦
- ٤ - الموسوعة العربية الميسرة - مصدر مذكور قبلنا .
- ٥ - ردد الرفاعي : « البارود والبنقلي » : السلاح الناري الاول . - مجلة : « الدفاع الخليجي » - العدد ٢/يناير ١٩٩٣ - من ٥٠
- ٦ - الموسوعة العسكرية - المجلد الأول - من ١٩٤
- ٧ - المرجع نفسه - من ١٦٥
- ٨ - د. جرجي زيدان : « تاريخ التمدن الإسلامي » - الطبيعة الحديثة - تقديم الدكتور حسين مؤنس - دار الهلال - القاهرة - من ٢٠٢
- ٩ - الموسوعة العسكرية - المجلد الأول - من ١٩٥
- ١٠ - الموسوعة العربية الميسرة - بياشرافي محمد شفيق غربال - مذكور أعلاه .
- ١١— Pedro de Maxia: « Silva de Vario Lection », Sevilla, 1542.
- ١٢ - من المعروف أن كلمة « شفارتز » تعني « الأسود » باللاتينية .
- ١٣ - عن « دائرة المعارف » للبستانى - مذكور قبلنا - من ٥٦

14 — Juan de Mariana : « Historia General de Espana », 2^e V. - Madrid 1608, P. 27.

- ١٥- بما أن تاريخ كتابة المخطوط هو ١٦٣٢ ، فهذا يعني ان اكتشاف القوة العربية للبارود تم عام ١٣٦٧ ، وهو تاريخ منطقي لأنه يقع في الفترة التي عاش فيها شوارتز (١٣٨٤-١٤٢٠ م) .
- ١٦- قارورة .
- ١٧- جرن أو هاون .
- ١٨- مخطوط ، مصصور .
- ١٩- اتبوب نار - *Bouche à Feu* .
- ٢٠- بندقية .
- ٢١- كلمة معرفة عن الكلمة Mesquita الإسبانية وهي تعني « بارودة » .
- ٢٢- بهذه المواد .
- ٢٣- الأصل الأول لاختراع البارود .
- ٢٤- مخطوطة « العز والمنافع » - نسخة الغزانة العاسة بالرباط - ص ١٣ .
- ٢٥- بطرس البستاني - مذكور أعلاه - ص ٥٧ .
- ٢٦- قارن مع ما تذكره الباحثة وغد الرفاعي (مراجع مذكور أعلاه) حول استخدام البارود في المكان عينه والزمان نفسه .
- ٢٧- يسمى بارتجاجون هذه الصناديق باسم « الأنابيب المشتعلة » . *Tubes of incendiaries*
- ٢٨- راجع كتابنا « الحياة العسكرية عند العرب » - منشورات وزارة الثقافة - دمشق ١٩٦٤ .
- ٢٩- قارن مع النص الذي اورده عبد الرحمن ذكي في كتابه « معركة المنصورية » ص ٧٦ .
- ٣٠- الأصل الرابع : الرابع عشر .
- ٣١- انتظر : *Tout l'Univers*, P. 454 وقد نقلت مجلة « المعرفة » القاهرة الموسوعية هذه المعلومات بعد ذلك عن المجلة المذكورة .
- ٣٢- هو شهيد الدين بن حفلا الله العمري المتوفى سنة ١٢٦٩، ونعتقد بأن المخطوط المقصود هو : « المسالك في معرفة المسالك » .
- ٣٣- Michel Cassiri : « Bibliotheca Arabico » - 2 Vol. - Madrid 1770.
- ٣٤- ذات المرجع .
- ٣٥- Renaud et Favé : « Du Feu Grégeois, des Feux de guerre et de la Poudre chez les Arabes, les Persans et les Chinois » in : «Journal Asiatique» - 1849, XIV, PP. 257-327.
- ٣٦- التحويل التواريخ الميلادية الى هجرية وبالعكس استخدمنا المعادلة التالية : $m = \frac{h}{100} + ٦٢١,٦$.
- ٣٧- تاريـخ ابن خلدون - ج ٧ - ص ٣٨٨ . وقارن مع كتاب الدكتور سهيل ذكـار - مذـكور أعلاه - ص ٢٥٢ .
- ٣٨- د. سهيل ذكـار - مذـكور قـبـلاً - ص ٣٥٢ .
- ٣٩- J. A. Conde : « Historia de la dominación de los Arabes en Espana » - Paris, 8^e Ed. Baudry.
- ٤٠- ذات المرجع .
- ٤١- هذه النسبة هي التي حددها ايضا ابن غاثم الاندلسي في مخطوطته : « العز والمنافع » - مذكورة قـبـلاً .
- ٤٢- د. سهيل ذكـار : « المطبوعة عند العرب » - دار الفكر - دمشق ١٩٨٣ .
- ٤٣- العـرادـاتـ هيـ المـاجـنـيـقـ الصـغـيرـةـ .
- ٤٤- يـسمـيهـمـ ابنـ غـاثـمـ الـانـدـلـسـيـ «ـ الـنـفـقـشـكـشـنـ »ـ نـقـلـاـ عنـ الـكـلـمـةـ الإـسـبـانـيـةـ .

الخطابة السياسية في صدر الإسلام

د. عدنان محمد أحمد

فـ^أعقب ذلك التعمول المبتدئ الذي شهد المجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية ، وانتقل بفضله من مجتمع الوحدات السياسية المتفرقة والمتناحرة ، في كثير من الأحيان ، إلى مجتمع العقيادة الواحدة ، والدولة الواحدة ذات النظام السياسي الواضح الشامل ، بذات الخطابة العربية تغزو خطاباً جديداً في معالجة الأمور السياسية واتخاذها مشكلاتها ، يدفعها إلى ذلك تلك الأحداث الكبيرة المتلاحقة التي شهدتها ذلك العصر ، والتي تركت أثراً بازياً في التاريخ العربي عبر عصوره اللاحقة ٠

وقد راحت الخطابة السياسية في هذا العصر - عصر صدر الإسلام - تنمو بسرعة تلاحق الأحداث التي واجهتها الدولة الجديدة بعد غياب الرسول (ص)؛ مؤسس هذه الدولة وزعيمها الأول . حتى إذا جاء العصر الأموي بمناخه الملائم نضجت تماماً ثمارها التي حلتها من قبل وتوضحت ألوانها .

كانت أولى الأزمات بعد وفاة الرسول (ص) هي مشكلة الحكم التي طرحت بصوت مسموع لأول مرة في تاريخ الدولة الفتية . إذ لم يكن هناك نص واضح يعالج هذا الأمر ، ولم تكن هناك تجربة سابقة يمكن الاستفادة منها ، والعمل بهديها . فالرسول (ص) ، الزعيم الأول ، لم يختلف تجربة في هذا المجال ، فلم يكن هناك انفصال في أذهان المسلمين بين السياسة والدين ، فكان اعتناق الدين يعني ضمناً الاقرار بالزعامة السياسية للرسول (ص) ، ويبدو

ذلك بوضوح من خلال المعايدة التي تمت بين الرسول (ص) وجماعة من الأنصار في بيعة المقبة الثانية ، إذ قال أبو الهيثم بن التیهان : « يارسول الله ، إنَّ بیننا وبين الرجال حبالاً ، وإنَّا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ »^(١) . وفور المبايعة وضعوا أنفسهم تحت قيادته ، إذ قال العباس بن عبادة بن نضلة : « والذي بعثك بالحق : إن شئت لنميلنَ على أهل منيَّ غداً بأسيافنا ؟ قال : فقال رسول الله (ص) : لم تؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم »^(٢) .

وعندما دخل الرسول (ص) المدينة كان الاسلام قد انتشر فيها ، فكان المسلمين مقررين بزعامته . وكان قد سبقه إليها المهاجرون المترون بزعامته من قبل ، وهناك راح يمارس ، دون منافسة ، دوره القيادي المزدوج : السياسي والديني .

ولم تكن الخلافة هي الأزمة الوحيدة التي كان على الدولة الاسلامية أن تواجهها ، إذ لم تنت هذه الأزمة بتسلمه أبي بكر الصديق(ر) خلافة المسلمين حتى قامت حركة الرندة، وادعى بعض الكهان النبوة ، واستطاعوا بما يمتلكون من قوة تأثيرية كبيرة ، من جمع حشد كبير استطاع أن يشكّل خطراً محظقاً بال المسلمين . فعشد هؤلاء قواهم المادية والمعنوية ، لكي يتمكّنوا من القضاء على هذه الحركة .

ثم كان اغتيال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (ر) إيذاناً باضطراب الاستقرار السياسي الذي ساد أجواء الدولة الاسلامية ، ومؤشراً هاماً على أن بعض القوى السياسية ، التي أخذت ملاuemها بالارتقاء بعد وفاة الرسول (ص) بمدة قصيرة ، كانت تنمو في الحفاء ، وبلفت مرحلة من النضج تمكّنها من الدفاع عن مصالحها بأساليبها الخاصة . ولم تتوافق لعثمان بن عفان (ر) ، الخليفة الثالث ، المبنكة السياسية الازمة لارضاء جميع الأطراف ، أو لاضماف المركبات المعارضة . وهكذا بدأت ، في أواخر عهده ، الفتنة التي انتهت بقتله .

وازدادت الأحداث خطورة في عهد علي بن أبي طالب (ر) ، الخليفة الرابع ، وازدادت تعقيداً ، وأخذ المجتمع الاسلامي بالانقسام ، وسادت الاضطرابات أجواءه ؛ فمن الجمل إلى صفين ، إلى انقسام الموارج ومقعة حربورما

والنهر والنهران ٠٠ إلى غير ذلك من أحداث شهدتها ذلك المجتمع في مدة لم تتجاوز خمس سنوات بذكر ، في أكثر الآراء تسامحاً^(٢) .

وإذا كانت الخطابة السياسية تنشط وتزدهر في البيئات التي لا يتوافر فيها الاستقرار السياسي^(٤) فإن الأحداث التي شهدتها هذا العصر ، ولا سيما في أواخر خلافة عثمان (ر) وفي خلافة علي (ر) ، كانت تربة خصبة لنمو هذا اللون من الخطابة وتبور ملامحه وسماته .

فقد ارتفعت الأصوات تطالب بسياسة أفضل وأقوم في عهد عثمان (ر) وتعلن سخطها على النظام القائم ، بل تشكي في شرعية الحكومة في بعض الأحيان ، وتطالب بحقها في الخلافة في أحيان أخرى . وكان المخلفاء ، ومن معهم ، يرددون على أولئك ، فيوضعون الملابسات ، ويؤكدون صحة موقفهم وصدق إيمانهم . وفي هذه الأجواء تكثر الخطاب التي يتوجه بها الخطباء إلى الجماهير لاثارة مشاعرهم ، وتعريف عواظفهم ، والتأثير فيهم ، واستمالتهم وإقناعهم بما ي يريدون .

وكان للمعارك التي خاضها الدين الجديد ، وللفتورات الكثيرة التي شهدتها هذا العصر ، أثرها في نشوء هذا اللون من الخطابة ، إذ كانت إشارة مشاعر الجندي وشحد عن يمتهن ، وترغيبهم بالجهاد ، وشرح الغلط العربي والأمور المتعلقة بها ، وتبليغ الجندي الأوامر الصادرة عن الخليفة في العاصمة البعيدة ، والتوجيهات التي ترسلها القيادة إلى غير ذلك ، كل هذا من شأنه أن يغذي الخطابة السياسية ، لأن الخطابة هي الأسلوب الأمثل لمعالجة تلك الأمور .

ذلك كان انتقال كثير من القبائل العربية من العيادة البدوية إلى العيادة الحضرية في هذا العصر سبباً من أسباب نشوء الخطابة السياسية وتطورها ، فقد كانت الأعراف والتقاليد هي القوانين التي تحكم القبيلة ، أو تحكم القبائل في علاقاتها ، إذ لم يكن هناك قانون غير ذلك ، فقد « تقييد الجاهليون بعرفهم وعاداتهم تقييداً شديداً . والعرف عندهم هو ما استقرّ وثبت في أذهانهم



حتى صار في حكم الدين ، ومن خلال هذا العرف يعرفون العلال والحرام ، والماباح والمحرم ، ولقد كانت أحكام أسيادهم هي التشريع والافتاء والحق ديننا ودنيا^(٥) . وتلك الأعراف كانت معروفة من قِبَل الأفراد المتعاملين بها ، وكانت تنتقل اليهم بالتربيه التي يتلقونها كل يوم . ولم يكن زعيم القبيلة يحتاج إلى توضيحاً أو إلى توضيح سياسته التي ينتهجها بالحكم ، لأنّه كان يسير على خطّة أسلافه الواضحة والمعروفة .

وقد اختلف هذا الواقع بعد توحيد القبائل في ظل الدولة الإسلامية ذات الدستور الجديد والنظام السياسي والإداري الواضح . وصار الحكم - الوالي - يعين من قِبَل الخليفة على مدينة ، أو ولاية ، قد يكون غريباً عنها . وحتى الخليفة نفسه كان يتسلّم مقاييس الخلافة بطريقـة جديدة لم تكن معروفة من قبل . وقد أوجد ذلك كله ضرورة إطلاعـالحاكم رعيـته على السياسـة التي سـيـنتـهجـها أو المـطـلةـةـ التي سـيـسـيرـهـ عليهاـ ، في ظـلـ النـظـامـ الـاسـلامـيـ الذي جـعـلـ أـمـرـهـ شـورـىـ بـيـنـهـ ، يـسـتـشـيرـهـ فيـ مـاـ يـعـرـضـهـ مـنـ أـمـرـ وـخـطـوبـ ، وـيـسـتـرـشـدـ بـرـأـيـهـ . وـلـمـ تـكـنـ هـنـاكـ وـسـيـلـةـ أـفـضـلـ مـنـ الغـطـابـةـ لـلـتـعـبـيرـ عـنـ ذـلـكـ كـلـهـ .

وهكذا تناولت الخطابة السياسية جميع الموضوعات المتعلقة بشؤون الدولة وأمورها العامة ، سواء أكانت تلك الموضوعات داخلية أم خارجية . فقد تعرّضت الخطابة للحديث عن خطّة الحكم من الناحية السياسية والدينية ، ومن الناحية الاقتصادية في بعض الأحيان . كما تعرّضت لما يتعلّق بالحكم ، وما يرتبط به ، كالحديث عن أحقيـةـ هـذـاـ أوـذـاكـ فـيـ الـخـلـافـةـ ، وـالـحـدـيـثـ عـنـ الـوـاجـبـاتـ المـتـرـتبـةـ عـلـىـ الـحـاـكـمـ وـالـرـعـيـةـ ، كـلـ مـنـهـمـاتـجـاهـ الـآخـرـ وـتـجـاهـ الـدـوـلـةـ . كما تناولت توضيـحـ الملـاسـيـاتـ العـاصـلـةـ فـيـ بـعـضـ الـفـتـنـ وـالـأـحـدـاثـ ، وـلـاـ سـيـماـ فـيـ الـفـتـنـةـ التي أودـتـ بـحـيـاةـ الـخـلـيفـةـ الثـالـثـ عـمـانـ بـنـ عـفـانـ (ـرـ) . كذلك كانت نتيجة التعكـيمـ المشـهـورـةـ ، التي قضـتـ بـعـزـلـ عـلـيـ (ـرـ) وـتـبـيـتـ مـعـاوـيـةـ ، مـنـ الـأـحـدـاثـ الـهـامـةـ التي تـنـاـوـلـتـهاـ الخطـابـةـ السـيـاسـيـةـ ، فأـعـلـنـ أـصـحـابـ عـلـيـ (ـرـ) بـطـلـانـهـاـ لـخـالـفـتـهـاـ الـعـقـ، وـأـعـلـنـهـاـ عـدـمـ التـزـامـهـمـ بـهـ ، بـيـنـمـاـ اـعـتـبـرـهـاـ مـعـاوـيـةـ وـأـصـحـابـهـ مـكـسـبـاـ سـيـاسـيـاـ وـاتـخـذـوـهـاـ حـجـةـ ضـدـأـوـلـثـاـ .

ويدخل في نطاق الخطاب السياسية ، بمدلولها الواسع ، تلك الخطاب التي أقيمت لتشجيع المقاتلين ، قبيل الغزوات والمعارك والفتورات ، وكذلك تلك الوصايا التي كان الخليفة ، أو الوالي ، يوصي بها قائد الجيش ، والتوجيهات التي كان يزوده بها ، وهو في طريقه نحو الغاية التي أرسل من أجلها ، وكذلك الوصايا أو التوجيهات التي كان الجنود يتلقونها من قوادهم .

ويمكن أن نقسم الخطابة السياسية في هذا العصر إلى الأنواع التالية :

- | | |
|---------------------------------|-------------------------------|
| ٤ - خطب الحض على الجهاد . | ١ - الخطاب السياسية الخالصة . |
| ٥ - الوصايا السياسية والخربية . | ٢ - المشاورات السياسية . |
| | ٣ - المناقلات السياسية . |

أولاً - الخطاب السياسية الخالصة :

لم يكن للجماعة الإسلامية قبل الهجرة إلى المدينة كيان سياسي ، أو نظام إداري ، يقتضي وجود خطابة سياسية ، ولم يكن لها علاقات سياسية تهدف إلى تأسيس الدولة الإسلامية المستقبلية ، التي كان الرسول (ﷺ) يتطلع إليها ، فيما عدا بيعتي العقبة الأولى والثانية اللتين كانتا « حجر الأساس » في بناء تلك الدولة ، وقد اتّخذت البيعة الأولى منعِّي دينياً خالصاً ، إذ بايعه الأنصار على عدم الاشتراك باهـة ، وعلى الامتناع عن الزنى أو قتل الأولاد ٠٠٠ فانْ فعلوا شيئاً من ذلك فأمرهم إلى الله إنْ شاءَ عذَّب وإنْ شاءَ غفرَ (١) .

أما في البيعة الثانية فقد ظهرت بوادر اتجاه سياسي في العلاقة بين الرسول (ﷺ) والأنصار ، لأنَّ الإسلام كان قد انتشر في المدينة ، وصارت الهجرة إليها أمراً ممكناً . فكان على الرسول (ﷺ) أن يستوثق من جماعة الأنصار له وللمسلمين إذا هاجروا إلى المدينة . وهكذا بايعهم على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم (٢) . وطمأنهم (ﷺ) من جانبه حين استوثقو لأنفسهم منه ، وسألوه عن بقائه معهم مما جرى ، وعدم التخلّي عنهم ، فقال (ﷺ) : « بل الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسلام من سالمتم » (٣) .

وقد خلقت بيعة العقبة الثانية خطباً قليلة ، يمكن لنا بشيء من التوسيع أن ندخلها في إطار الخطاب السياسي . منها خطبة العباس بن عبدالمطلب ، وكان ما يزال على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يتوثق لابن أخيه ويعذر البيعة معه ، فقال مخاطباً الأنصار : « يا معشر الغزرج ، إن محمدأً منّا حيث قد علمت ، وقد منعناه من قومنا ، منن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عزٍ من قومه ومنته في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللّه عُذْ بِكُم ، فان كنتم ترون أنكم وافقون له ، بما دعوتموه إليه ، ومانعوه من خالقه ، فأفتدوا وما تعلمتم من ذلك . وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِمُوه وخاذلوه بعد المروج به إليكم ، فمِنَ الآن فدعوه فإنه في عزٍ ومنته من قومه وببلده »^(٩) .

ومن تلك الخطاب أيضاً خطبة العباس بن ميادة بن نضلة الأنصاري، التي توجه بها إلى المزرج ، لتبنيهم إلى خطورة الأمر الذي هم فيه . وما يترتب عليه من واجبات ثقيلة ، قد يكون الانفعال الديني حال بينهم وبين ادراكها أو الانتباه إليها^(١٠) .

وطبيعي أن تدور موضوعات هذه الخطابة حول توثيق كل طرف من التزام الطرف الآخر به ، والتزام كل طرف واستعداده لتحمل تبعات هذا الالتزام . وكان الرسول (ص) والأنصار يدركون أن احتضان المدينة للدعوة الجديدة ، التي حاربتها قريش وحاولت قتلها في المهد ، سيقودها إلى مواجهات وأزمات . والواقع أن تنفيذ الماهدة كان يعني وجود دولة إسلامية ستتشكل خطراً على الكيانات السياسية الموجودة في الجزيرة العربية ، وعلى الأنظمة القائمة فيها ، وهذا سيؤدي إلى نشوب حروب كثيرة على الدولة أن تخوضها ، ويجب على الطرفين المتعاهدين أن يدركوا ذلك ، وأن يكونا على استعداد كامل له ، لأن إخلال أي منهما بوعده سيكون له نتائج لا تحمد عقباها .

لكن النشاط السياسي المكثف كان بعد الهجرة إلى المدينة ، إذ كان على الدولة الإسلامية أن تعدد علاقاتها مع الآخرين ، وأن تقوم بالدور المرجو منها في أن تكون مركزاً لنشر الدين الجديد ، ونواة للدولة الإسلامية المنشودة . على الرغم مما سيعرضها في تنفيذ هذه المهمة من عقبات ليس من السهل تذليلها . وعلى الرغم من أن إطار العلاقات السياسية أخذ في الاتساع حتى وصل إلى

الروم والفرس بعد العديبية ، فإنه لم تصلنا خطابة إسلامية سياسية تعود إلى ذلك المهد . فالعلاقات السياسية كانت تأخذ طابع المعاهدات والمواثيق المكتوبة ، والموقع عليها من قبل الجانبين . وكانت أحياناً أخرى في شكل رسائل ، بسبب البعد ، وعندئذ يغلب أن تعمل دعوة إلى الدين . وفي الحالتين لا تستطيع الخطابة أن تقوم بالدور المطلوب . ولكن هذا التعليل لا يكفي لنفي ضياع بعض الخطب التي قيلت في هذه المناسبات أمام المسلمين ، على الأقل . وهكذا ينتهي عهد النبوة من دون أن نجد للرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) أو لأحد ولاته خطبة سياسية خالصة .

لكن ما افتقدناه في عهد النبوة يطالعنا في عهد الخلفاء الراشدين (ر) ، إذ أخذ الخلفاء والولاة يوضّعون عند وصولهم إلى السلطة خطبّتهم في الحكم ، والسبيل التي سيسلكون في التعامل مع الرعية ، دون إشارة من قريب أو بعيد إلى ذكر سياسة الدولة الخارجية . ومن أمثلة ذلك خطبة أبي بكر الصديق (ر) التي ألقاها بعد البيعة والتي يقول فيها بعد حمد الله تعالى والثناء عليه بما هو أهله : « أما بعد أيها الناس ، فاني قد ولّيت عليكم ولست بخيركم ، فإنّ أحسنت فأعينوني ، وإن أساءت فقوّوني »، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعف فيكم قويٌّ عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى أخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدعُ قوماً يجاهد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذلة ، ولا تشيع الماحشة في قومٍ قط إلا عمّهم الله بالبلاء ، أطيعونني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ۰۰۰»^(١)

وفي معظم الأحيان كانت تسير خطب هذه المناسبات على هذه الشاكلة ، ونلاحظ غلبة الطابع الديني عليها . بل إنها قد تتحول إلى خطبة دينية خالصة في بعض الأحيان ، كما نجد في خطبة عبادة بن الصامت في أهل حمص – وكان عمر بن الخطاب (ر) قد استعمله عليهم – إذ لا نجد ذكراً فيها لخطة الحكم أو غير ذلك من الأمور المتعلقة بالسياسة ، وإنما نراه يحذرهم من غرور الدنيا ، ويدركهم بالآخرة والحساب ، ويدعوهم إلى العمل الصالح^(٢) . ولا غرو في ذلك فقد كانت شخصية الحاكم دينية سياسية في آن .

غير أن أحوال العصر السياسية ، والفتنة، التي سبقت عهد علي بن أبي طالب (ر) كان لا بد أن ترك أثراً في خطبته التي القاها بعد توليه . فهو لا يوضح خطبه في الحكم ، ولا يدعو الناس إلى العمل الصالح أو يذكرهم بالأخرة ، كما فعل أسلافه ، وإنما يستكشف صورة المستقبل من خلال أحداث الحاضر ، ويغير الناس بما تحمله الأيام المقبلة من عذاب ، ومن خروج عن النهج الصحيح الذي رسمته الشريعة الإسلامية ، فيقول : « الا وانْ بَيْتُكُمْ قَدْ عَادَتْ كَهْيَثَتَهَا يَوْمَ بَعْثَةِ اللَّهِ نَبِيَّهُ . وَالَّذِي بَعْثَهُ بِالْحَقِّ لِتُبَلَّبَلَنَّ بَلَّبَلَةً وَلِتُغَرِّبَلَنَّ غَرَبَلَةً ، وَلِتُنْسَاطَنَّ سُونَطَ الْقِدْرَ ، حَتَّى يَعُودَ اسْفَلَكُمْ أَعْلَاكُمْ ، وَأَعْلَاكُمْ اسْفَلَكُمْ ۰۰۰ » (١٢)

والواقع أنَّ تلك الفتنة والأحداث تحت بالعلاقة مع السلطة منحى آخر لم يكن معهوداً من قبل في دولة المسلمين ، فترك ذلك أثره في ظهور ظاهرة جديدة في خطب هذه المناسبات ، لم تكن معروفة من قبل ، وهي التهديد . وتتجلى هذه الظاهرة بوضوح في خطبة سعيد بن العاص الذي أرسله عثمان (ر) وإليها على الكوفة ، فحاول منذ وصوله أن يرمي الرعب في قلوب أهل الكوفة ليضمن طاعتهم وكانتوا معروفين بأنَّهم لا يرضون عن أمير، ولذلك لم يطل خطبته فيهم ، ولم يدعُهم إلى الصلاح والورع ، وإنما عبَرَ عن خطبه بایجاز قائلاً: « وَاللَّهِ لَقَدْ بَعَثْتَ إِلَيْكُمْ وَإِنِّي لَكَارِهُ ، وَلَكُنِّي لَمْ أَجِدْ بَدَأً إِذَا أَمْرَتُ أَنْ أَتَّمِرَ ، أَلَا إِنَّ الْفَتْنَةَ قَدْ أَطْلَمْتُ خَطْمَهَا وَعَيْنَيْهَا ، وَوَاللَّهِ لَأُضْرِبَنَّ وَجْهَهَا حَتَّى أَقْمِعَهَا أَوْ تَعِينَنِي ، وَإِنِّي لَرَائِدٌ نَفْسِي الْيَوْمِ » (١٣) .

وكما كان الخليفة يشير إلى خطبته في الحكم ، كان يشير في بعض الأحيان إلى ما أنجذه من مهام ، وما قام به من أعمال ، كما نرى في خطب عمر بن الخطاب (ر) التي القاها عندما أراد التقويل من الشام ، وكان فيها ، إذ أشار إلى أنه أعطاهم حقوقهم بالعدل ، وأمَّن لهم سُبُلَ الدِّفاع ، وأمر ولاتهم بالسير فيهم بالعدل (١٤) .

كذلك كان على الخليفة أن يشير إلى نتائج المروء والفتورات التي كانت تقوم بها الجيوش الإسلامية ، إذ كان عليه أن يعطي الرعية علمًا بما يحدث على الجبهات البعيدة ، والخطابة هي وسيلة الإعلام التي كانت تقوم بهذه المهمة .

ولكن الخطابة السياسية اتجهت إلى أفق جديد بتأثير الأحداث السياسية

والاضطرابات الداخلية التي شهدتها الدولة الاسلامية في أواخر عهد عثمان (ر) وبعد أن كان الخليفة يدعو الناس إلى مساعدته في إنجاز مهامه ، وتقويمه إذاً حادت به الفتنة قليلاً عن الصراط المستقيم ، نرى عثمان (ر) عندما أحسنَ بخظر الفتنة يهدّد ويتوعد ظننا منه أنَّ في ذلك رادعاً كافياً لمن يفكّر بالغروج على طاعته . وهو يشير أيضاً إلى أنصاره وكثرة هم وقوتهم ، ويدافع عن نفسه ، ويبرد على المأخذ التي أخذت عليه فيقول : « أما والله لقد عبتم عليَّ ما أقررتُم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله ، وضرركم بيده ، وقمعكم بمسانده ، فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم . ولستُ لكم ، وأوطأ لكم كنفي ، وكففت يدي ولسانني عنكم ، فاجترأتم عليَّ . أما والله لأننا أقرب ناصراً ، وأعزَّ نفراً ، وأكثر عدداً ، وأحرى إن قلت هلْمُ آن يُجاب صوتي ، ولقد أعددت لكم أقرأنا وكثّرت لكم عن ثابي »^(١٦)

وهكذا يرى عثمان (ر) أن السر في الهدوء الذي ساد عهد عمر (ر) يرجع إلى استخدام عمر (ر) للقوة والقمع ، فيقرر استخدام هذا السلاح والتخلص عن الليونة التي جرأت الناس عليه ، كما يقول . لكن الأحداث كشفت له أنه لم يضع يده على « السر المحتقني » وأن التهديد بالقوة والعنف كان يستفز الناس أكثر مما يخيفهم ، وأن زمام الأمور خرج من يده ولن يفيده تبديل السياسة شيئاً .

وهذه اللهجـة القاسية تعود إلى الليونة ، بعد أن طال المصـار عليه ، دون أن تأتي قـوات من الأمصار لنجدـته ؛ ويكتشف أن الآمال اليـبني عليها كلامـه كانت سراباً خادعاً ، وأنه ليس أقـمن ، إنْ . قال : هـلم ، أن تجـاب دعـوه من عمر ، لأنـه ، كما يـبدو ، كان مـعتمدـاً على أسرـته الأمـوية التي قـرـبـها ، فـكانت سبـباً في تـفاقـمـ الفتـنة ، وـكانتـ لها طـموـحـاتـهاـ المـاحـضـة ، وـليـستـ علىـ استـعـدادـ للـتـخلـيـ عنـهاـ ، بـيـنـماـ اـعـتـمـدـ عمرـ (رـ)ـ عـلـىـ بنـاءـ قـاعـدةـ جـمـاهـيرـيةـ صـلـبةـ وـوـاسـعـةـ ، وـاستـطـاعـ ، بما آتـاهـ اللهـ مـنـ موـهـبـةـ ، أنـ يـقـيمـ بـيـنـ جـمـاعـاتـهاـ مـعـادـلـةـ توـازـنـ دقـيقـةـ وـلـئـدـتـ الأـمـنـ وـالـسـتـقرارـ .

وبـعـدـ المـفـاجـأـةـ الـتـيـ صـدـمتـ الـخـلـيـفـةـ عـشـانـ (رـ)ـ تـغـيـبـ عـنـ خطـابـهـ أـسـالـيـبـ التـهـدىـ وـالـوعـيـدـ ، وـتـمـيلـ إـلـىـ المـسـالـمـةـ وـالـمـوـادـعـةـ ، فـيـعـلـنـ تـوـبـتـهـ بـعـدـ أـنـ يـعـتـرـفـ

بخطئه^(١٧) . لكنه يرفض قبول طلب الثوار في التنازل عن الغلافة : « أما قولكم تخلع نفسك ، فلا أنزع قبصاً فمَصْنِيَّةً الله عز وجل ۰۰۰ »^(١٨) . وهكذا يتمسك بنظرية الحق الالهي التي هي أقدم النظريات حول أساس السلطة^(١٩) .

وبعد مقتل عثمان (ر) وتسليم عليّ (ر) الغلافة ، سادت حالة من التوتر على البلاد التي شهدت أحاداثاً عظيمة ، وشهد المجتمع الإسلامي انقساماً بين مؤيد لل الخليفة الجديد ومعارض . وكان من شأن ذلك أن يدفع بالخطابة السياسية إلى آفاق جديدة ، وأن يمدّها بمقومات نموّها واكتمالها .

لقد كان لكل فريق من المسلمين خطباً الذين يؤيدون موقفه ويرونه صواباً ، ويئمون الفريق الآخر ويذعون إلى مقاتلته . وكلّ يعرض حججه وإثباتاته . أما المعارضون لعليّ (ر) فكانوا خطبهم في العرض على الجهاد ، وسنثیر إليها فيما بعد . أما خطابه على (ر) وأنصاره فيمكن أن نشير إلى أبرز الأفكار التي وردت فيها ، والتي كان الخطباء يتکثرون عليها في مواجهة خصومهم :

١ - الاحتجاج لعق عليّ (ر) في الغلافة :

كان عليّ (ر) يرى أن الغلافة حقه الذي أخذ منه ، منذ وفاة الرسول^(٢٠) ، وهو يشير إلى ذلك كثيراً في خطاباته ، وكذلك أصحابه . ويشير أيضاً إلى أنه صمت عن المطالبة بهذا الحق حرضاً على وحدة المجتمع الإسلامي ، الذي لم يكن قد بلغ درجة من التماسك والتضييع يجعله قادرًا على مواجهة أزمات داخلية . يقول عليّ (ر) : « إن الله لما قبض نبيه استأثرت علينا قريش بالأمر ، ودفعتنا عن حق نحن أحق به من الناس كافة ، فرأيت أن الصبر على ذلك أفضل من تغريق كلمة المسلمين ، وسفك دمائهم . والناس حديثو عهد بالإسلام ، والدين يمخض مخض الوَطْب ، يفسده أدنى وهن ۰۰۰ »^(٢١) .

كذلك يشير عليّ (ر) إلى أنه بعد تسليمه منصب الغلافة ، ووصوله إلى هذا الحق ، بمعايعة جمهور المسلمين ، الذين انتلوا عليه بعد مقتل الخليفة



السابق ، ورجوه أن يقبل تسلم الغلافة ، خرج على طاعته جماعة منهم دون حق : « فلما نهضت بهذا الأمر نكثت طائفنة ، ومرقت أخرى ، وقسط آخرون »^(٢١) . وهذه الأفكار جميعاً تردد في خطب أصحابه أيضاً .

٢ - الرد على المطالبين بدم عثمان (ر) :

تدرُّع المعارضون لعلي (ر) في محاربتهم له ، بعجة الطلب بدم عثمان (ر) ، ورأوا في عدم التصاص من القتلة تقصيراً من على (ر) ، ودليلًا على إدانته . فاتهموه بمشاركة القاتلين فعلتهم بتعريضهم للقيام بها ، أو بالتسير عليهم . ورغم أن علياً وضيّط طلحة والزبير موقفه ، وأشار إلى المخاطر التي ينطوي عليها التصاص ، والمشاكل التي يجرّها إلى المسلمين وإلى الدولة الإسلامية^(٢٢) ، فانهملـ رغماً إظهار المواقفة على موقفه وعلى رأيه – لم يجدا بدأً من الخروج عليه ، مشدودين ببريق مطامحهما السياسية ، والتي يتغدر الوصول إليها دون التغلب على الخليفة الصارم . وقد وجدا أن إشارة المشاعر الدينية أيسر السبيل وأكثرها نجاحاً ، في استقطاب الجماهير ، وإيجاد القوة الالزمة لتحقيق ذلك . فرفعوا شعار المطالبة بدم عثمان (ر) .

ولم يكن على (ر) وأصحابه يجهلون الدوافع الحقيقة للاتهامات التي يوجهها المعارضون ، والشعارات التي ينادون بها ، فراحوا يردّون عليهم ويفندون مزاعمهم ، ويدركون موقفهم من عثمان (ر) أثناء الفتنة ، وأنهم لم يكونوا مناصرين . ويشير الأشتراطنجي إلى أن طلحة والزبير أول من أثبت الناس على عثمان (ر) ، وأول من سعى ضده ، فان كانوا صادقين فيما يدعوان إليه فليقتصيا من نفسيهما أولاً : « فان زعماً أنهما يطلبان بدم عثمان فليُقيدا من أنفسهما ، فانهما أول من أثّب الناس عليه ، وأغرى الناس بدمه »^(٢٣) .

٣ - الطعن في الخصوم :

تشير خطابة علي (ر) وأنصاره إلى أن المعارضين لعلي قد خرجوه عن الحق حين نكثوا البيعة ، وخرجوه عن طاعة الخليفة الشرعي – الذي اختاره

السلمون - ظلماً . ولم يكن همّهم الطلب بدم الخليفة المقتول ، كما يدعون ، وإنما كان سعيهم لمارب أخرى شخصية . يقول علي في خطبة له : « وإنما طلبوا هذه الدنيا حسداً لِمَنْ أفاءها الله عليه ، فأرادوا الأمور على أدبارها » (٢٤) .

وكما استغل خصوم علي (ر) وجود السيدة عائشة أم المؤمنين (ر) في صفوفهم ، لاثارة المشاعر الدينية في الجماهير ، واستمالتهم ، وإقناعهم بشرعية موقفهم وعدالتهم ، لما تحمله من معانٍ دينية لكونها زوجة الرسول (ﷺ) . حاول علي (ر) وأصحابه استغلال فعلة طلحة والزبير باخراج أم المؤمنين (ر) معهما إلى ساحة العرب ، وتعريفهما للمشقة والخطر ، في حين تركا نساءهما في بيوتهما بعيداً عن ذلك . يقول علي (ر) : « فخرجو يجرّون حرمة رسول الله (ﷺ) كما تُجر الأمة عند شرائها ، متوجهين بها إلى البصرة ، فجبرسا نساءهما في بيوتها وأبرزا حبس رسول الله (ﷺ) لهما ولغيرهما ... » (٢٥) .

٤ - تأنيب علي (ر) لأصحابه ، ولا سيما بعد التحكيم :

انطفأت جذوة العماسة ، أو كادت ، في نفوس أغلب المقاتلين العراقيين ، بعد أن دب الخلاف في صفوفهم ، إثر دعوة معاوية للتحكيم ، وبعد أن ملّ العراقيون الحرب الطويلة .

لقد كثف معاوية نشاطه بعد التحكيم ، سياسياً وعسكرياً ، ضد علي (ر) ، محاولاً استغلال الأوضاع التي آل إليها جيش المرافق إلى أبعد حدّ ممكن . ولم يكن علي (ر) قادرًا على إحباط محاولات معاوية وجهوده ، بسبب الحالة التي آل إليها جيشه ، فكان يتالم لشاقل أصحابه عن الجهاد ، ومغالق THEM له في الرأي ، ويؤتّهم لنفرتهم عن حقهم واجتماع أصحاب معاوية على باطلهم (٢٦) . وهو دائمًا يشير في تأنيبه لأصحابه إلى أن أصحاب معاوية سينتصرن على أصحابه ، ليس لأنهم أكثر قوة أو أقرب إلى الحق ، ولكن لطاعتكم صاحبهم ، وتمسّكم به ، وعدم مغالقتهم لشيء من أوامره ، وينظر على بكثير من العسرة والألم إلى هذه المفارقة في تفرق أصحابه عنه ، وهو على الحق ،

وأجتماع أهل الشام على معاوية ، وهو على الباطل ، حتى ليتمنى أن يبادله معاوية الرجال فيأخذ منه عشرة ويعطيه رجلاً واحداً ، فيقول : « أيها القوم الشاهدة أبدانهم ، الفائبة عنهم عقولهم ، المختلفة أهواهم ، المُبْتَلَى بهم أمراؤهم ، صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه ، وصاحب أهل الشام يعصي الله وهم يطعنونه ! لوددت والله أن معاوية صارفني بكم صرف الدينار بالدرهم ؛ فأخذ مني عشرة منكم وأعطاني رجلاً منهم » (٢٧) .

والواقع أن مشكلة التحكيم أوجدت أفكاراً جديدة تردد في خطابة علي (ر) السياسية غير تأنيبه لأصحابه . فلم يكن لافتصال جماعة الحوارج عن جيشه أثر عسكري وحسب ، وإنما كان له أثره السياسي أيضاً . فقد طرحت أكثر من إشارة استفهام حول صحة موقف علي (ر) من التحكيم ، وأخذت الثقة تتزعزع في النفوس ، حتى إن رجلاً من أصحابه قام إليه فقال : « نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها ، فلم ندرِّ أي الأمرين أرشد » (٢٨) .

حاول علي (ر) أن يعيده جماعة « الحوارج » إلى صفوته ، فراح يدعوهم إلى عدم الفرقة ، ويبين لهم صحة موقفه معتبراً على ذلك بالقرآن الكريم والمحدث الشريف (٢٩) ، ويدركهم بأنهم هم الذين طلبوا التحكيم (٣٠) .

وبعد إعلان نتيجة التحكيم يعترض علي (ر) وأنصاره على النتيجة ، بحجة أن « الحكمين نقضوا العهد الذي أعطياه ، وحكموا بأهواهما وليس بالقرآن . فكانت هذه الأفكار تتردد في خطابهم السياسية . يقول الحسن بن علي (ر) : « أيها الناس ، قد أكثرت في أمر أبي موسى وعمرو ، وإنما بُعثا ليحكما بالقرآن دون الهوى ، فحكمما بالهوى دون القرآن » (٣١) .

ولا تخلو خطب علي السياسية من إشارات إلى إصراره على متابعة قتال المنشقين عنه حتى يرجعوا عن الباطل ويقوم الحق (٣٢) .

ثانياً - المشاورات السياسية :

والمشاورات هي أحد أصناف المخاطبات عند المنطقين (٣٣) ، ولكنهم يعنون بهذا الاسم شيئاً أوسع مما نريده نحن هنا ، إذ يرون أنها الخطب التي تعالج

أمراً غير حاصل فعلاً ، ولكنه يحصل في المستقبل^(٣٤) . ويررون أن غاية الخطيب منها « إقناع الجمود على فعل ما هو خير لهم وفيه مصلحتهم ، والاقلاع عن المساوىء والشروع وما يضرهم »^(٣٥) .

أما ما نعنيه هنا بخطب المشاورات فهي تلك الخطب التي قيلت في مواجهة أمرٍ من الأمور الواقعية الآن أو التي قد تقع في المستقبل بهدف الوصول إلى قرار موفق وصائب . فقد كانت خطورة الأحداث السياسية التي شهدتها صدر الإسلام تدعو الحكم في أغلب الأحيان لاستشارة ذوي الرأي من المسلمين ، وتبادل الآراء معهم ، في محاولة للوصول إلى اتخاذ القرار المناسب بشأن هذا الحدث أو ذاك . وكان الرسول^(نبينا) يستشير أصحابه دائمًا عندما يتعرض المسلمون لأمر هام^(٣٦) ، وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدون (ر) وولاتهم .

ولم يكن من الضروري أن تعقد مجالس خاصة يختلي فيها ذوي الرأي والتشاور ، فكثيراً ما كان يتم هذا الأمر في المساجد ، أو في ساحات القتال أمام الملا ، إذ يخطب الحكم – أو القائد – معلمًا ما يعتقد العزم عليه ، وطالباً الرأي والنصيحة من ذوي الرأي ، فيقوم هؤلاء ويدلون بآرائهم ، وكثيراً ما تكون ردودهم بشكل خطبة يؤيدون فيها فكرته ، ويشجعونه على المضي فيما يراه ، أو يعترضون ، وعندئذ يقدمون آرائهم واقتراحاتهم التي يرونها أفضل أو أكثر جدوى . وفي كثير من الأحيان كان هؤلاء يعرضون آرائهم إزاء هذا الحدث أو ذاك من الأحداث الجارية دون دعوة لاستشارتهم^(٣٧) .

ومن تلك المشاورات ما كان بين الرسول^(نبينا) وأصحابه قبل معركة أحد ؛ فقد رأى^(نبينا) رؤيا ، فلما أصبح واجتمع المسلمون ، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ، إني قد رأيت في منامي رؤيا ؛ رأيت كأنني في درع حصينة ، ورأيت كأن سيفي ذا الفقار انقض من عند ظبيته ، ورأيت كأنني مردف كبشًا . فقال الناس : يا رسول الله فما أولتَها ؟ قال : أما الدرع حصينة فالدمينة ، فamacrثوا فيها ، وأما انقضام سيفي عند ظبتيه فمحصيبة في نفسي ، وأما مردف كبشًا فكبش الكتبة نقتله إن شاء الله »^(٣٨) ،



وقال (عنه) لأصحابه أشروا علىٰ ، فقام رجال منهم وخطبوا معتبرين عما يرون له مناسبة^(٢٩) .

ومن تلك المشاورات أيضاً ما كان بين أبي بكر الصديق (ر) وبعض أصحابه عندما أراد أن يجهز الجيوش إلى الشام^(٤٠) ، وما كان بين عمر (ر) وأصحابه عندما علم بتجمع جموع الفرس بنهاوند^(٤١) ، وكذلك ما كان بين عليٰ (ر) وأصحابه عندما أرادوا المسير إلى أهل الشام^(٤٢) . وغير ذلك كثير .

ويلاحظ أنَّ خطب المشاورات التي قيلت في المروء الداخلية تتعرض لذكر الخصوم ونياتهم وأفعالهم وأهدافهم ومثالبهم . . . بخلاف خطب المشاورات التي قيلت حول الفتوحات ، فهذه الأخيرة لم تتعرض لذكر الخصوم إلاً من حيث قوتهم ، وهذا الأمر يعود إلى الاختلاف الكبير بين المريدين ، وذلك لأنَّ المروء الداخلية كانت بين المسلمين أنفسهم ، وكل فريق من المتعاربين يعرف الكثير عن الفريق الآخر . ومن جهة أخرى كان على كل فريق أن يسعى لاعطاء موقفه صفة الشرعية ، ويوضح المسوَّغات التي تبيح له معاربة ذلك الفريق المسلم .

وفي كثير من الأحيان نلاحظ أنَّ المحاكم كان يقوم ، بعد أن يستمع إلى الآراء كافة ، في خطب في القوم موضحاً رأيه الذي استقرَّ عليه بعد التحوار والامر الذي عقد العزم عليه^(٤٣) .

وكثيراً ما كانت هذه الخطب تصرحت لا تكون أكثر من عبارات قليلة ، يوجز فيها الخطيب قراره الذي اتخذه ، كقول عليٰ (ر) بعد استشارة أصحابه في المسير إلى الشام : « سيروا إلى أعداء الله ، سيروا إلى أعداء السنن والقرآن ، سيروا إلى بقية الأحزاب ، قتلة المهاجرين والأنصار »^(٤٤) .

ثالثاً – المناظرات السياسية :

هذا النوع من الخطابة السياسية عرفه صدر الإسلام ، ولما إليه الخطباء المسلمين ، لكن ملامحه لم تتضح بشكل جليٍّ إلاً في العصر الأموي ، إذ صار المسلمون شيئاً وأحزاباً ، كلٌّ يدعي أنَّ الحق إلى جانبه ، وأنَّه على صراط

مستقيم . واقتضى ذلك الاهتمام بالحجج الدامنة ، والبدل ، لاقناع المصوم بضعف مذهبهم .

ومع ذلك فقد شهد مصدر الاسلام أحداثاً ومواقوف دفعت بالخطباء المسلمين إلى الاعتماد على هذا الفن ، ولعل من أهم تلك الأحداث ما جرى بين المهاجرين والأنصار في سقيفة بنى ساعدة ، يوم توفي النبي الكريم (رضي الله عنه) وطرح مسألة الحكم للمناقشة بصوت مسموع^(٤٥) .

ومن المناظرات المشهورة أيضاً ما كان بين علي بن أبي طالب (ر) والغوارج في أمر الحكومة ، في أعقاب حرب صفين . فقد اعترض هؤلاء على التحكيم واعتزلوا علينا (ر) وجماعته ، وشكروا فريقاً ثالثاً من المسلمين له تقويمه الخاص للأمور . ومع أن الخلاف قد يبدو حول مسألة دينية فإنه اتّخذ شكل الموقف السياسي ، ولا غرابة في ذلك إذ إن «الجماعة السياسية» في الاسلام انبثقت من الجماعة الدينية»^(٤٦) .

وقد حاول علي (ر) أن يعيد هذه الجماعة إلى صفوتها ، لأنه كان بحاجة إلى تلك القوة البشرية من جهة ، وكان بحاجة إلى تركيز جهوده واهتمامه على الجبهة الشامية من جهة أخرى ، اذ لم يكن في صالحه ان يوزع اهتمامه وجهوده بين محاربة الغوارج ومعاربة معاوية . ثم انه خشي من انتشار المعارضات بين صنوف قواته من جهة ثالثة . ولذلك خرج إلى معسكرهم أكثر من مرة وناظرهم^(٤٧) .

كذلك أرسل إليهم ابن عباس لمناظرتهم غير مرّة . ولما كان موقفهم السياسي ناشئاً عن فهم ديني خاص لمشكلة التحكيم ، فقد كان من الطبيعي أن يبحثوا هذه المسألة السياسية من وجهة نظر دينية . وفي مناظرات ابن عباس لهم ما يعطي صورة واضحة عن المناظرات في هذا العصر^(٤٨) .

وقد كان المناظرون يعتمدون في مناظراتهم على ثقافتهم العربية المستمدّة من التراث الجاهلي ومن الدين الاسلامي الحنيف ، وتظاهر في مناظراتهم طبعاً عليهم العربية في المناقشة والاحتجاج .

وابعاً - خطب العرض على الجهاد :

كانت المارك التي دارت رحاها بين المسلمين والمرتكبين في عهد النبوة ، والفتورات الإسلامية الواسعة في عهد الخلفاء الراشدين (ر) ، سبباً لازدهار هذا اللون من الخطابة ، ثم جاءت العروبة الداخلية ، بين المسلمين أنفسهم لتساهم بدورها في هذا الإزدهار .

فقد كانت تلك الأحداث الهامة تستدعي خطباً تذكي العماسة في نفوس المقاتلين ، وتشير إليهم مواطن الرجال والشجاعة ، وتعمق في أنفسهم قداسة الأمر الذي يقاتلون من أجله وعظمته ، وتغريهم بالأجر العظيم الذي سيغزون به . ولا ريب في أنه كان لهذه الخطابة أثراً كبيراً في الانتصارات التي تحققت . فالعربي معروف بسرعة انفعاله وتأثيره ، وكانت الكلمة الرائعة ، شمراً أو ثراً ، تفعل فيه ما لا يستطيع أن يفعله شيء آخر . فليش من الغريب ، بعد ذلك ، أن يصل إلينا ، رغم عوادي الزمن ، كـ «هائل من خطب العرض على الجهاد » .

ونستطيع أن نقسم هذه الخطب إلى قسمين رئيسين تبعاً لنوعية العروبة التي قيلت فيها :

- أ - خطب المغازي والفتور .
- ب - خطب العروبة الداخلية .

١ - خطب المغازي والفتور :

لم يصل إلينا من عهد النبوة خطب من هذا اللون تكفي لاعطاء صورة واضحة عنها . والأرجح أنها لم تكن تختلف كثيراً عن الخطب التي قيلت في عهد الخلفاء الراشدين (ر) ، ولكن تكون أكثر دقة يجب أن نستثنى من هذا الحكم خطبة الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) التي قالها يوم أحد والتي يوصي فيها المسلمين بوصايا كثيرة لا علاقة لها بالتعريض^(٤٩) .

وفي هذا النوع من الخطب يعمد الخطيب إلى تشجيع المقاتلين وترغيبهم .

في القتال في سبيل الله ، إعلاه للكلمة الحق ونشر الدين الاسلامي . فيذكر لهم فضل الجهاد ، ونعميم الآخرة العظيم الدائم ، ومنزلة الشهيد والشهادة عند الله عز وجل ، ويعدم الغطيب أحياناً إلى ذكر الفنية التي قد يصيّبها المقاتلون ، والكسب الذي يكسبونه من نعيم الدنيا في حال الانتصار . وكذلك يدعوهم إلى الثبات والصبر ، ويقترب لهم الفرار ، ويهون من شأن الأعداء وعددهم وعدتهم ، ويبشر بنصر الله الذي وعدهم الله تعالى به . وهو في ذلك كثيراً ما يستشهد بالآيات القرآنية التي تشير إلى الجهاد ، وإلى الوعد بالنصر والثواب .

ومن ذلك خطبة سعد بن أبي وقاص في يوم أرماث - وهو اليوم الأول من أيام القادسية ، سنة ١٤ هـ - إذ قال بعد حمد الله والثناء عليه : « إن الله هو الحق لا شريك له في الملك ، وليس لقوله خلف ، قال جل ثناؤه : (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالعون) ، وإنَّ هذا ميراثكم وموعد ربكم ، وقد أباها لكم منذ ثلاث حجيج ، فأنتم طعمون منها وتأكلون منها ، وتقتلون أهلها ، وتبذبونهم ، وتسبوّنهم ، إلى هذا اليوم ، بما نال منهم أصحاب الأيام منكم ، وقد جاءكم منهم هذا الجموع ، وأنتم وجوه العرب وأعيانهم ، وخيار كل قبيلة ، وعزَّ منْ وراءكم ، فان تزهدوا في الدنيا وترغبوا في الآخرة جمع الله لكم الدنيا والآخرة ، ولا يقربَ ذلك أحداً إلى أجله ، وإن تفشلوا وتنهوا وتضعنوا تذهب ريحكم وتوبقوا آخركم » (٥٠) .

ونلحظ كيف أن سعداً حاول أن يتوصل بكل ما من شأنه أن يذكر المعاشر في نفوس المقاتلين ، حتى المصبية القبلية ، حيث أشار إلى أنهم وجوه قبائلهم وعزَّ منْ وراءهم . ولم يكن يجهل ما لهذه الاشارة من أثر في جعلهم يبذلون كل ما يوسعهم من قوة في سبيل النصر

وهذه الاشارة إلى المصبية القبلية تبدو بوضوح أكثر في خطب أخرى ، كخطبة جريير بن عبد الله البجلي الذي وجه خطبته إلى قومه مبتدئاً بهذا النداء : « يا معاشر بجيلة » (٥١) ، ثم راح يرغبهم في المغفارة ، ويعرضهم على القتال . وعلى الرغم من أنَّ هذه الاشارات لا ترقى إلى مستوى الظاهرة ، فإنها تتطلَّب شاهداً حياً على حياة المصبية القبلية التي لم يستطع الاسلام أن يجتنها من جذورها .



وقد يلغا الخطيب إلى أسلوب آخر في تعريض المقاتلين على القتال ، وذلك بذكر حقد الأعداء عليهم واستعدادهم التام لقتالهم ، مع الاشارة إلى عدم إمكانية الاستعانته بقوات إسلامية أخرى ، فليس لهم إلا السيف جنّة ، ولا ينفهم إلا الصبر والثبات . وهذا ما فعله أبو سفيان بن حرب يوم اليرموك ، وكان يومئذ يسير في الناس، ويقف على أهل كل راية ، وعلى كل جماعة فيحرّض الناس ، ويحضهم ويقول : « إنكم يا معاشر المسلمين أصبحتم في دار العجم ، منقطعين عن الأهل ، نائين عن أمير المؤمنين وأمداد المسلمين . وقد والله أصبحتم بازاء عدو كثیر عددهم ، شديد عليكم حنقهم ، وقد وترتهم في أنفسهم ونسائهم وأولادهم ولبلادهم ، فلا والله لا ينجيكم منهم اليوم ، وتبلغون رضوان الله ، إلا بصدق اللقاء ، والصبر في مواطن المكر وهم فامتنعوا بسيوفكم ، وتقربوا إلى خالقكم ، ولتكن هي المحسنة التي تلتجؤون إليها ، وبها تنتعنون »^(٥٢) .

ب - خطب المروءة الداخلية :

ترك المروءة الداخلية التي أضرمتها الفتنة في عهد علي (ر) مجموعة من خطب المرض على المياد ، فقد راح خطباء كل فريق يحضرون جماعتهم على قتال الفريق الآخر ، ويدعون أنَّ قتالهم لهجاء في سبيل الله وفي سبيل إعلاء كلمة الحق ، وثوابه البنة التي وعد الله تعالى المجاهدين بها ، ومن قُتل فهو شهيد له ما وعد الله الشهداء به ، وقد يستشهد الخطباء في خطبهم بالأيات القرآنية . غير أننا نلاحظ في خطب هذه المروءة أن لكل فريق أموراً يتمسّك بها على أنها حجة يستعين بها على إثبات صحة موقفه وشرعيته ، وعلى إظهار جور الفريق الآخر ومجانبه للحق وخروجه عن الصراط المستقيم .

١ - فتنة أصحاب الجمل :

وفي هذه الفتنة نجد أن أصحاب الجمل يتذرعون بالطلب بدم عثمان (ر)؛ الخليفة الذي قتل مظلوماً ، ومن ذلك ما قاله طلحة في خطبة له ، بعد حمد الله والثناء عليه ، وذكر عثمان (ر) وفضله ، والليل وما استحلّ منه ، ويعظم ما أتى إليه : « إنَّ في ذلك إعزاز دين الله عز وجل وسلطانه . وأما الطلب بدم الخليفة



المظلوم فانه حدَّ من حسود الله ، وإنكم إن فعلتم أصبتم ، وعاد أمركم إليكم .
وإن تركتم لم يقم لكم سلطان ، ولم يكن لكم نظام «^(٥٣) » .

ولا ينسى الخطباء الاشارة إلى افضال عثمان (ر) ، وأنَّ الناس كانوا
يتجنّون عليه ويتهمنه بما ليس فيه ، حتى إذا وجدهوا القوة عليه قتلوه
ظلماً^(٥٤) .

أما أصحاب علي (ر) فيذكرون آفضاله ، ويشيرون إلى أنَّ أعداءه
يطلبون الدنيا ولا يطالبون بدم عثمان (ر) كما يزعمون ، وأنَّ ملحة والزبير
نكتا البيعة بغير حق ، وخرجوا عن طاعة الامام الشرعي ظلماً وعدواناً . . . وقد
تعددنا عن ذلك عند حديثنا عن المطابقة السياسية الخالصة فلا داعي للتكرار هنا .

٢ - فتنة معاوية :

وفي خطب التعریض التي قيلت في هذه المرحلة ، تردد بعض الأفكار التي
طالعتنا في خطب الفتنة السابقة . فنلاحظ أنَّ أصحاب علي (ر) يذكرون أنَّه على
حق ونور وبرهان ، ويشيرون إلى فضله في الإسلام وإيمانه ، وأنَّه ليس له
هفوة ، إذ إنه أسلم صغيراً وعاش حياته كلها مسلماً . بينما كان معاوية على
الشرك قبل إسلامه ، وفي صفوف أعداء الإسلام . وكذلك يتذدون من وجود
جماعة من البدريين في صفوفهم حجّة لهم على صحة موقفهم ، ويشيرون إلى أنَّهم
يقاتلون تحت رايات الرسول^(بيهقي) بينما يقاتل أصحاب معاوية تحت رايات
الشركين . يقول الأشتر التنجي : «معنا ابن عم نبينا ، وسيف من سيف الله ،
علي بن أبي طالب ؛ صلى مع رسول الله^(بيهقي) ، لم يسبقه إلى الصلاة ذكر ، حتى
كان شيئاً لم يكن له صبغة ولا نبوءة . . . واعلموا أنكم على الحق ، وأنَّ
القوم على الباطل ؛ وإنما تقاتلون معاوية وأتمتم مع البدريين قريب من مئة
بدرى ، سوى من حولكم من أصحاب محمد . أكثر ما معكم رايات قد كانت
مع رسول الله ، ومعاوية مع رايات قد كانت مع الشركين على رسول الله صلى
الله عليه وسلم . . . »^(٥٥) .

ذلك يشيرون إلى أنَّ علياً يقاتل على حقه ، بينما يدعى معاوية ما ليس
له ، ويزين الفسلاة لأتباعه ، ويلبس عليهم الأمور . فهم يطلبون بدم ظالم ،

وصبرهم في القتال لا ينبع من صدق إيمانهم ، وإنما ينبع من الميّة الجاهلية التي ما زالت في نفوسهم . فهم يقاتلون من أجل الدنيا ، وقتلهم لذلك ليس شهيداً ، ومصيره ليس إلى الجنة بل إلى النار . ولم ينس هؤلاء الخطباء الاستفادة من مساوىء الولاة الأمويين في زمن عثمان بن عفان (ر) ، فراحوا يذكرون الناس بها ، ويشارون إلى أنَّ انتصار معاوية يعني وصول مَنْ هم مثلهم سوءاً إلى السلطة ، مع ما يحمله ذلك كله من ظلم وتعسف . يقول يزيد بن قيس الأرabi : «... فلو ظهروا عليكم - لا أراهم الله ظهوراً ولا سروراً - لزموكm بمثل سعيد والوليد وعبد الله بن عامر السفيه الضَّال ... فقاتلوا عباد الله القوم الظالمين ، المحاكمين بغير ما أنزل الله، ولا يأخذكم في جهادهم لوم لأنَّ ، فانهم إن يظهروا عليكم يفسدوا عليكم دينكم ودنياكم ...»^(٥٦) .

كذلك لا يفضل الخطباء الاشارة إلى أنَّ معاوية وأصحابه يتخدون من دم عثمان (ر) ذريعة لقتال علي (ر) ووسيلة لاستمالة الناس ، بينما هم في الحقيقة يطلبون الدنيا ومتاعها^(٥٧) .

أما علي (ر) فكان يحذرهم من الفرار ، ويشر لهم بالنصر ، ويؤكد لهم أنَّهم على حق ، وأنَّ أعداءهم على الباطل . وفي بعض الأحيان كان يشعد عزائمهم باعلان الرضى عن شجاعتهم وإقدامهم في ساحات الوجى^(٥٨) .

أما معاوية وأصحابه فقد كان الثار لعثمان (ر) ديدَنَهم ، فراحوا يطالبون به ، ويدركون أنَّهم على حق ، وأنَّ علياً(ر) على باطل ، لأنَّه نكث البيعة ، وسفك الدم المرام . وإن لم يكن قتل عثمان (ر) ؛ فقد خذله ، وليس له في الحالين عذر عند الله . كما أنَّهم يشارون إلى مكانة عثمان (ر) ؛ فهو صهر الرسول (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) ، ومجهز جيش العسرة . فاما ما أخذ عليه من أخطاء فليس يعني أنه خرج عن الحق واستحق القتل قصاصاً ، فقد أذنب الأنبياء من قبل ، وهم خير منه وأعلى منه منزلة عند الله .

ولا فطن هؤلاء إلى أن حجتهم الدينية لا تبلغ من القوة ما تبلغه حجج علي (ر) وأصحابه فقد اهتموا بأسلوب آخر ، وهو إظهار علي (ر) وأصحابه

بمظهر المعتمدي الفازي الذي يطمع في الاستيلاء على الشام عنوة ، ولذلك ترك العراق وأتى إليها . ولا شك في أن هذا الأسلوب كان أكثر إثارة للعبيبة الجاهلية ، ولا سيما حين يشير الخطباء إلى الخطر الذي يحمله العراقيون على النساء والذراري . يقول يزيد بن أسد البجلي : « ٠٠٠ ثم قد كان مما قضى الله أن جمعنا وأهل ديننا في هذه الرقعة من الأرض . والله يعلم أني كنت لذك كارها ، ولكنهم لم يبلغونا ريقنا ، ولم يتركوتنا نرتاد لأنفسنا ، وننظر لعادنا حتى نزلوا بين أظهرنا ، وفي حريمنا وبضتنا . وقد علمنا أن في القوم أحلاماً وطفاماً ، فلنسنا نأمن طفامهم على ذرارينا ونسائنا . وقد كنا نعب إلا نقاتل أهل ديننا فآخر جونا حتى صارت الأمور إلى أن قاتلناهم كراهة ٠٠٠ »^(٥٩) .

أما في تعریض المهزمين من ساحة المعركة على القتال ، ودعوتهم للصبر والثبات ، فكان الخطباء يعمدون إلى ذكر القوم بقبيلتهم ، وتذكيرهم بمكانتها ، وبتاريخها المفعم بالشجاعة والاقدام ، مع الاشارة إلى ما يحمله المفرار على القبيلة من العار ، ولكن دون إهمال المغريات الدينية إهمالاً تاماً ؛ كالذكر بالجنة التي أعدت للمجاهدين والشهداء ، والتذكير بأنَّ الفرار لا ينجي من قضاء الله^(٦٠) . ويبدو أن الخطباء كانوا يرون في ذلك الفرار ضعفاً في إسلام المهزمين ، ولذلك فإن إثارة العبيبة الجاهلية أكثر جدوى في تشتيتهم ، وإثارة حماستهم ، من إثارة الموافط الدينية .

ولم يكن التعریض على القتال وقفاً على الرجال ، فقد شاركت النساء في ذلك ، وتعريف النساء أمر معروف منذ الجاهلية وبعد اشارات اليه في الشعر^(٦١) . وقد حفظت لنا كتب الأدب بعض خطب النساء المسلمات في التعريف ، وهي لنساء كنَّ مع عليٍ (ر) في صفين ، لكنَّ يفعلن كما يفعل الرجال ، يذكرون علينا (ر) ومقامه وأيمانه ، ويشرعن إلى بغي أهل الشام وتقاعهم ، ويدذكرون بالجنة والثواب والنصر القريب ، ويدعين إلى الثبات والصبر^(٦٢) .

وفي خطب الحض على الجهاد كثيراً ما يلجم الخطيب إلى توصية الجندي ببعض الوصايا العربية التي من شأنها أن تزكيهن شجاعتهم ، وتوقع الربح في قلوب أعدائهم . كاتخاذ أوضاع معينة في القتال ، واتباع خطة معددة في مواجهة العدو .

وهناك لون آخر من خطابة الحضّ على الجهاد؛ وهو خطب الاستنفار للقتال. وهذا اللون يختلف عن خطب الحض على الجهاد قليلاً، إذ إن خطب الاستنفار تكون قبل المعركة، لكنه يتافق معها في الدعوة إلى الجهاد، وذكر الجنة ونفيها، والشهادة ومنتزتها. وفي الفتنة الداخلية كان الخطيب يشير إلى مثالب الأعداء في كثير من الأحيان، ويؤكد للقوم أن قتالهم جهاد في سبيل الله ۰۰۰ إلى غير ذلك من الأفكار التي تتردد في خطب الحض على الجهاد.

ففي الفتوحات يكون الجيش في أغلب الأحيان بعيداً عن مركز الخلافة ولذلك فإن الخليفة كان إذا أراد أن ينتدب وحدة مقاتلة إلى جهة معينة، يرسل كتاباً إلى قائد الجيش يوضع فيه مراده، فيقوم هذا بقراءة الكتاب على الجندي، ويوضح أمر الخليفة، ويدعو الجندي إلى الاستعداد للمشاركة في القتال. وإذا انتدب الخليفة الناس يوضح جهة الحرب، وكثيراً ما يعطي تعليماته حول الأمور، ويوصي الجندي بطاعتهم. وهذه الخطبة، في أغلب الأحيان تختتم بعبارة: «فانتدوا رحمة الله مع فلان»، أو « فمن شاء أن ينفر فلينفر» أو «سروا رحمة الله إلى ۰۰۰» إلى غير ذلك من العبارات. ولا بأس أن نشير هنا إلى أن الرسول (ﷺ) لم يكن يحدد الوجهة التي يريد لها، حين كان يستنصر الناس للجهاد. وإنما كان يكتفى عنها، إلا ما كان من غرفة تبوك، فإنه بينماها للناس «لبعد الشقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو الذي يقصد له، ليتأهب لذلك أهبته»^(٦٢). وقد كان السبب في تكتم الرسول (ﷺ) أن الدولة الإسلامية لم تكن قد بلغت أشدتها، فكان (ﷺ) يخشى أن تنتقل الأخبار فيأخذ العدو أهابته، أو يبدأ المسلمين بالقتال.

أما في الحروب الداخلية فإن هذه الخطبة كانت تبدأ في كثير من الأحيان بـ «يا أيها الناس ۰۰۰» أو بنداء أهل مصر: «يا أهل الكوفة ۰۰۰ يا أهل الميسرة»، وقد ينادي باسم القبيلة صراحة، ولا سيما إذا كان الذي يستنصر القوم رجلاً منهم، وهو عندئذ يتبع الأسلوب المباهلي في إشارة حماستهم، فيذكر أنه يفخر الناس بهم، ويحضّهم على سبق القبائل الأخرى إلى الفوز بهذا الفخر والفضل^(٦٤).

خامساً - الوصايا الحربية والسياسية :

آ - الوصايا الحربية :

وفي هذه الوصايا يوضح الموصي للقائد ، أو للجند عامة ، الخطة التي يجب عليهم أن يتبعوها في مواجهة الأعداء ، وكيف عليهم أن يتصرفوا إزاء بعض المواقف التي قد تواجههم . أو إزاء القوم المعارضين بين أنفسهم . وكثيراً ما كانت تقرن هذه الوصايا في أيام الفتوحات بدعة أصحاب البلد إلى الإسلام ، وبالتعامل معهم وفق الأخلاق الإسلامية .

كذلك كان الموصي يوصي القائد كيف يتصرف مع الجنديين تحت إمرته ، مع تنبيهه إلى أنهم يقتدون به ويحتذون حذوه . وقد يفصل قليلاً فيوضخ للقائد طريقة التعامل مع الجندي بشكل دقيق يضمن له قيامهم بهمأتمهم على أكمل وجه ، كما يحافظ على تماسك الجيش وقوته . ومن ذلك وصية أبي بكر (ر) ليزيد بن أبي سفيان ، التي يقول فيها: «... واسمر بالليل في أصعابك تأتك الأخبار ، وتكتشف عندك الأستار ، وأكثر من حرسك ، وبدهم في عسكرك ، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم ... وعقب بينهم بالليل ، واجعل التوبة الأولى أطول من الأخيرة ...»^(١٦)

أما في المروء الداخلية فكانت أغلب الوصايا تقال في ساحة المعركة وتأخذ شكل التوجيهات الحربية التي يلقاها القائد على الجندي موضحاً كيفية بذله القتال ، وكيفية توزيع القوات ...

بقي أن نشير إلى أنَّ هذه الوصايا كانت تشتمل ، في كثير من الأحيان ، على وصايا اجتماعية أو دينية ولا سيما في الفتوحات، بل إنَّ بعض هذه الوصايا يأخذ منحىً اجتماعياً ، فتبدو الوصية اجتماعية لا علاقة لها ، مباشرة ، بالغرب والقتال^(١٧) .

ب - الوصايا السياسية :

وكان الغرض منها تزويد الموصي له بأنجع الأساليب في التعامل مع الطرف الآخر ، وارشاده إلى السياسة المثلثي التي تتضمن له التباحث في المهمة الملقاة على عاتقه

ومن هذه الوصايا وصايا الخلفاء لولاتهم ، أو من سيأتي بعدهم ويحل محلهم ، وفي هذه الحال تكون الوصية منهجاً للعلاقة بين الحاكم والرعية ، يفترض بالحاكم أن يتزلم به مدة حكمه . ومع أنَّ الوصايا ، في هذا المجال ، تمثل إلى التصر ، فإنَّ المصادر حملتُ إلينا وصية طويلة لمر بن الخطاب (ر) أوصى بها الخليفة من بعده . وهو يوصيه بالقوى ، وبالماهرين الأولين ، وبأهل الأمصار والبادية ، وبأهل الذمة ، ويوضح له أسلوب التعامل مع الرعية بحيث يرضي الله ويرضي الناس^(٦٧) .

ولما كان مفهوم الحاكم للسلطة هو الذي يحدد العلاقة بين السلطة والرعية فقد كان من الطبيعي أن يتبدل مضمون الوصية بين حاكم وآخر بشكل فد يكون كبيراً . فبينما نجد عمر (ر) يوصي خليفة بالمساواة بين الرعية ، والمدل ، نرى معاوية يهدف إلى تعزيز السلطة . ولذلك يوصي عمرو بن العاص عندما أرسله إلى مصر قائلاً : « ۰ ۰ ۰ فإذا أنت ظهرت فليكن أنصارك آثر الناس عندك ، وكل الناس فأول حسناً »^(٦٨) .

وقد تركت أحداث التحكيم بين الشام والمراق مجموعة من الوصايا السياسية التي وجّهت إلى الحكمين . ونلاحظ أن الجانب السياسي يغلب عليها ، بينما كان يغلب الجانب الاجتماعي أو الديني على غيرها من الوصايا السياسية في هذا العصر .

هذه هي صورة الخطابة السياسية في عصر صدر الإسلام وهو عصر نشوء الخطابة الإسلامية ونموها ، وهي صورة واضحة الملامح ، بارزة القسمات ، تجعلنا نطمئن إلى القول : إن عصر صدر الإسلام هو صاحب الفضل في وجود الخطابة السياسية الإسلامية وهو الذي منحها سماتها الأساسية التي لم يستطع الخطباء الأمويون – فيما بعد – أن يضيفوا إليها شيئاً ذا بال . وإذا كان العصر الأموي هو العصر الذهبي للخطابة العربية فإن الخطباء الأمويين مدینون بالكثير لأسلافهم من خطباء صدر الإسلام .

□ المواشي :

- ١ - السيرة النبوية : ٨٥/٢
- ٢ - المصدر السابق : ٩٠/٢
- ٣ - انظر مثلاً السيرة النبوية : ٦٧/٣
- ٤ - الخطابة العربية في مصرها الذهبية : ١٤٥
- ٥ - أديان العرب قبل الإسلام : ١٥٣
- ٦ - السيرة النبوية : ٧٥/٢
- ٧ - المصدر السابق : ٨٤/٢
- ٨ - المصدر السابق : ٨٥/٢
- ٩ - المصدر السابق : ٨٦/٢
- ١٠ - المصدر السابق : ٨٨/٢ ، ٨٩
- ١١ - المصدر السابق : ٣١١/٤
- ١٢ - انظر خطبته في فتوح الشام : ٢٤٨
- ١٣ - شرح نهج البلاغة : ٢٧٢/١
- ١٤ - تاريخ الرسل والملوك : ٢٢٩/٤
- ١٥ - انظر خطبته في المصدر السابق : ٦٥/٤ ، ٦٦
- ١٦ - شرح نهج البلاغة : ٢٦٥/٤ ، ٣٩٩/٤
- ١٧ - انظر خطبته التي يعلن فيها التوبة في تاريخ الرسل والملوك : ٣٩٩/٤
- ١٨ - المصدر السابق : ٣٧٦/٤
- ١٩ - بناء المجتمع : ٩٦
- ٢٠ - شرح نهج البلاغة : ٣٠٨/١
- ٢١ - المصدر السابق : ٢٠٠/١
- ٢٢ - انظر الفتنة ووقفة الجمل : ٩٧
- ٢٣ - شرح نهج البلاغة : ٣١١/١
- ٢٤ - المصدر السابق : ٢٩٥/٩
- ٢٥ - المصدر السابق : ٣٠٨/٩ ، ٣٠٩
- ٢٦ - انظر المصدر السابق : ٣٣٢/١
- ٢٧ - المصدر السابق : ٧٠/٧
- ٢٨ - المصدر السابق : ٢٩١/٧
- ٢٩ - انظر المصدر السابق : ١١٢/٨
- ٣٠ - انظر المصدر السابق : ٢٩٧/٧
- ٣١ - الامامة والسياسة : ١٣٨/١
- ٣٢ - انظر مثلاً شرح نهج البلاغة : ١٨٥/٢ و ١٧٤/١٠
- ٣٣ - المنطق : ٣٧٩
- ٣٤ - المرجع السابق والصفحة نفسها .
- ٣٥ - المرجع السابق : ٣٨٩
- ٣٦ - انظر مثلاً السيرة النبوية : ٩٥ وما يليها
- ٣٧ - انظر مثلاً وقعة صفين : ٢٢٢ ، ٢٢١/١٤
- ٣٨ - شرح نهج البلاغة : ٢٢٤/٤
- ٣٩ - انظر المصدر السابق : ٢٢٤/٦
- ٤٠ - انظر فتوح الشام : ٢
- ٤١ - انظر تاريخ الرسل والملوك : ١٢٣/٤
- ٤٢ - انظر وقعة صفين : ٩٢
- ٤٣ - انظر مثلاً تاريخ الرسل والملوك : ٢٦٣/٦
- ٤٤ - وقعة صفين : ٩٤
- ٤٥ - انظر المناظرات التي دارت في السقافة في تاريخ الرسل والملوك : ٢١٨/٣ ، ٢١٨ و ما يليها ، وعيون الاختبار :
- ٤٦ - الظاهرة الأدبية : ٢٣
- ٤٧ - انظر شرح نهج البلاغة : ٢٩٧/٧ و ١٠٣/٨
- ٤٨ - انظر بعض مناظراته لهم في تاريخ الرسل والملوك : ٦٥/٥
- ٤٩ - انظر الخطبة في شرح نهج البلاغة : ٢٢٢ ، ٢٢٢/١٤
- ٥٠ - تاريخ الرسل والملوك : ٥٢١/٣
- ٥١ - المصدر السابق : ٤٦٩/٣
- ٥٢ - فتوح الشام : ١٩٧
- ٥٣ - تاريخ الرسل والملوك : ٤٦٤/٦
- ٥٤ - انظر مثلاً خطبة السيدة عائشة (٤) في تاريخ الرسل والملوك : ٤٦٤/٤
- ٥٥ - شرح نهج البلاغة : ١٩٠/٥ ، ١٩١
- ٥٦ - تاريخ الرسل والملوك : ١٧/٥ ، ١٨
- ٥٧ - انظر مثلاً خطبة عمارة بن ياسر في المصدر السابق :
- ٥٨ - انظر مثلاً في شرح نهج البلاغة : ١٧٩/٧
- ٥٩ - وقعة صفين : ٢٤٢
- ٦٠ - انظر مثلاً خطبة الاشتراك التخفي في تاريخ الرسل والملوك : ٢٠/٥
- ٦١ - انظر مثلاً ملائقة عمرو بن كلثوم: الآيات ٨٣ الى ٨٨ حسب شرح التبريري .



- ٦٦- انظر المقدمة الفريد : ١٠٦/٢ وما يليها ، ١١٢-١١١ .
- ٦٧- انظر الوصية في البيان والتبيين : ٤٦/٢ وما يليها .
- ٦٨- تاريخ الرسل والملوك : ٥٠/٥ ، ١٠١ ، ٤٠٤/٢ .
- ٦٩- السيرة النبوية : ١٥٩/٤ .
- ٦٩- انظر خطبة زفر بن زيد في الإمامة والسياسة : ٥٨/١ .
- ٦٩- الكامل في التاريخ : ٤٠٤/٢ .



□ مصادر البحث ومراجعة :

- ١- اديان العرب قبل الاسلام ووجهها المضارى والاجتماعى، الاب جرجس داود داود - ط ١ ، بيروت ، ١٩٨١ .
- ٢- الإمامة والسياسة ، ابن تبية (عبد الله بن مسلم ، ٢٢٦) ، ط ٢ ، مصر ، ١٩٥٧ .
- ٣- بناء المجتمع ، د. غاتون هنا - مطبوعات جامعة دمشق ، ١٩٨٢ .
- ٤- البيان والتبيين ، الباجهظ (عمرو بن يعر ، ٧٥٥) ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٣ ، القاهرة ، ١٩٦٨ .
- ٥- تاريخ الرسل والملوك، الطبرى (محمد بن جرير، ٣١٠) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - مصر ، بلا تاريخ .
- ٦- الخطابة العربية في عصرها الذهبي ، د. احسان التنص - دار المعارف بمصر ، ١٩٦٣ .
- ٧- السيرة النبوية ، ابن هشام (أبو محمد عبد الله ، ٢١٨) ، تحقيق مصطفى السنقا ورفيقه - بيروت ، بلا تاريخ .
- ٨- شرح القصائد العشر ، الخطيب التبريزى (يعين بن علي) ، تحقيق د. فخر الدين قباوة ، ط ٤ ، بيروت ، ١٩٨٠ .
- ٩- شرح نهج البلقة ، ابن أبي العدين (عبدالحيد بن هبة الله ، ٩٥٥) ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٦٩ .
- ١٠- الظاهرة الأدبية في صدر الاسلام والدولة الاموية ، احسان سركيس ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٨١ .
- ١١- المقدمة الفريد ، ابن عبد ربہ (احمد بن محمد ، ٣٢٨) ، شرحه وضيطة احمد أمين ورفيقاه ، ط ٢ - القاهرة ، ١٩٥٦ .
- ١٢- عيون الاخبار ، ابن تبية (عبد الله بن مسلم) ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٦٣ .
- ١٣- الفتنة ووقعة الجمل ، رواية سيف بن عمر الضبي (٢٠٠) ، جمع احمد راتب عرموش ، ط ٦ ، بيروت ، ١٩٨٦ .
- ١٤- فتوح الشام ، محمد بن عبد الله الأزدي البصري ، صححة وليم ناسو ليس الإبرلندي - طبع في مدينة كلكتة ، ١٨٥٤ .
- ١٥- الكامل في التاريخ ، عزالدين أبو الحسن علي بن الأثير ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- ١٦- مروج الذهب ومعاذن الجوهر، المسعودي (علي بن الحسين، ٣٦٦) تحقيق محمد محب الدين عبدالحيد ، بيروت ، ١٩٤٨ .
- ١٧- المنطق ، محمد وضا المنظر ، ط ٣ ، بيروت ، ١٩٤٠ .
- ١٨- ولعة صفين ، نصر بن مزاحم المنقري (٢١٢) ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط ٣ ، مصر ، ١٩٨١ .



شَيْرٌ فِي الْرَّاثِ وَالتَّارِيخِ

د. هاشم صالح مناع*

لـ **شَيْرٌ**^(١) قلعة حمراء تتوسط بلاده تلا يخربة مبهرة في استثناءها ،
تعاقت عليها الأمم ، وأصبحت إمارة مستقلة لها كيانها وشخصيتها ،
تمكنت من جلب قرائح أصحاب القريض ، ينتمي إليها كثير من
العلماء والأدباء والشعراء .

موقعها :

بنيت قلعة « شيزر » على أكمة صخرية صلدة عالية ، صعبة التسلق ، تنتصب
على الضفة الغربية من نهر العاصي، الذي يحيط بها من جهاتها الثلاث ، فهي شبه
جزيرة ، إلا أن القائمين عليها في القديم قاموا بعفر الصخر الواسع بين شبه
الجزيرة والبر من جنوبها ، مما زاد في منعتها ، وصعوبة الوصول إليها^(٢) .

وقد حدد المؤرخون القدماء موقعها بقولهم : « قلعة قديمة بالشام تعدّ في
كوره « حمص » قرب « المرة » بينها وبين « حماة » يوم^(٣) ، وفي وسطها نهر
« الأُرْنَدْ »^(٤) عليه قنطرة في وسط المدينة ، أوله من جبل لبنان . »^(٥)

وتقسم « شيزر » إلى قسمين ، قسم يقع ضمن القلعة ، على الأكماء الرابية
وهو المصن^(٦) ، ولنننوه هذه الأكماء سماها مؤرخو العرب : « عرف الديك » .

(*) استاذ الاب و والنقد - بكلية الدراسات الاسلامية العربية - دبي .

وقد منخفض عنها للغرب بشكل شبه منحرف ، يمر من شماله نهر «العاصي» ،
وهو المدينة^(٧) .

ويقال : إن سورها كان يتخد شكلاً مستطيلاً ينحني من الشمال إلى الجنوب
بطول يبلغ (٤٢٥) متراً ، وعرض يقرب من (٥٠) متراً ، أما ارتفاعها فيصل إلى
(٢٨٠) متراً ، وأما مساحتها فتبلغ (١٢,٥) دونما^(٨) .

● تسميتها :

«شيزر» قلعة أثرية حصينة مهمة ضاربة في القديم يظهر ذكرها على
مسرح الأحداث التاريخية والسياسية قبل الميلاد ، وقد ورد ذكرها باسماء
كثيرة ، نذكر منها :

- (شيزر) الاسم السامي القديم .
- (سنزار) في العهد الفرعوني سنة ١٤٥٧ ق.م. في زمن منحوتب الثاني
من فراعنة السلالة الثانية عشرة .
- (سيزر) في العهد الفرعوني سنة ١٤٣٦ - ١٤١٣ ق.م. في زمن تحومس
من فراعنة السلالة الثامنة عشرة . وذكرها بهذا الاسم البيزنطيون .
- (شنزار) في العهد الفرعوني أيضاً .
- (زنزار) في العهد الفرعوني في زمن أختاتون .
- (سدزارا) اسم أطلقه اليونانيون القدامى .
- (لاريسا) اسم أطلقه اليونانيون في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، في
زمن سلوقيس نيكاتور ، بدلًا من (شيزر) نسبة إلى إحدى المدن في مقاطعة
(تساليا) في اليونان^(٩) .
- (سيزارا) اسم أطلقه اليونانيون^(١٠) .
- (توسيزير) اسم أطلقه اليونانيون أيضًا^(١١) .

- (شيزر) الاسم السامي الذي عرفه العرب الجاهليون ، ولا يزال إلى يومنا هذا ، وفي ذلك يقول امرؤ القيس : (من الطويل)
قطّعَ أَسْبَابَ الْلَّبَانِيَّةِ وَالْهُوَى عَشَيْتَ جَاوِزْنَا « حَمَةً » وَ « شِيزْرَا »^(١٦)
ويذكرها عبيد الله بن قيس الرقيات (ت ٧٥ هـ) بشعره ، وكان يصحب أولاد الزبير حين قتلهم عبد الملك بن مروان : (من الطويل)

فَسَوْا بِي أَنْظَرْ نَعْوَ قَوْمِي نَظَرَةً فَلَمْ يَقْفِي الْحَادِي بِهَا وَتَفَشَّمَ رَا
فَوَاحِذْنَا أَذْ فَارَقْنَا وَجَاوِزْنَا سَوْيَ قَوْمِهِمْ أَعْلَى « حَمَةً » وَ « شِيزْرَا »
بِلَادًا تَغُولُ النَّاسُ لَمْ يَوْلِدُوا بِهَا وَقَدْ غَنَّيْتَ مِنْهُمْ مَعْنَانًا وَمَخْضَرًا^(١٧)

ولم أوفق في الوقوف على معاني هذه الأسماء ، ويبدو من خلال تعدداتها اختلافها أنها كانت تطلق عليها تخليداً لأماكن معروفة ، أو شخصيات أثيرة أو هامة^(١٨) ، وخاصة حين نرى أن اسمها قد تغير في العهد الفرعوني ثلاث مرات ، وعلى الرغم من شهرتها واهتمام القدماء بها وإطلاقهم الأسماء الكثيرة عليها ، إلا أنها لم تكن ذات إدارة مستقلة ، أو إماراة ، أو مملكة عبر المصور التاريخية إلا في عصر الحروب الصليبية ، إذ تظهر على مسرح الأحداث إمارة مستقلة بأمرائها وسكانها ، وستقف على هذا الأمر بالتفصيل .

● وصفها :

« شيزر » من أجمل بلدان الشام وقلاعها ، فهي عروس نهر « العاصي » ، الذي يحيط بها من جهاتها الثلاث ، وهي تقع فوق رعن (نهد) جبلي وعر يتجه من الشمال إلى الجنوب يقال له : « عُرْفَ الدِّيكَ » ، يظهر أن هذا الاسم أطلق عليها لبروزها ، وظهورها ، وتميزها من غيرها بجمالها ، وروعتها ، وعلوها ، وشموخها .

وكان نهر العاصي كفيلاً بأن يحوّل المدينة وما يحيط بها من الأراضي إلى جنة خضراء ، ومروج يانعة تسر الناظر إليها ، فهي ذات أشجار وبساتين وفواكه كثيرة وأكثرها الرمان^(١٩) .



وتميز المدينة بهدوئها ، وصفاء جوها ، ونقاء هواها ، ونظافة مياها ،
وجمال بنائها ، وروعة تخطيطها ، وكثرة نواعيرها^(١٦) ، واستقلال إمارتها
التي اعتمدت على مواردها الذاتية ، وخاصة المعاصيل الزراعية .

ويبدو أن الصليبيين حرصوا كل الحرص على اقتحام هذه البلدة وتدمير
قلعتها الصامدة ، ولما لم يوفقا في مأربهم شيئاً قبالتها على الضفة الأخرى
من النهر حصنَ سمي حصن « تل ابن معشر » مما أدى إلى إفساد روعتها
وجمالها الذي عهدها فيها ، فهذا أسماء بن منقد يصف « شيزر » بالوخامة قائلاً :
(من الكامل)

وختمت وجاورها العدو فأهلها شهداء بين الطعن والطاعون^(١٧)

والجدير بالذكر أن نور الدين زنكي قام ببناء ما أفسده الفزارة ، وإعمار
ما خربه الزلزال من أسوار ودور ، وبعث فيها الحياة من جديد^(١٨) . ويصفها
الأستاذ المرحوم طاهر النعسانى بقوله : وهي اليوم لا يكاد يوجد فيها خمسون
مزارعاً ، موبوءة مستوبلة ، أمراضها فاتحة ، يضر بها المثل بهوائها الفاسد ،
فيقال : « أوخ من شيزر » ... فسبحان عوّل الأحوال ومقلب الليل والنهر^(١٩) .

وتعمي قلعة « شيزر » تاريخ أمة مجيدة ساد ، فهي رمز من رموز ذلك
التاريخ الذي كان يشمخ بباء ورفة ، فالمدران والأعمدة ما تزال مائلة تدل
على عظمتنا الخالدة في البناء ، وبراعتها في التشييد ، وجمال ذوقها في الفن
المعماري ، إلا أن كثيراً منها خربته يد الإنسان ، ولعبت فيه صروف الزمان .

● تاریخها :

قلنا : إن « شيزر » بلدة وقلعة ضاربة في التاريخ ، بدأ ذكرها في الزمن
الفرعونى ، ثم اليوناني ، واذدهرت في العهدين الرومانى والبيزنطى ، إذ
توسعت البلدة وجُلب إليها الماء بقناتين كبارتين للري والارواء . ولما جاء الإسلام ،
وامتدت الفتوحات ، قام أهلها – الذين كانوا يتحدثون الرومية – بتسليم شيزر
إلى أبي عبيدة عامر بن المبراج سنة ١٧ هـ / ٦٣٨ م . ورُجفَ إلى هذه
المدينة جماعة من الموارنة في أواخر القرن السابع الميلادي^(٢٠) .

ويشير اليعقوبي إلى أن أهل بلدة «شيزر» كانوا قوماً من كندة ، وذلك في القرن الثالث الهجري^(٢١) . وفي القرن الرابع غزاها الامبراطور (نيقفور فوكاس) واستولى عليها ، وظلت العرب سجالاً بينه وبين الأمراء العرب وتبادلتها الأيدي مراراً في هذه المقدمة^(٢٢) .

ويقال : إن سيف الدولة اعتمد «شيزر» لصانتها ، ومات فيها ، ولم ينقل جثمانه إلى «حلب» إلا بعد ستة ، وذلك في سنة ٣٥٦ هـ^(٢٣) . ويبدو أنه كان يسيطر عليها ، إلا أن «نيقفور»^(٢٤) تمكن من احتلالها ، في زمن سعد الدولة ابن سيف الدولة ، وقام بحرق جامها ، وأقام فيها حامية رومية ، لأن سعد الدولة لم يعترف له بها ، ولكن هذا الاحتلال لم يدم طويلاً ، فقد سقطت أمام جيش ابن المصمامة الفاطمي الذي كسر الجيش الرومي بمعركة «أقامية» عام ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م ، إلا أن القيسير (باسيليوس) حاصرها بنفسه ، وتغلب عليها سنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م بعد أن خرب قنطر الماء الآتية إليها ، الأمر الذي كان سبباً في استسلام أملاها ، وقد ترتب على ذلك نزوح سكانها المسلمين عنها ، وإحضار جالية أرمنية بدلاً من المسلمين^(٢٥) .

وبقيت «شيزر» في أيدي الروم البيزنطيين نحو ثنتين وثلاثين سنة تقريباً ، حتى تمكن سعيد الملك أبوالحسن علي بن منقذ سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م من محاصرتها والاستيلاء عليها ، وبتلمسه لهذا الحصن أعلنه إماراة مستقلة ، تعاقب عليه من بعده أولاده وأحفاده^(٢٦) . وسنفعت عند هذه الأسرة التي حكمت «شيزر» بشيء من التفصيل تحت عنوان مستقل .

وتصاب «شيزر» بكارثة عظيمة سنة ٥٥٢ هـ / ١١٥٧ م فقد دمرت الزلازل القلعة والبلدة مما ، ولم ينجي أحد من الدين كانوا بهما ، فلم تبق ولم تذر ، وكانت نهاية المنقذين مع هذه الزلازل ، التي جعلت الطامعين يتوجهون بانظارهم إلى «شيزر» منهم : الاسماعيليون^(٢٧) والفرنجة ، إلا أن نور الدين زنكي كان أسبق إليها ، فسلمها ، وقام باعمارها^(٢٨) .

وبقيت «شيزر» بأيدي الأمراء العرب إلى أن قام التتار بتدميرها سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م ، ولكنها رمت فور هزيمتهم على يد السلطان الملك الظاهر بيبرس في السنة نفسها^(٢٩) .

وحاول الصليبيون الاستيلاء عليها في زمن الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م ، ولكنهم باؤوا بالفشل ، وهناك نصوص محفورة عليها تدل على أن بناء البوابة الكبرى تم على يد السلطان المنصور قلاوون . والجدير بالذكر أنها تتعرض إلى الهجمات من قبل أمراء الbadia ، وثور الصراعات والفتنة فيها بين العرب والأكراد ، مما زاد في خرابها وتدميرها ، وظلت « شيزر » على هذه الحال إلى أن جاء العثمانيون الأتراك ، واتخذوا منها قلعة حصينة ، قاموا بترميمها ، وهناك نصوص كثيرة تشير إلى القائمين عليها ، إلا أنها تداعت في العهد العثماني^(٢٠) ، حتى استحالت إلى أطلال يصعب إعادتها إلى مجدها وزعها ، ومن يقوم بزيارتها اليوم لا يرى إلا خراباً وأثاراً تبكي على زمن ساد مجده . وعلى آية حال لم تكن « شيزر » إمارة مستقلة إلا في عهد المنقذين .

● أمراء آل منقد :

بني منقد الكنانيون بطن من عدرة بن زيد اللات من كلب من القحطانية ، كانوا ملوكاً « بشيزر »^(٢١) وأول من ملك منهم سعيد الملك أبو الحسن علي ابن مقلد بن نصر بن منقد الكناني ، لأنه كان نازلاً مجاوراً لقلعة بقرب الجسر المعروف اليوم بجسربني منقد ، وكانت القلعة بيد الروم فعدّته نفسه بأخذها فنازلها وتسليمها بالأمان في رجب سنة أربع وسبعين وأربعين ، ويروي أسامي ابن منقد قصة استيلاء جده على « شيزر » بقوله : كان في شيزر والى للروم اسمه (دمتري) ، فلما طالت المضايقة له « دمتري » راسل جدي هو ومن عنده من الروم في تسليم حصن « شيزر » إليه باقتراحات اقترحوها عليه ، منها : ما ليدفعه إلى (دمتري) ، ومنها إبقاء أملاك الأسقف الذي بها عليه ، فإنه استمر مقيناً تحت يد جدي حتى مات « بشيزر »، ومنها أن القنطرية وهو رجاله الروم يسلفهم ديوانهم لثلاث سنين ، فسلم إليهم جدي ما التمسوه وسلم حصن « شيزر » يوم الأحد في رجب سنة أربع وسبعين وأربعين ، واستمر سعيد الملك علي بن منقد مالكاً إلى أن توفي فيها سنة ٤٧٩ هـ^(٢٢) .

وتولى الإمارة من بعد سعيد الملك ابنه الأمير أبو المرهف نصر بن علي ، ولما حضره الموت سنة (٤٩١ هـ) استخلف أخاه الأمير أبا سلامه مرشد بن علي -

والد أسماء بن منقذ ولكن أبو سلامة أبي وقال : واه لا وليتها ، ولآخرجن من الدنيا كما دخلتها ، وتنازل عن الامارة لأخيه أبي العساكر سلطان بن علي وكان أصغر منه سنا ، فولد أبو سلامة مرشد عدة أولاد ذكور فكبروا وسادوا ، منهم : عز الدولة أبو الحسن علي ، ومؤيد الدولة أسماء وغيرها ، ولم يولد أخيه سلطان ولد ذكر ، إلى أن كبر فجاءه أولاد فحسد أخاه على ذلك ، فكان كلما رأى صغر أولاده وكبار أولاد أخيه وسيادتهم ساعده ذلك وخافهم على أولاده . وسعى المفسدون بينهما فنيريوا كلاً متهماً على أخيه ، فكتب الأمير سلطان إلى أخيه شمراً يعاتبه على أشياء بلنته عنه ، فاجابه بآيات حسنة في معناها ، وكان كل منها أدبياً شاعراً ، وما جاء فيها : (من الطويل)

ويحفظ عهلي فيهم وذماميا
لنفسه فقد أعددته من ترائيا
وعلم مني صارما كان ماضيا
وقربك مني جفوة وتنائيا
كذا الياس قد عفت « بيل رجانيا
ولا غيرت هني السنون وداديا)
ولقت أخي يرعىبني وأسرتي
ويجزيهم ما لم أكلفه فعله
فالملك لما أن حنى الهر صعدتني
تنكرت حتى صار برك قسوة
فاصبعت صفر الكف مما رجوت
على أنتي ما حلت عما عهده

ولما مات أبو سلامة سنة (٥٢١ هـ) قلب أخيه سلطان لأولاد أخيه ظهر المجن وباداهم بما يسوفهم ، وتزداد الأيام بينهم إلى أن قوي عليهم فأخرجهم من « شيزر » ، وتفرقوا في البلاد ، وقصدوا الملك العادل نور الدين زنكي . وتوفي الأمير سلطان ، وولي بعده أولاده فبلغ نور الدين عنهم مراسلة الفرنج فاشتد مافي نفسه ، وهو ينتظر الفرصة ، فلما خربت القلعة بالزلزلة ولم يسلم منها أحد كان بالمحصن فبادر إليها وملكتها وأضافها إلى بلاده وعمّرها وأسوارها وأعادها كان لم تغرب (٣٤) . وقد أجمع المؤرخون على أن كل أفراد هذه الأسرة كانوا أدباء شعراء شهد لهم بالفضل والكرم والعلم (٣٥) .

● الزلزال الذي ضرب « شيزر » :

أصيّبت « شيزر » بزلزال كثيرة ، لم تكن مؤثرة لدرجة التدمير والخراب ، ولكنها أصيّبت مرتين بزلزالين خطيرين ، وكانت الاصابة عظيمة وكبيرة . يقول

صاحب الروضتين: في سنة اثنين وخمسين وخمسة كان بالشام زلزلة شديدة ذات رجفات عظيمة ، أخربت البلد ، وأهلكت العباد ، وكان أشدتها بمدينة « حماة » وحسن « شيزر » فانهما خربا بالمرة ، فقد هلك تحت الهدم من الخلق ما لا يحصى ، وتهدمت الأسوار والدور والقلاع^(٢٦) .

ويقال : إن صاحب « شيزر » كان قد ختن ولده وعمل دعوة للناس ، وأحضر جميعبني منقد في داره فجاءت الزلزلة فسقطت الدار والقلعة عليهم فهلكوا عن آخرهم . وكان لصاحب « شيزر » ابن منقد حسان لا يزال على باب داره ، فلما جاءت الزلزلة وهلك بنو منقد تحت الهدم سلم منهم واحد وهرب يطلب باب الدار ، فلما خرج من الباب رفسه الحسان فقتله^(٢٧) . ويقال لم يسلم من « شيزر » إلا امرأة هي زوجة أبي الفضل اسماعيل بن أبي العساكر تدعى الماتون ، وخادم لها ، وهلك الباقيون ، إلا أن نور الدين زنكي عاد فعم « شيزر »^(٢٨) .

ويصف أحد الشعراء هذا الزلزال بقوله : (من الحفيظ)

روَعْتَنَا زَلَازِلُ حَادِثَاتٍ
هَدَمَّتْ حَسَنَ « شِيزَرَ » وَ « حَمَةَ »
وَبِلَادًا كَثِيرًا وَحَصَوْنَا
وَإِذَا مَا رَنَتْ عَيْنُونَ إِلَيْهَا

بِقْضَاءِ قَضَاهُ رَبِّ السَّمَاءِ
أَهْلَكَتْ أَهْلَهُ بِسَوْءِ الْقَضَاءِ
وَثَفُورًا مَوْتَقَاتِ الْبَنَاءِ
أَجْرَتْ الدَّمْعَ عَنْهَا بِاللَّدَمَاءِ^(٢٩)

وهذا ابن الوردي يذكر هذا الزلزال في تاريخه : (من المتقارب)
 اذا ما قضى الله امراً فمن يرده القضاء الذي ينفذ
 عجبت « لشيزر » اذ زلزلت فما لبني منقد منقد^(٣٠)

كان ذلك وصفاً للزلزال الأول الكبير الذي أصاب شيزر وغيرها ، أما الزلزال الآخر العظيم الذي ضرب الشام كلها ، ومنها « شيزر » فكان في سنة خمس وستين وخمسة في الثاني عشر من شوال ، يقال : إن الناس لم يروا مثله لأنه شمل مناطق كثيرة في : آسيا وإفريقيا ، إلا أن أشدتها تأثيراً ، وأعظمها خطراً كانت بلاد الشام ، فقد خربت « حماة » و « شيزر » وغيرها ، وتهدمت أسوارها وقلاعها ، وسقطت الدور على أهلها ، وهلك من الناس ما يخرج عن العدد والاحصاء ، ويصف العماد الأصفهاني هذا الزلزال بقوله : (من الحفيظ)



سطوة زلت بسكنها الار
اخدتهم بالحق رجفة باس
حفظت في قلاعها كل عال
انفذ الله حكمه فهو باسر (١)

ولم نظر على أشعار تصور الخراب والدمار الذي لحق بشيزر في هذا العام، وإنما كان هناك مجموعة منها تصف أثر الزلزال في بلاد الشام كلها، ولعل السبب يعود إلى انقراض شراء آل منقد، أو بسبب سيطرة نور الدين زنكي على هذه الامارة ، الأمر الذي حال دون وجود شيزر « كamarat مستقلة فيها أمراؤها وأهلها ». وقد يكون بسبب ضياع تلك الأشعار ، شأنها في ذلك شأن كثير من الشعر في مرحلة المروء الصليبية ، الذي اختفى وضعاه بسبب عوامل كثيرة منها : سياسية واجتماعية ودينية .

☆ ☆ ☆

□ المواشي :

- ١ - شيزر : يفتح الشين ، وسكون الياء ، وفتح الزاي . انتظر : معجم ما استعمل ٨٨/٣ ، ومعجم البلدان ٣/٢٨٣ .
وصبح الاشتى ٤/١٢٣ ، وتقديم البلدان ، ص ٦٦٢ .
- ٢ - اللغة شيزر ، كامل شعادة ، ص ٥ .
- ٣ - تقع الى الشمال الغربي من حماة ، على مسافة ٤٥ كم .
- ٤ - مراصد الاطلاع ٨٢٩/٢ ، وقد ورد في هذا المصدر ان نهر « الارزد » هو الاسم القديم لنهر العاصي ، وفي نزهة المشتاق في اختراق الالاق ٦٤٥/٢ ، وصبح الاشتى ٤/٨٠ ، ونسبة النهر في عجائب البر والبحر ، ص ١٠٧ : « نهر الارزد » ، وفي معجم البلدان ٣/٢٨٣ : « نهر الاردن » وهذا خطأ وتصحيف .
- ٥ - انتظر مزيداً من التفصيل : صبح الاشتى ٤/٨٠ ، ونزهة المشتاق ٦٤٥/٢ ، وكتاب الروض المطار ، ص ٢٥٢ ، والمسالك والممالك ، ص ٧٣ ، وحسن التقاسيم ، ص ١٣٦ ، ومعجم ما استعمل ٨١٨/٣ ، ومعجم البلدان ٣/٢٨٣ ، وكتاب البلدان ، ص ٨٦ .
- ٦ - تنسب الكلمة مجازياً لنهر فوق جرف صخري متراوحاً وضيق ، يفصله عن السفح الصخري المتصل به في الجنوب قنطرة عتيقة . ويرتفع الجدار الامامي للجرف المصطن فوق هذه القنطرة مباشرة ، وهو صرح شرم يتألف من طابقين داخليين وشرفة سطحية واسعة . انهارت الجدران التي كانت تكسو حالة العبر على كلا ضلعين الكلمة الطويلتين في مقتضها ، ولم يبق سوى الركن الشمالي الأقصى من القنطرة ، والتي هي هبة عن سواتر تربوية شديدة الانحدار ، والبواحة متينة البناء . (القلاع أيام المروء الصليبية ، ص ١٩) .
- ٧ - نسبة النهر في عجائب البر والبحر ، ص ٢٠٥ .
- ٨ - تاريخ شيزر ، ص ٢٢ ، وقلعة شيزر ، ص ٥ ، والدون مقاييس مساحة معروف في بلاد الشام يعادل ألف متراً مربع .

- ٩ - درس في حياة اسامة بن منقذ ، فيليب حتى ، ص ٥١٥، (مجلة المجتمع العلمي العربي بدمشق : الجزء التاسع ، المجلد العاشر ١٩٣٠) .
- ١٠ - القلاع أيام العرب الصليبية ، ص ٦٩ .
- ١١ - المصدر السابق نفسه .
- ١٢ - الديوان ، ص ٦٢ ، ومعجم البلدان ٢٨٣/٣ ، وكتاب الروض المطار ، ص ٣٥٢ ، والمسالك والممالك ، ص ٧٣ يقول: لما جاوزت حماة وشير تقطعت أسباب الحاجة الى من احبيت ياما من اللقاء ، وشغلاً بما نحن فيه من العناه ، والجدير بالذكر ان الشاعر ذكرها حين مر بها في طريقه الى ملك القسطنطينية يتولسه لتجده من اجل النار لم اييء .
- ١٣ - الديوان ، ص ١٤٠ ، ومعجم البلدان ٣٨٣/٣ ، وهذا معان من لفان ، اي : ينزله .
- ١٤ - يقول فيليب حتى ان مؤرخي الارمن الصليبيين اطلقوا على شيرز اسم (الصريدة) او (الصريرة العاصي) للتشيز . (مجلة المجتمع العلمي العربي بدمشق ، الجزء التاسع ، المجلد العاشر ، ايلول ١٩٣٠ ، ص ٥١٦) .
- ١٥ - صبح الاعشى ٤/١٢٤ ، وبيفية الطلب ١٤٧/١ .
- ١٦ - تقوم البلدان ، ص ٣٦٣ ، وفيه : « كانت شيرز وحمة مخصوصتين بكثرة النواصير دون غيرهما من بلاد الشام » .
- ١٧ - بيفية الطلب في تاريخ حلب ١٤٦/١ ، تقول : يلد او بيت وخم : غير موافق في السكن ، او مصر رديه ، ووخفم : وبيه . ولعل الفترة التي يتحدث عنها اسامة هي تلك الفترة التي كان فيها اولاد عمته سلطان في الامارة ، اي : يهد عام (٥٣١ هـ) ذلك انهزم داسلو الصليبيين واتصلوا بهم ، تکایة بنور الدين زنکی . (التكامل في التاريخ ٢٢١/١١) . وانظر بشان الحصن الذي اقامه الصليبيون: تاريخ دمشق لابن القلانيسي ، ص ٢٨٣ .
- ١٨ - التكامل في التاريخ ٢٢١/١١ .
- ١٩ - اسامة بن منقذ (مجلة المجتمع العلمي العربي بدمشق ، المجلد العاشر ، الجزء الرابع ١٩٣٠) ، ص ٢٢١ .
- ٢٠ - معجم البلدان ٣٨٣/٣ ، وقلعة شيرز ، ص ١١ ، وتاريخ شيرز ، ص ١١ ، وتاريخ شيرز ، ص ٦٩ .
- ٢١ - كتاب البلدان ، ص ٨٦ .
- ٢٢ - القلاع أيام العرب الصليبية ، ص ٦٩ .
- ٢٣ - قلعة شيرز ، ص ١٢ ، يقول ابن خلkan : توقي سيف الدولة في سنة ٣٥٦ هـ بحلب ، ونقل الى ميتسا طارقين ، وذهب في تربة امته ، وهي داخل البلد . (وفيات الاهيان ٣/٤٠٥) . وليس هناك اشارة الى انه توقي بشيرز .
- ٢٤ - نيقفور المنسق ملك على الروم سنة ٣٥١ هـ ، وهو غير نيقفور ملك الروم الذي عاصر هارون الرشيد ، انظر : تاريخ مختصر الدول ، لابن العبري ، ص ٢٢٣ و ٢٩٣ .
- ٢٥ - قلعة شيرز ، ص ١٢ .
- ٢٦ - وفيات الاهيان ٣/٤٠٩ .
- ٢٧ - يبدو ان الاسماعيلية كانت تغير على « شيرز » بين الفينة والفينة ، من ذلك انها احتلتها يوم وليلة ثم استردت القلعة اهلها ، وكان ذلك في عيد الفصح سنة ٥٠٧ هـ، (انظر : تاريخ دمشق لابن القلانيسي ، ص ٣٠٣-٣٠٤) .
- ٢٨ - صبح الاعشى ٤٥٧/١ و ٤٦٥/٤ ، والروضتين ١/١١١، والاعتبار ، ص ١٧ وما يليها ، ولباب ادب ، ص ١٩٠ .
- ٢٩ - القلاع أيام العرب الصليبية ، ص ٧٠ .
- ٣٠ - قلعة شيرز ، ص ١٧ ، والقلاع أيام العرب الصليبية ، ص ٧٠ .
- ٣١ - الروضتين ١١١/١ ، ونهاية الارب في معرفة انساب العرب ، ص ٣٨٠ . وصبح الاعشى ١/٣١٦ .
- ٣٢ - الاعتبار ، ص ١٥ وما يليها ، والروضتين ١١١/١ ، واعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٣٠/٢ ، وبيفية الطلب في تاريخ حلب ١٤٥/١ ، ومعجم الادباء ٢٢١/٥ .



- ٣٣- الروضتين/١١٢ ، وأعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء/٢١٢-٢١٣ ، والكامل في التاريخ ٢١٩/١١ .
- ٣٤- أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء/٢ ٢٢-٢٣ ، والروضتين/١١٢/١ ، والكامل في التاريخ ٢٢١/١١ .
- ٣٥- الروضتين/١١٢/١ ١١٢ ، ومعجم الأدباء ٢٢٦-٢٢٧/٥ و ٢٢٠ .
- ٣٦- الروضتين/١١٢/١ ، والبداية والنهاية/١٢ ٢٣٦ ، والنجوم الظاهرة/٢٢٥/٥ ، وشذرات الذهب/٤ ١٦٠ ، وعيون الروضتين/١٢٦١/١ ، وتاريخ دمشق لابن القلانيسي ، ص ٥١٤-٥١٥ ، في حوادث سنة ٥٥١ هـ ٥٥٢ مـ .
- ٣٧- أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء/٢ ٢٦/٢ ، والكامل في التاريخ ٢٢١/١١ .
- ٣٨- البداية والنهاية/١٢ ٢٣٦/٤ ، وبقية الطلب ١٦٤١/٤ ، يقول ابن العديم في بقية الطلب ١٤٦/١ : سلمت الخاتون - بنت يوري ابن طفتكين شمس الملوك - وحدها ، ونشبت من الردم وخصتها ، وجاء نور الدين محمود إلى شيرز وطلب منها أن تعلمه يمالل وهندها ، فذكرت له أن الردم سقط عليها وعليم ، ونشبت هي دونهم ولا تعلم بشيء ، وإن كان لهم شيء فهو تحت الردم ، وكان شرف الدولة خاتماً لعصر بعد الزلازل ، وعاين ما فعلت بشير وأخيه ، وشاهد امرأة أخيه بعد العزّ في ذلك الدلّ ، فقال : (من الكامل)
- فتبدللت من كبرها بتواضعه . وتموّضت من عزّها بتدللها .
- ٣٩- الروضتين ١٤٦/١ .
- ٤٠- أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٣٠/٢ .
- ٤١- ديوان عماد الدين الأصفهاني ، ص ١٢٦ ، والروضتين/١١٨٦/١ ، وعيون الروضتين/١٢٩٦ .

☆ ☆ ☆

□ المصادر والمراجع :

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، المقدسى ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ١٤٠٨/١٩٨٧ .
- أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، محمد راغب الطباطبائى ، تحقيق محمد كمال ، دار القلم العربي ، ط ٢ ، حلب ١٤٨٨/١٤٠٨ .
- البداية والنهاية ، ابن كثير ، مكتبة المعارف ، ط ٦ ، بيروت ١٤٠٥/١٩٨٥ .
- بقية الطلب في تاريخ حلب ، ابن العديم ، تحقيق د. سهيل زكاري ، دمشق ١٤٠٨/١٩٨٨ .
- تاريخ شيرز ، د. معروف عزيز نايف ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق ١٩٨٢ .
- تقويم البلدان ، عماد الدين محمود ، تحقيق دينور وبارون ماك كوكين ديسلان ، دار الطباعة السلطانية ، باريس ١٤٤٠ .
- ديوان أمرى القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعرف ، ط ٤ ، القاهرة ١٩٨٤ .
- ديوان عبد الله بن قيس الريان ، تحقيق د. محمد يوسف نجم ، دار صادر ، بيروت (د.ت.) .
- الروضتين في أخبار النولتين ، أبو شامة ، دار العجيل ، ط ٢ ، بيروت ١٩٧٤ .

- الروض المطرار في خي الأقطار ، محمد بن عبدالمعلم العمري ، تحقيق د. احسان عباس ، مؤسسة ناصر للثقافة ، ط ٢ ، بيروت ١٩٨٠ .
- شدرات الذهب ، ابن العماد العنبلبي ، دار احياء التراث العربي ، بيروت (د.ت) .
- صبح الاعظم ، القلقشندی (صورة عن الطبعة الاميرية — وزارة الثقافة والارشاد القاهرة (د.ت) .
- عيون الروضتين في اخبار الدولتين ، ابو شامة ، تحقيق احمد البيسومي ، وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٩١ .
- القلاع ايام الحروب الصليبية ، فولفغانغ مولر — فينر — ترجمة محمد وليد الجلاه ، دار الفكر ، ط ٢ ، دمشق ١٩٨٢ .
- لفحة شيزر ، كامل شحادة ، المديرية العامة للآثار والمتاحف ، دمشق ١٩٨٥ .
- الكامل في التاريخ ، ابن الائبر ، دار صادر ، بيروت ١٤٠٢/١٩٨٢ .
- كتاب البلدان ، اليعقوبي ، دار احياء التراث العربي ، ط ١ ، بيروت ١٤٠٨/١٩٨٨ .
- لباب الاداب ، اسامه بن منقذ ، تحقيق احمد محمد شاكر ، المطبعة الرحمنية ، القاهرة ١٣٥٤/١٩٣٥ .
- مراسد الاطلاع ، صفي الدين البقدانی ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار احياء الكتب العربية ، ط ١ ، القاهرة ١٣٧٣/١٩٥٤ .
- المسالك والممالك ، ابن خزداداية ، تحقيق د. محمد مغزوم ، دار احياء التراث العربي ، ط ١ ، بيروت ١٤٠٨/١٩٨٨ .
- معجم الادباء ، ياقوت العموي ، دار احياء التراث العربي ، بيروت (د.ت) .
- معجم البلدان ، ياقوت العموي ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ١٣٩٩/١٩٧٩ .
- معجم ما استجم ، البكري ، تحقيق مصطفى السقا ، عالم الكتب ، ط ٣ ، بيروت ١٤٠٣/١٩٨٣ .
- النجوم الزاهرة ، ابن تفري يربى ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، القاهرة (د.ت) .
- نخبة النهر في عجائب البر والبحر ، شمس الدين محمد الانصارى ، لزيج ١٩٢٣ .
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، الشريف الادريسي ، عالم الكتب ، ط ١ ، بيروت ١٤٠٩/١٩٨٩ .
- وفيات الاicia ، ابن خلكان ، تحقيق د. احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٨ .



□ الستوريات :

- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (المجلد العاشر) ، الجزء الرابع (١٩٣٠) اسامه بن منقذ، الاستاذ طاهر النعسانى .
- مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (المجلد العاشر) ، الجزء التاسع (١٩٣٠) درس في حياة اسامه بن منقذ ، فيليب حتى .



مَصَادِرُ شِعْرِ عَوْفِ بْنِ عَطِيَّةِ بْنِ الْخَرْعَ

د. إِسْلَامُ بْنُ السَّبِيْ

يزال الشاعر عوف بن عطية^(١) يسكنني ويشدني اليه كلما حاولت الانفكاك
من أسره فهو كل يوم يمدني بمعادة جديدة أعود اليها بعدها ظننت اني اوفيته
حقه من الدراسة والبحث .

واراني في هذا البحث أقبل على مصادر شعره التي رافقها مزانا طويلا حتى اتعقبني
بما جمعته من شعره^(٢) وكومن مادة وافية لتقديم دراسة علمية عن حياته واساليبه
الفنية وسائلنا هذا البحث من خلال النقاط التالية :

- ٣ - شعره في القرنين الثاني والثالث .
- ٤ - شعره في مصادر ما بعد القرن الثالث .
- ١ - ديوانه .
- ٢ - رواية شعره .

١ - ديوانه :

ان العناية بدراسة أي شاعر من الشعراء لا بد أن تنطلق من النظر في ديوانه أولاً وقبل كل شيء ثم بعد ذلك يتم النظر في المصادر التي تعنى بهقصد تكوين صورة واضحة عن حياته . وإذا لم يتوافر ديوان الشاعر فأن جمع شعره يقوم مقام ديوانه وهكذا فانتي منذ عزمت على دراسة شعر عوف بن عطية كثفت جهودي في البحث عن ديوانه ، فعرفت فهارس مكتبات العالم العربي والاسلامي ، واطلعت على ما وصلت اليه يداوي من فهارس المكتبات الأوروبية ، فلم أثر له على غيره . وقد عزمت على جمع الشعر وشرحه الى ان يقيض اسهله لهذا الديوان أن يظهر في احدى خزائن العالم خاصة أن هذا الديوان قرأه ياقوت الحموي وأخذ بعضا من شعره^(٣) بخلافه كان عند البغدادي في القرن الحادى عشر^(٤) .

ونحن هنا سنحاول جمع بعض الاشارات التي وجدناها في المصادر عن ديوان عوف وعن اشعاره ثم نردد ذلك بدراسة شعره من مصادر القرنين الثاني والثالث وما بعدهما . ان ما وصلت اليه يداي من المصادر لا يكاد يفيضنا في حل كثير من الأسئلة التي تطرحها حول ديوان عوف ، فمثلاً هل وصلت نسخة من هذا الديوان الى عصر التدوين حتى يأخذ سيبويه بعضاً من أبياتها للاستشهاد بها في الكتاب^(٥) ويختار المفضل بن محمد بن يعلي الصببي بعضاً من قصائده في مختاراته الموسومة بالفضليات^(٦) ؟ أم انه كان قطعة من اشعار الرباب التي صنعتها المفضل وححاد^(٧) ؟ وهل كان الديوان كبيراً وضاع منه الكثير حتى وصل الى عصر البندادي ، فوصفه بأنه كان ديواناً صغيراً يمتلكه شخصياً^(٨) ؟ كل هذه التساؤلات وغيرها لا نجد لها جواباً .

غير أنها يمكن أن نقول بأن شعر عوف بن عطية قراء السهيلي وهو من علماء القرن السادس الهجري قراءة دقيقة ومتخصصة مما دعا به أن يجعله دليلاً على حكم أصدره في شأن القتف بالنجوم . قال السهيلي : معلقاً على ابن مشام على أن القتف بالنجوم معروف قديماً ، وهو موجود في أشعار القدماء من الماهلين ، منهم « عوف بن عطية ، وألوس ابن حجر ، وبشر بن أبي خازم ، وكلهم جاهلي . وقد وصفوا الرمي بالنجوم وأبياته مذكورة في مشكل ابن قتيبة في تفسير سورة الجن »^(٩) .

وبالاضافة الى السهيلي نجد ياقوت الحموي ، وهو من علماء القرن السابع الهجري يقرأ شعر عوف بن عطية ليستقي منه مادة معجمه . يقول في معرض حديثه عن الرشاد : « والرشاد مددود ، اسم موضع وهو حرف غريب نادر ما قرأته الا في شعر عوف بن عطية » .

نقود البياد بارسانها يضعن ببطن الرشاد المها^(١٠)

فياقوت الحموي هنا يقرأ شعر عوف بن عطية ، ويلاحظ غرابة هذا الحرف وندرته ، فلم يقرأ الا في شعر عوف على الرغم من قراءاته الواسعة لأشعار العرب قديمها وحديثها . والحاصل أن شعر عوف يقرأ في قرنين متتاليين عن عالئين جليلين ، وهذا مما يطمئننا على أن شعر عوف كان يقرأ في تلك القرون ، ويحظى باهتمام علمائها .

وتمر الأيام والليالي ولا نجد من يتحدث عن شعر عوف او عن ديوانه حتى نصل الى القرن الحادي عشر، حيث البقدادي وخزانته . فنجد أنه اعتمد ديوان عوف مصدرأ من مصادر تاليف خزانته ويعدده ضمن عشرات الدواوين وكتب الاختيار والنقد والبلاغة وال نحو وغيرها^(١١) . ويعتبر البندادي المؤلف الوحيد الذي أشار الى ديوان عوف في أماكن عدة .

فمن ذلك مثلاً تعليقه على بيت ينسب الى عوف :

فهما تشا منه فزيارة تعطكم ومهما تشا منه فزيارة تمنعنا

يقول : « البيت غير موجود في ديوان ابن الحرج وانما هو من قصيدة للكميـت بن ثعلبة أوردها أبو محمد الأعرابي في ضالة الأديـب »^(١٢) .

وهذا الديوان الذي رأينا البغدادي يشير اليه هنا في محاولة لتوثيق شعر عوف نجده في مكان آخر من كتابه يصفه وصفاً دقيقاً، بل ان هناك اشارة أخرى دقيقة ونادرة في الوقت نفسه ، وهي قوله بأنه يتوفى على هذا الديوان وهو في حوزته ، وضمن مكتبه، يقول : «وله ديوان صغير وهو عندي» (١٣) .

وفي هذه العبارة ما فيها من الدقة والأمانة العلمية ، وهي تتم عما كان يحظى به علماؤنا القدامى من ثراة وصدق في وصف الأشياء ونعتها بأوصافها حتى لا يؤخذ عليهم أي مأخذ في حياتهم العلمية والاجتماعية .

غير أن هناك اشارة من البغدادي ربما تفيينا في بناء ملاحظات أخرى وهي قوله : قال أبو سعيد المسن بن المسين السكري في شرح ديوانه (١٤) - أي ديوان عوف بن عطية - وعلى هذا الأساس نتساءل قائلين : هل كان البغدادي يتوفى على الديوان كما أشار هو عينه بالإضافة إلى نسخة مشروحة أخرى ؟ أو أن الديوان والشرح كانوا في نسخة واحدة ؟ .

والراجح عندي أن البغدادي كان يتوفى على نسخة من ديوان عوف حالياً من شرح السكري ، مما دعا به إلى أن يصفها بقوله : «وله ديوان صغير وهو عندي» (١٥) . ثم نسخة منفردة بشرح السكري لأننا لا نجد آية اشارة تفيد بأن نصوص الديوان كانت مشروحة ضمن نسخة الديوان مما دعا بنا أن ننجع إلى هذا الرأي حتى تثبت الدلائل عكس ذلك .

ان مقوله البغدادي : «وله ديوان صغير وهو عندي ، تثبته الدلائل المادية ، ذلك ان ما جمعناه من شعر يعطينا صورة تقريبية عن كون هذا الديوان كان ديواناً صغيراً بعكس ما كان يجمع بين دفتيره من شعر ، فمقداره حسب ما أحصيت وجمعت قد لا يزيد كثيراً على ١٣٠ بيتاً . وهو قليل جداً اذا ما قورن بيته من الشعرا ، وبشكله الاجتماعي الذي يحتم عليه أن يكون اللسان الوحيد لقبيلته المدافع والذاب عن حمامها وعرضها ، وخاصة أن المصادر تصفه بأنه كان أحد شعراء العرب وفرسانها» (١٦) .

والذي نصل إليه بعد هذا المرض أن ديوان عوف بن عطية كان موجوداً في القرن الحادى عشر الميلادى عند البغدادي ، وهو ديوان صغير وذكر له شارحاً شهيراً هو السكري الحسن بن المسين المولود سنة ٢١٢ هـ المتوفى سنة ٢٧٥ هـ . وهو من العلماء الذين خلطوا بين المذهبين: البصري والكوفي (١٧) . فقد روى عن أبي حاتم السجستانى والعباس بن الفرج الرياشي ، وعن محمد بن حبيب ويعقوب بن السككى ، وقد اشتهر السكري بكثرة المجمع والاستقصاء حتى قالوا عنه انه : «كان اذا جمع جمماً فهو الاستيماب والكثرة» (١٨) .

وعرفوه بأنه : «الراوية الثقة المكثر» (١٩) . وقد عرف السكري بشرحه للدواين المفردة ودواين القبائل ، فقد ذكر أبو الفرج محمد بن اسحاق المتوفى سنة ٣٨٥ هجرية ، في الفهرستثمانية وعشرين ديواناً من القبائل ، وكلها منسوبة إلى صانعها ، وهو في أكثرها أبو سعيد السكري ما عدا ديواناً واحداً نسبه إلى ابن الكلبي . ولم يذكر من بينها أي ديوان للرباب ، كما فعل الأمدي ، ولعل أشعار الرباب التي ذكرها الأمدي لم تصل إلى ابن النديم ، إلا أن يكون قد صد بها أشعار تميم ، وهو احتمال ضعيف جداً ويقوى ضعف

هذا الاحتمال أن ابن النديم حينما ذكر الرواين المفردة التي صنعتها السكري لم يذكر من بينها ديوان عوف بن عطية ٠

وتبين من الاشارات التي وصلت اليها أن السكري كان في شرحه لديوان عوف راوية وشارحاً في الوقت نفسه ، فقد اعتمد على المخلفة التاريخية قبل أن يشرح الآيات . فقال في تبيان المناسبة التي قيلت فيها قصيدة الميمية :

هـما إبـلـانـ فـيهـما إـنـ عـلـمـتـ فـادـوهـما إـنـ شـتـمـ

« أقبل أهل بيت من ربيعة بن مالك بن زيد مناة وهم بنو الأعشى حتى نزلوا وسط الباب ، فاغار عليهم بنو عبد مناة بن يكر بن سعد بن ضبة ، فأخذوا ابليم فقال بنو الأعشى انظروا رجالاً من الباب له منعة وعن فادعوا عليه جواركم لعله يمنعكم او تلبسوه بين القوم شرّا ، فأتوا عوف بن عطية بن المزمع فقالوا يا عوف أنت والله جارنا ، وقد أخبرنا قومنا أنا نريدك فانطلق عوف الى عبد مناته فقال أدوا هؤلاء ابليم فأخذوا يضحكون به فقالوا إن شئت جمعنا لك أياماً وان شئت عقلنا لك فقال : أما عندكم غير هذا ، فقالوا لا ، فانصرف عنهم فقال لبني الأعشى اتبعوا مصادر النعم حتى اذا أوردوا قال : يا بنى الأعشى لا تقصرموا خذوا مثل ابلكم فأخذوا ثم انطلقوا حتى نزلوا معه على أهلهم فجاءه بنو عبد مناته فقالوا يا عوف ما حملك على ما صنعت قال الذي صنعتم حملني » فأخذ يلعب بهم ، وقال : ان شئتم جمعنا لكم وان شئتم عقلنا لكم » (٢٠) ٠

ولا احال أن فهم هذه القصيدة يكون بمثابة عن المناسبة التي قدمها السكري ٠

والى جانب اهتمام السكري بالأعياد التاريخية وعدده اياها ركيزة أساسية من الركائز التي يجب ان يعتمد عليها في فهم معانى الشعر واستكتابه خلفياته فإنه كان يعتمد كذلك على الجوانب اللغوية والنحوية ، ونرى امثلة لذلك فيما اورده لنا البغدادي من شرح لأبيات الميمية . قال : قوله : « وان شتم القعْن ، قال السكري : يقول : ان شتم فردوها او تلقعنها وتتردونها باولاهما . وعين بعين : اي ردوها باعينها حتى تردها باعيانها . ويقال : قد تنجت الفرس او الناقة هي متوجة ، وفرس نتوج في بطئها ولد » (١١) ٠

ثم يضيف ، قال السكري : ان صار الأمر على عقل أخيكم الذي أخذت ابله فاعقلوا بنات المخاض والبكار المقاوم ، اي اجمعوا له الرذالة فادوها اليه ، وهذا هراء بهم ٠

وقوله : جزيت بنى الأعشى ، قال السكري : « المخاض : الموامل ، واحدتها خلفة . واللقاء : ذوات الأليلان واحدتها لقحة ، يكسر فسكون . ويقال أيضاً لقوح والمجمع لقح . والروائم : جمع رايم وهي التي أحبت ولدهما واعطفت عليه ، يقال قدر ثمنته امه رئمانا ، ورأمتها : ما عطفت عليه من ولد غيرها أو بوا » (٢٢) ٠

وعلى هذا النسق يمضي أبو سعيد السكري في شروحه كلها مولياً التواحي اللغوية والنحوية أهمية كبيرة . أما الشرح الأدبي فانت لا تنظر منه الا بعض الاشارات القليلة

كان يفسّر البيت باجمال ولكنه سرعان ما يعود الى شرح الكلمات وذكر أقوال جهابذة اللغة من العلماء^(٢٣) .

وعلى هذه الصورة التي رأينا عليها هذا الامتناع ، واعتماداً على الاشارات الطفيفة التي قمناها من خلال نقلنا عن البغدادي الذي كان يمتلك نسخة من الديوان فاننا نرى أن السكري في شرحه لديوان عوف قد اتبع نفس المنهج الذي اعتمد في شروحه التي وصلت اليانا ومن أشهرها شرح أشعار الهندلين ثم شرحه لديوان كعب بن زهير .

٢ - رواية شعره :

لم نجد في المصادر التي رجعنا اليها أية أخبار توضح لنا كيفية وصول شعر عوف بن عطية الى القرن الثاني الهجري حتى يستشهد به سيبويه في كتابه ويختار منه المفضل في مختاراته . فاننا مع ذلك نعتقد أن شعر عوف قد وصل الى عصر التدوين عن طريق الرواية . ففي القرن الأول لا نجد شيئاً عن رواية شعر عوف حتى نصل الى القرن الثاني الهجري ، فنرى الآمدي يقول: ووُجِدَتْ فِي أَشْعَارِ الرِّبَابِ عَنِ الْمُفَضْلِ وَحْمَادٍ^(٢٤) . وهذه الاشارة قد تتحمل أن ديوان الرباب كله عن المفضل وحماد ، وقد تعني أن في هذا الديوان شعرأً عنهم كما كان من جملته هذا الشعر الذي أورده^(٢٥) .

وهذا الروايتان قد صنعا شعر الرباب وترجح أن يكون ديوان عوف ضمن أشعار الرباب ، لأن كتاب القبيلة أو ديوانها كان يضم بين دفتري قصائد كاملة ومقطمات صغيرة، وأبياتاً متفرقة لشعراء تلك القبيلة أو لبعض شعرائها وربما ضم أكثر شعر هؤلاء الشعراء، بل ربما ضم جميع شعر شاعر منهم وديوانه كاملاً ، ثم يضيف الى ذلك من الأخبار والنسب والقصص والأحاديث ما يتصل بالشاعر نفسه أو بافراد قبيلته وما يوضح مناسبات القصائد ويفسر بعض أبياتها وبين ما فيها من حوادث تاريخية^(٢٦) .

ان مقوله الآمدي السابقة لا توضح ما اذا كان ديوان الرباب من صنعة حماد والمفضل ومن جملها مع أن هناك من يثبت : « ان كتب القبائل كانت مكتوبة معروفة قبل مطلع القرن الثاني الهجري، وأن الرواية من رجال الطبقة الأولى في القرن الثاني قد وصلتهم هذه المدونات من القرن الأول الهجري فأعتمدوها مصدراً من مصادر تدوينهم لشاعرهم التي نسبت روایتها اليهم »^(٢٧) .

وعلى هذا فاننا أرجح أن يكون حماد والمفضل من رواة شعر عوف ، ومن الذين أوصلوه الى عصر التدوين ، ويؤيد هذا الترجيح أن المفضل اختار ما نعتقد أنه رواه ثلاث قصائد تكون الجزء الأكبر من شعره وأثبتها في مختاراته ، وهذا الجزء هو الذي يكون الرواية الكوفية لشعر عوف . تتفاوت اليه روایة حماد على الرغم من أننا لم نجد له أي شعر يرويه روایة مباشرة .

اما الرواية البصرية فيمثلها الأصمسي، عبد الملك بن قریب (ت ٢١٦) هجرية ، ونعتقد أن ما أثبته في الأصمسيات يمثل تلك الرواية البصرية ، وقد أثبت قصیدتين لم

يشتبهما المفضل ، وان كان قد اجتنأ احداها وترك منها بعض الآبيات ، فقد روى قصيدة عوف التي يبدأها بقوله :

فما ابلغان فيهما ان شتم ان نسالنا

فهي عنده ثلاثة عشر بيتاً^(٢٨) . ولكن البغدادي في الخزانة يقول معلقاً على شطر بيت من القصيدة : « والشعر الثاني هو لعوف بن عطية بن المزعزع التميمي والمصارع أول قصيدة عدتها سبعة عشر بيتاً»^(٢٩) . فالأسمعي قد يكون له رأي في تلك الآبيات ، كان يمدّها منحولة على عوف فلا يشتبه في روايته لأنّه عالم البصرة المتخصص ، والذي يعتمد على شروط دقة في رواية الشعر من دون تكثّر ولا زيادة . ولم يقتصر الأسمعي على رواية ما أثبته في الأسماعيات ، بل نجد اشارته أخرى تثبت أنه روى كذلك رائحة عوف الطويلة والشهيرة والتي رواها المفضل وأثبتها في اختباراته .

ففي شرح التبريزى على المفضليات بعدما أثبت رواية المفضل للبيت :

احبى الخليل وأعطي المزيل ومالى أفعى فيه اليسارا
فيردفها مباشرة بقوله : رواية الأسمعى :

احبى الخليل وأعطي المزيل ومالى أفعى فيه اليسارا^(٣٠)

وهذه الرواية منسوبة الى أحمد بن عبيد ينسبها الى الأسمعى ، كما ذكر الأنباري في شرحه^(٣١) .

والى هنا تكون قد وضمنا أيدينا على روايتين لشاعر عوف : الأولى بصرية ، وهي رواية الأسمعى عبد الملك بن قريب رأس مدرسة البصرة ، والرواية الثانية كوفية ، وهي عن عالئن جليلين من علماء الكوفة مما الفضل الضبي العالم المحقق ، وحماد الرواية شيخ مدرسة الكوفة الى جانب صديقه المفضل . ومن هتين الروايتين جمع السكري ديوان عوف وشرحه في القرن الثالث الهجري وبقي هذا الشرح متداولاً حتى وصل الى خزانة البغدادي في القرن الحادى عشر الهجري الذي كان البغدادي يعيش فيه ، فيصفه بأنه كان ديواناً صغيراً ثم يأخذ عن شرح السكري لهذا الديوان في بعض الأماكن من تاليفه ذاك .

٣ - شعره في القرنين الثاني والثالث :

رأينا فيما سبق أن الأmedi يذكر في كتابه المؤتلف والمختلف أن حماداً والمفضل قد صنعا أشعار الرباب ، وساعدتها رجحنا أن يكون ديوان عوف بن عطية ضمن ذلك المجموع . الا أننا عرّفنا أكثر أن ديوان عوف وجد عند البغدادي في القرن الحادى عشر الميلادى ، وأن السكري هو شارح ذلك الديوان ، وان كنا الآن لا نتوفر الا على ما حملته

لنا المصادر المختلفة ، ولا ندري هل نقلت تلك المصادر أبياتاً لمعرف أو قصائد لم ترد في الديوان ، ذلك لأن صنع ديوان جاهلي أو إسلامي ، لم يكن يضم شعره كلها ، وإنما يضم في الغالب ما اختاره صانع الديوان أو ما وقع له عن طريق رواة معينين وبذلك تبقى بعض القصائد أو الأبيات متناشرة في الكتب والمصنفات المختلفة ولا وجود لها في الديوان نفسه (٢٢) .

ولهذا لا بد أن تتبع هذه المصادر لا من حيث نوعها أو موضوعاتها وإنما بالنسبة إلى ظهور هذا الشعر فيها تاريخياً لنرى كيف تدرج ظهور شعر عوف في تلك المصادر ، وهذه النظرة التاريخية إلى مصادر شعر عوف تقدم فائدة جلية لدراسة المحتوى من شعره ، ذلك لأنها تضع بين أيدينا على الأقل نوع المصادر التي أوردته واهتماماته بروايته .

وقد أفردنا مصادر القرنين الثاني والثالث ، لأنها صنعت في الفترة التي صنعت فيها ديوان الرباب أو ديوان عوف ، أو كان بعضها قريباً للهدى من صنع هذا الديوان . ثم لأن هذه الكتب كانت موضعاً ثريراً لما بعدها من مصنفات . وهذا ما يدعو إلى شيء من العناية في دراسة هذه المصادر وخاصة منها تلك التي أوردت طائفة كبيرة من شعر عوف .

وأقلم ما بين أيدينا من المصادر يعود إلى القرن الثاني الهجري أمثل الكتاب سيبويه (١٨٠) هجرية ، والمقضيات للمفضل الضبي (١٧٨) هجرية . ومعروف أن مؤلف سيبويه ذو طبيعة نحوية ، يرغب صاحبها في معرفة وإيجاد الشاهد للقاعدة التي يريد أن ينشئها ، ومن هنا فإن أي شعر لا يجد فيه التحوي المثال الذي يبحث عنه لا يدرجه أبداً في مؤلفه ، ولذلك فأننا لا نجد في كتاب سيبويه من شعر عوف إلا أربطة قليلة وهي ثلاثة أبيات أحدها من الرائية الشهيرة ، وثانية من أبياته الدالية المبدوعة بقوله :

هلا فوارس رحرحان هجوتهم عشرأ تناوح في سراة وادي

وقد نسب البيت إلى النابة البعدى ، وهو ثابت النسبة لمعرف في جميع المصادر التي ذكرته . وبيت ثالث هو :

ومهما تشا منه فزارة تعطكم فمهما تشا منه فزيارة تمنعنا

والبيت مختلف في نسبته من عوف بن عطية إلى الكبيت بن معروف أو الكبيت بن شعبة . واضح عدم التعرى والدقة في اثبات هذه الأبيات ، فقد أصاب سيبويه في أولهما وأخطأ في ثانيهما ، وخلط في الثالث أذ نسبه إلى عوف وهو مختلف النسبة ، وعذرنه أنه عالم قواعد يبحث عن المثل والشاهد ولا يهتم بصحة نسبة البيت إلى صاحبه الأصلي .

وأما المصدر الثاني فهو ديوان المفضليات من كتب الاختيار وهي أقدمها أذ لم يختبر أحد شيئاً من الشعر وجمعه في مجموعة مستقلة قبله الا ما يمكن أن يقال عن أمر المعلقات (٢٣) .

صاحب هذه الاختبارات هو المفضل بن محمد بن يعلى الضبي ، رأس علماء الكوفة .

ولستنا هنا بقصد دراسة المفضليات والاعتناء ب أصحابها لأن أقربها مشهور ذائع الصيت (٢٤) ، وإنما يعنيها منها ما أورده منأشعار عوف بن عطية . فقد أورد المفضل في

اختياراته ثلاثة قصائد أولها الرائية الشهيرة وعدة أبياتها اثنان وأربعون بيتاً ، أضفتنا إليها بيتاً آخر وجدرنا في كتاب النيل لأبي عبيدة: معمراً بن المنفي . ثم ذكر له قصيدة رائيتين كذلك ، وتمدد كل قصيدة سبعة أبيات . وعلى هذا يعتبر المفضل في المرقية الأولى من حيث رواية شعر عوف اذ بلغ اجمالي ما أثبت له ٥٦ بيتاً وهو مقدار لا يأس به ، وكله صحيح النسبة لمعرف .

وعلى كل فإن مصادر القرن الثاني على قلتها لم يظهر فيها الوضع ، وما رأيناه عند سيبويه لا يمدو خطأ في نسبة الشعر إلى صاحبه الحقيقي ، وهذا النوع لا يضر بقيمة الشعر وتوثيقه .

اما في القرن الثالث فعليينا أن نتوقع مزيداً من المصادر اذ يلغت حركة التاليف ذروتها ووصلت إلى مرحلة كبيرة من النضج . فبرز إلى حيز الوجود رواة مصنفون في النحو واللغة والأدب والتاريخ . وفي هذا القرن نجد من المصادر: معاني القرآن للقراء (ت ٢٠٤) هجرية ، والنقانش ومجاز القرآن لأبي عبيدة معمراً بن المنفي (ت ٢١٠) هجرية، والأصمعيات والغيل للأصممي ، عبد الملك بن قريب (ت ٢١٦) هجرية، وطبقات فحول الشعراء لابن لام الجمحي (ت ٢٢٢) هجرية، وتهذيب الألفاظ والإبدال لابن السكينة (ت ٢٤٤) هجرية ، والحيوان والبيان والتبيين والبرصان والمرجان للجاحظ (ت ٢٥٥) هجرية ، ومعاني الشعر للأشناني (ت ٢٥٦) هجرية، والمعنى الكبير وابد الكاتب وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (ت ٢٦٦) هجرية ، والكامل والمقتضب للمبرد (ت ٢٨٥) هجرية ، وبجالس ثعلب (ت ٢٩١) هجرية .

وهذه المصادر تمتاز بكونها ألت في القرن الذي جمع فيه السكري (ت ٢٧٥) هـ ، ديوان الشاعر وشرحه ، ولذلك فقد أوردت معظم ما جمعناه من شعر لعرف وكررت بعض الأبيات من رائيته الطويلة ، ومع ذلك فقد بقي عليها بعض أشعار عوف لم تذكرها مما ستدكره المصادر التي سنتحدث عنها لاحقاً .

وهذه المجموعة من المصادر موئلة ورواتها ومؤلفوها ثقات مبرazon وعلى رأس مؤلء الأصممي رأس مدرسة البصرة . ومحمد بن سلام الجمحي الذي قدم لكتابه بمقدمة قيمة تعرض فيها لنظرية انتقال الشعر ومضى يطبق آراءه في المقدمة على شعر الشعرا داخل متن الكتاب . ولم يكن عوف من تمرض للوضع والانتقال اذ لم يتحدث عن هذا الموضوع في ترجمته له واستعراض أخباره وأشعاره(٣٠) .

والذي نجده في هذه المجموعة من يشير إلى الوضع في شعر عوف هو أبو عبيدة ، وكان ذلك في أبياته الدالية :

هلا فوارس رحرحان هجوتم
عشاً تناوح في سراة وادي
والبيتان :

ما زال حينكم ونقض حلومكم
حتى بلوتم كيف وقع الأسود
وقبائل الأحلاف وسط بيوتكم
يعتلون هامكم بكل مهنة

ومهما يكن من أمر فإن المصادر على الأطلاق هي كتب الأصمعي ، فقد أورد في اسميعاته اثنين وعشرين بيتاً . وأورد بيتأو عجز بيت من الرائية الطويلة التي في المفضليات . وما أورده في الأسماعيات جديدة كله لم يرد في مصادر القرن الثاني . ثم يلي ذلك كتب ابن قتيبة وقد أورد له أربعة وعشرين بيتاً، أغلبها من الرائية الطويلة المفضلية . والأبيات الثلاثة التي توجد في النقائض، وأبيات ثلاثة من الأسماعية(مما ابلاغ فيها ماعلتم ..).

والجديد في كتب ابن قتيبة ، بيت واحد هو :

ولقد أراك ولا تؤبن هالكما عدل الأصرة في السنام الأكوم

عجز بيت هو : (شدوا المطي على دليل دائب) . وفيه بيت منسوب إلى عوف ابن الأحوص وينسب لابن المزعر . وتقسيم ذلك يكون على النحو التالي : تاسعة عشر بيتاً في المعاني الكبير ، وبيتان في أدب الكاتب ، وثلاثة أبيات في تأويل مشكل القرآن . وابن قتيبة موثق أيضاً ، قال فيه البغدادي : « كان رأساً في العربية والأخبار وأ أيام الناس ، ثقة ديناً فاضلاً » (٣٦) .

ويلي ذلك كتب أبي عبيدة إذ أورد ثلاثة عشر بيتاً في النقائض وبيتاً واحداً في مجاز القرآن ، وقد لاحظنا سابقاً أن آبا عبيدة شرك في بعض الأبيات التي أوردها لعوف .

ويلي ذلك كتب المباحث إذ أورد لعوف ستة أبيات في البيان والتبيين وأربعة أبيات في البرسان وبيتين في الحيوان . وأغلب تلك الأبيات لم ترد في مصادر القرن الثاني ولا في المصادر التي تحدثنا عنها سابقاً .

والملاحظ موثق أيضاً وكتبه : « تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً» (٣٧) .

ثم يأتي ابن السكيت في كتابه ، إذ أورد لعوف ستة أبيات في تهذيب الألفاظ وبيتاً واحداً في كتاب الابدال ، وكلها أبيات قد وردت في المصادر السابقة ، ومثلها ما أورده باقى مصادر القرن الثالث . فالملبرد أورد بيتأفي الكامل وبيتاً آخر في المقتنب . وابن سلام أورد خمسة أبيات في الطبقات . وأربعة أبيات في مجالس ثعلب ولم ينسها لعوف . وهي الأبيات الدلالية الشهيرة التي وردت في النقائض وطبقات فغول الشعراء ، وبيتاً في معاني القرآن للفراء ، وأخيراً يأتي الأشنانداني ببيت ي يتم في كتابه معاني الشعر من دون أن ينسبه إلى عوف .

٤ - شعره في مصادر ما بعد القرن الثالث :

لقد رأينا حينما كانا نستعرض مصادر شعر عوف في القرنين الثاني والثالث أن هذه المصادر كانت كتب اللغة والأدب ، أما في القرن الثالث فقد أصبحت مصادر شعر عوف تضم أنواعاً متعددة منها ما له صلة بموضوعات الشعر العربي القديم ومنها ما له صلة ببعض اللغة أو صرفها أو الفاظها ومنها ما يتصل بمواضع الجزيرة العربية إلى غير ذلك .

وإذا أردنا أن نبحث عن شعر عوف في مصادر ما بعد القرن الثالث فعلينا أن نتبعد إلى كتب اللغة والأدب أمثال كتب الأمازيغية والترجمة والماجام وما إليها . ويعدها نظر في كتب التاريخ ، كتاریخ ابن جریر الطبری ، وشة جزئيات قد تبحث عنها في المصادر التي تعنى بموقع جزيرة العرب ، أمثال معجم البلدان لياقوت الحموي ، ومعجم ما استعمج للبکري إلى غير ذلك من أمثل هذه المصادر .

ومنطقى نظرية تاريخية مرتبطة على تلك المصادر ، نحاول من خلالها أن نقف على تدرج ظهور شعر عوف خلال هذه القرون كالذى صنمنا في مصادر القرنين الثاني والثالث .

في القرن الرابع يبلغ التأليف مرحلة النضج الكامل ، فظهرت المصادر الكبرى الجامعة في مختلف أنواع التأليف يومئذ سواء في اللغة أو في الأدب أو في التاريخ أو التفسير إلى فسحها . ثم ظهرت مرحلة تالية على التأليف وهي مرحلة الشروح على المختارات في القرن الثاني وكذا كتب النوع . ومن ذلك شرح المفضليات لابن الأنباري . وعلى أساس من ذلك نعدد مصادر القرن الرابع على النوع التالي : تاريخ الأمم والملوك وجامع البيان في تفسير القرآن للطبرى (ت ٣١٠) هجرية ، وكتاب الاختيارين للأخفش (ت ٣١١) هجرية ، والاشتقاق والمعنى لابن دريد (ت ٣٢١) هجرية ، وابن الأنباري في الظاهر (ت ٣٢٨) هجرية ، وأهرب القرآن المتن . وبللزجاجي (ت ٣٣٧) هجرية ، وشرح أبيات سبيويه لابن التحاش (ت ٣٣٨) هجرية ، والأغاني لابن الفرج الأصفهانى (ت ٣٥٦) هجرية ، والموازنة للأمسى (ت ٣٧٠) هجرية ، وتهذيب اللغة للازهري (ت ٣٧٠) هجرية ، والأنوار ومحاسن الأشعار للشمشاطي (ت ٣٨٠) هجرية ، ومعجم الشعراء للمرزاeani (ت ٣٨٤) هجرية ، وشرح أبيات سبيويه لابن السيرافي (ت ٣٨٥) هجرية ، والأشباء والنقائش للغالدين (ت ٣٩٠-٣٨٠) هجرية ، والخصائص لابن جنى (ت ٣٩٢) هجرية ، والصالح للجوهري (ت ٣٩٣) هجرية ، والصحابي في فقه اللغة للشعابي (ت ٣٩٥) هجرية .

وفي مصادر القرن الرابع ما يعيد ويذكر ما أوردته مصادر القرنين الثاني والثالث ، ومنها ما يضيف جملة جديدة من أشعار عوف . فالأخفش في كتابه الاختيارين يضيف قصيدة كاملة تعداد أبياتها ثلاثة عشر بيتاً لم ترد في المفضليات ولا في الأسمعيات ، وهي في وصف الفرس :

وابن دريد يضيف بيتاً :

شدوا المطسي على دليل دائم من أهل كاظمة بسيف الإبغر

ثم يضيف بيتاً آخر ينسبه لذؤوب بن كعب . أما المرزاeani فيثبت له ثلاثة أبيات في معجم الشعراء . ونصل إلى الشمشاطي وهو من علماء القرن الرابع فينسب له ثلاثة أبيات وهي أبيات ثابتة النسبة شهيرة الرواية لقيس بن الأسلت ضمن مفضلاته الشهيرة .

ومهما يكن من أمر فالحقيقة من مصادر القرن الرابع إنما توثق وتزيد من تغريب أشعار عوف التي رأيناها في مصادر القرنين الثاني والثالث . وهي كلها مصادر موثقة بها . ولا تضيف أي موضوع من موضوعات شعر عوف إلا ما كان من القصيدة التي أثبناها الأخفش وهي في وصف الفرس وهو امتداد لوصف فرسه في رأيته الطويلة .

وفي القرن الخامس نلتقي بجموعة من مصادر اللغة والنقد والأدب وعلوم القرآن أمثال : إعجاز القرآن للباقلاني (ت ٤٠٣) هجرية ، والمنتزع للنهشلي القزواني (ت ٤٣٠) هجرية ، والإيناس في علم الأنساب لابن المقربي (ت ٤١٨) هجرية ، وانساب الغيل للأسود الفندجاني (ت ٤٣٠) هجرية ، وأمالي المرتضى (ت ٤٣٦) هجرية ، والمخصعن لابن سيده (ت ٤٥٨) هجرية ، والحمدة لابن رشيق (ت ٤٥٦) هجرية ، وشرح أبيات الكتاب لاشتوري (ت ٤٨٦) هجرية ، وسمط الذلّي ومعجم ما استجم للبكري (ت ٤٨٢) هجرية ، والاضحاج في شرح أبيات مشكلة الاعراب للفارقي (ت ٤٨٧) هجرية ، ومواد البيان لعلي بن خلف الكاتب (من علماء القرن الخامس) .

وهذه المصادر لا تضيف أي جديد لشعر عوف بن عطية سوى ما نجد له عند الأسود الفندجاني اذ أثبت له بيتأ لم تروه المصادر في القرون السابقة . والبيت يذكر فيه اسم فرس قيس بن حسان وفخره بها ، وهو بيت لم نجد له ذكرًا فيما حصلنا عليه من مصادر .

اما البكري فقد نسب له بيتأ لم تنسبه له المصادر السابقة وهو قوله :
الْمُأْلَفُ عَنِ الشَّعْرَاءِ عَرْضِيٍّ كَمَا ظَلَفَ الْوَسِيقَةَ بِالْكَرَاعِ
بل هو شهر النسبة الى عوف بن الأحوص .

وفي القرن السادس تصادقنا جملة من المصادر أمثال : محاضرات الأدباء للراغي الأصبهاني (ت ٥٠٢) هجرية ، وشرح المفضليات والكاف في العروض والقوافي للتبريزي (ت ٥٠٢) هجرية ، والاقتضاب في شرح أدب الكتاب للبطليوسى (ت ٥٢١) هجرية ، وأساس البلاغة للزمخشري (ت ٥٣٨) هجرية ، وشرح أدب الكاتب للجواليقي (ت ٥٣٩) هجرية ، وأمالي ابن الشجري (ت ٥٤٢) هجرية ، وسرقات المتبنى لابن بسام (ت ٥٤٢) هجرية .

وجميع هذه المصادر تكتفي بتكرار أشعار عوف الواردۃ في المصادر التي تحدثنا عنها في القرنين الثاني والثالث ، وكلها تنسب الأبيات نسبة صحيحة الى عوف او تذكرها من دون أن تنسبا الى شاعر معين ، الا ما كان من الراغب الأصبهاني حينما روى بيت عوف :

لها حافر مثل قعب الوليد تتغذى الفار فيه مغارا
لموف بن الوليد وهو شخص لا نعرف عنه اي شيء . كما نسب بيته :
وتكر اولاهم على اخراهم كر المعلا عن خلاط المصادر
لقيس بن عطية .

ونصل الى القرن السابع فلا نعثر على مصادر كثيرة ولا على اشعار كثيرة، فطبعية هذه المصادر أنها شروح لمؤلفات قديمة ، كشرح المفصل لابن يعيش (ت ٦٤٣) هجرية ،

والرضي على الكافية (ت ٦٨٦) هجرية ، أو أنها مصادر تبحث في البلدان ، كمجم
البلدان لياقوت المسوى (ت ٦٢٦) هجرية ، وأخر هذه المصادر ، القراء لابن عصفور
(ت ٦٦٣) هجرية .

وأغلب هذه المصادر إنما يذكر البيت أو البيتين ، وأهمها على الأطلاق هو معجم
البلدان لياقوت الذي نستدل من بعض تعليقاته على الأبيات أنه قرأ شعر عوف في تلك
الفترة أي في القرن السابع الهجري .

أما في القرن الثامن فتضاءل المصادر إلى ثلاثة فقط ، وهي لسان العرب لابن
منظور الذي أورد لعوف خمسة عشر بيتاً بعضها متسبّب إليه والبعض الآخر غير متسبّب . وكلها
أبيات مذكورة في المصادر السابقة وليس فيها أي جديد . ونهاية الأربع للنويري (ت ٧٣٣) هجرية ،
يذكر له بيتاً من الرائية الطويلة من دون أن يتسبّب إليه . وتاتي التذكرة السعلية للبيهقي لتعتّقنا
بيت جديد لم نعثر عليه في المصادر التي تقدّمتنا عنها سابقاً . وهو بيت من أبيات ذكرها الجاحظ
ولكنه لم يثبته ، وقد اثبته البيهقي مع بيت آخر من تلك الأبيات ومنه نقلناه . والظاهر أنه كان
ساقطاً من رواية الجاحظ للأبيات ، ويقى في معرفة غيره حتى وصل إلى القرن الثامن فاثبته
البيهقي في مكانه . والبيت في ذكر أعداء قوم الشاعر فانهم جاؤوا قصد الاعتداء ، ولكنهم لم
يقفوا بما جاؤوا راغبين فيه . وكم من واحدياتي إلى سفاهة وهو عالم بأنه لا يستطيع التفر
بما يطلب .

وإذا انتقلنا إلى القرن التاسع فلا نظر لا ي مصدر واحد هو المقاصد النحوية
للبيهقي (ت ٨٥٥) هجرية وهو لا يذكر إلا البيت المتسبّب إلى عوف :

فمهما تشا منه فزارة تعطكم ومهما تشا منه فزيارة تمنعنا

ويتبّع للكميٰ بن معروف . وهذا كل ما نجده في ذكر شيء له علاقة بشاعرنا .

وفي القرن العاشر نلتقي بمصادرين وهما مع الهوامع للسيوطى (ت ٩١١) هجرية ،
وهو يذكر عجز بيت عوف المتسبّب له (فمهما تشا منه فزيارة) من دون أن يتسبّب إلى
شاعر بعينه ، كما يذكر عجز بيته الآخر : (وذكرت من لبن المحلق شريبة) والبيت
شهر النسبة إلى عوف ، الا أن السيوطى يذكر العجز غالباً من أي نسبة . وشرح الفنية
ابن مالك للأشموني (ت ٩٢٩) هجرية فلم يثبت إلا بيت عوف المختلف النسبة ويتسبّب
للكميٰ بن معروف . وكل الاضافات في القرن العاشر لا تزيد أي جديد ، ولديه لها قيمة
علمية كبيرة إلا ما يمكن أن نسجله من حضور لشعر عوف في ذاكرة علماء هذا القرن .

أما في القرن الحادى عشر فتبرّز خزانة الأدب للبغدادى (ت ١٠٩٣) هجرية وحيدة
فريدة ، ولكنها مع ذلك مصدر عزيز نادر لشعر عوف ، ولا يتجلّى ذلك في أنها قدمت لنا
أشعاراً جديدة ، بل إنها لم تقدم شيئاً من ذلك على الأطلاق ، الا أن مصدر أهميتها
وندرتها يعود إلى أن صاحبها كان يمتلك نسخة خطية صغيرة لديوان عوف وهي بشرح
السكري ، وقد أشار إلى عدم وجود بعض الأبيات في ديوان الشاعر ، كما أفادنا بأن

الأصممية التي رواها في ثلاثة عشر بيتاً عدتها مبعثة عشر بيتاً ، ولكن هذه الأبيات وهي يحكم الأربع ضائعة لم نجد لها في المصادر التي جمعنا منها شعر عوف ، وبذلك تكون خزانة الأدب من المصادر الهمة التي أشارت إلى ديوان عوف كما رأينا سابقاً .

وأخيراً نلقى نظرة على مصادر القرن الثالث عشر . فلتلتقي بتساق المروس في شرح القاموس للمرتضى الزيبي (ت ١٢٠٥) هجرية ، وحاشية الصبان على الأشموني (ت ١٢٠٦) هجرية . وهذان المصادران لا أهمية لها إذ ورد كل ما ابنته من شعر في المصادر السابقة ، ثم إننا لا نصادف أي ذكر لديوان الشاعر فيما بذلك تتضاءل قيمتهما من حيث جمع شعر عوف وكذلك معرفة أخبار ديوانه . ومن هنا تبقى الاشارة الوحيدة لديوان عوف هي ما تحدثنا عنه في مصادر القرن العادي عشر حينما رأينا أن البغدادي كان يمتلك سمعة منه .

وتبقى أخبار هذا الديوان مرتبطة بتلك الفترة وحتى أيامنا هذه ، ولا ننوي متى تتعينا الأيام بهذا الديوان لنغير جميع تلك الآراء ونطلق الحكم الفصل في كل ما قيمناه سابقاً .



□ الهوامش :

- ١- هو عوف بن عطية بن الفرع ، والفرع لقب جده عمرو بن عبس ، شاهر مقلق وفارس وسيد من سادات تم الرياب .
 - ٢- انظر طبقات فول الشعراه ١٥٩/١ ، معجم الشعراء ١٢٥ ، خزانة الأدب ٨١/٣ .
 - ٣- تنشر مجلة «العرب» الفراء ، شعر هذا الشاعر ضمن حلقات متابعة بقلم كاتب هذه السطور ، وقد نشرت الحلقة الأولى منه في الجزء ٢ و ٨ ، السنة ٣٠ ضمن عدد يونيو ويوليو ١٩٩٥ .
 - ٤- معجم البلدان (الرثاء) .
 - ٥- خزانة الأدب ٨١/٣ و ١٥٢/٢ .
 - ٦- الكتاب ١٣٢/١ و ١٥٢/٢ .
 - ٧- المفضليات : الإبرازم ٩٤ ، ٩٥ ، ١٢٦ .
 - ٨- خزانة الأدب ٨١/٣ .
 - ٩- الروض الأنف : ٢٣٥-٢٣٦ و تاویل مشكل القرآن : ٣٣٤ .
 - ١٠- معجم البلدان ٤٥/٣ .
 - ١١- خزانة الأدب ٩/١ .
 - ١٢- المصدر السابق ٥٦٠/٤ .
 - ١٣- المصدر السابق ٨١/٣ .
 - ١٤- المصدر السابق ٣٨٣/٣ .
 - ١٥- المصدر السابق ٨١/٣ .
- ١٦- المحكم والمسان (خرج) .
 - ١٧- الفورست : من ١١٧ .
 - ١٨- معجم الأدباء ٩٤/٨ .
 - ١٩- المصدر السابق .
 - ٢٠- خزانة الأدب ٣٨٣/٣ .
 - ٢١- المصدر السابق .
 - ٢٢- المصدر السابق .
 - ٢٣- منهج أبي علي البرواني في شرح الشعر : ص ٥١ .
 - ٢٤- المؤتلف والمختلف : من ٢٢ .
 - ٢٥- مصادر الشعر الجاهلي : من ٥٤٥ .
 - ٢٦- المصدر السابق : من ٥٥٦ .
 - ٢٧- المصدر السابق : من ٥٥٨ .
 - ٢٨- الأصنعيات : من ١٥٩ .
 - ٢٩- خزانة الأدب ٣٨٣/٣ .
 - ٣٠- شرح التبريري على المفضليات ١٣٧٧/٣ .
 - ٣١- شرح الأنباري على المفضليات : من ٨٣٩ .
 - ٣٢- ديوان أمية بن أبي الصلت : من ١٠١ .
 - ٣٣- مصادر الشعر الجاهلي : من ٥٧٣ .
 - ٣٤- المصدر السابق : من ٥٧٣ وما يليها ، والمفضليات ولیقة لغوية وتاریخیة ، لعلی علام .
 - ٣٥- طبقات فول الشعراه ١٥٩/١ وما يليها .
 - ٣٦- بقية الوعا : من ٢٩١ .
 - ٣٧- وفيات الأعيان ١٤٢/١ .